سيبتيما

الكتاب: سيبتيما
المؤلف: محمود المعداوي
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
تدقيق لغوي: عاشور عطا
رقم الإيداع: 2019/28790
الترقيم الدولي: 978-977-778-220-3

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02-338560372
info@noonpublishing.net
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

محمود المعداوي

سيبتيما

رواية

نون للنشر والتوزيع

إهداء:

إليك يا أبي، أعلم أنهم قد ملّوني وسئموا حديثي عنك إلا أنك مازلت تحت الثرى يطربك كلمي، أعرف أن نجاحي هو كل راحتك وجميع حلمك وچل روحك، لم تزل صفحة وجهك البيضاء تسطع في أفق من المرارة أمامي.

إليكِ أمي، بات الكلام مائعا في وصفك، فلن أصف ما يعتمره قلبي لكِ، فتات الكلمات تلك لن تنجز هذه العلاقة الأحادية من العطاء، تقبلي ودي، شفاكِ الله وعافاكِ.

وإليك يا من قال لي: (لأنهم آذوك ستحقق حلمهم في كسرك ؟!.. إذا أردت أن تنتقم لنفسك منهم.. فانجح!)، ونجاحي يهمكم وحدكم، عائلتي الصغيرة:

(نورا، هند، عمرو، إياد، محمد، أنس، و... حسنا، لن أقول.. فما يذاع لن يكتمل...).

وأخيرًا

إليكَ يا ذا الشيطان، أحسدك كثيرا، لم أُمْسِك نفسي من الإعجاب بدربك، فعلت ما طاب لك من الدنس ، ثم أسلمت هكذا ! بتلك البساطة ؟!

ما حال قلبك كي تولد شيطانا ماردا فَتَسْلَم وَتُسْلِمَ لتنطفئ نارك، وتنفرد أجنحتك محلقا صوب عنان المغفرة، إن كان ذلك ما حدث!

أغار منك حقا.. إليك يا شيطان رسول الله .. طوبى لك، فقد رافقت خير الخلق وأسلمت على يديه تلك منقبة لم يظفر بها ثلة من الصالحين !

سؤالي هنا.. هل ستطأ الجنة أم سيسرى عليك عهد رفقائك في النار مخلدا ؟!

في القرن السبعين قبل الميلاد، ومع سقوط روما القديمة والتحول الديموقراطي إلى الجمهورية، ارتقى العديدون لدرجة من التقبّل والتصالح بحيث كوّنوا قوافل فيما بينهم استحالت إلى إمارات منفصلة يربط قاطنيها الكثير من العقائد والقناعات، فالأشراف قد اتخذوا واديهم والمتمردون اتخذوا آخر والفجار قطنوا غيره، جعلهم ذلك أهلا للعيش سويا متحدي التوجهات والميول، ككويكبات تدور بانتظام في نظامها الفلكي، لا السابق يبطئ ولا اللاحق يدرك.

اتخذوا من الوديان المخفاة المحظورة بلدانا ومَواطنا وسكنا، وقد وصل إلى تلك الوديان بمحض الصدفة، وعن طريق بعض الأوراق القديمة التي ألّفها يوما الرحالة الميتافيزيقي الروماني "زاراتونس".

نُقِل "زارا" صوب هذه الوديان عن طريق تلك الأوراق...!

ذي الأوراق التي التحفت ببعضها وترابطت فكوّنت هذه المخطوطة الملعونة حيث ترجع كتابتها - بإيعاز من ملوك الجان السبعة المتمردين وبعض الكيانات القديمة - إلى الجد المهاجر الأكبر لعبد الله الحظرد صاحب كتاب "العزيف"، هذا ما قد زعموه آن ذاك، ومن تلك المناطق كانت هناك هذه المملكة الرابضة، مملكة "لاتيوم" والتي انبثقت منها تسعة وديان سميت بأرقامها اللاتينية، حيث كانت اللغة الرسمية لتلك المملكة المحظورة آنذاك!

هذه المملكة كانت محجورة منيعة منذ أزمنة سحيقة باتفاق ومعاهدات ذُيّلت بتوقيع أمراء الوديان التسعة ومُهرت بخاتم الملك، حتى نُبِذ أحد مواطني

وادي "سيبتيما" وقد قيل أنه جد "الحظرد" حيث كان أحد المواطنين المهاجرين قبل ثورة الرومان، والذي قطن بعد ذلك "سيبتيما" أحد وديان المملكة، فكتب مخطوطة عن طريقة الوصول إلى تلك المملكة المحظورة ككل، وسيبتيما بوجه خاص، خارقا بذلك كل المعاهدات، ضاربا بها عرض الحائط، حتى وإن عاش ملعونا بقية حياته كما نصت تلكم المعاهدات، إلا أن دافع الانتقام بداخله كان أكثر من مجرد الشغف بالعيش الكريم، فما الضير من بعض اللعنات بعد نفي طويل وخروج لا عودة بعده ولا خلة فيه؟! وما لذة الكرامة والفرد منبوذ؟!

الغريب في الأمر أنه لسبب ما غير معلوم اندثرت تلك المخطوطة التي أرادوا حرقها، فاطمأن البعض لاندثارها والآخرون كانوا أقل راحة ودعة، فقد تيقنوا يوما من عودة تلك المخطوطة جارّة أذيال الاستعمار والفوضى، خاصة بهذا البند من المخطوطة الذي استحال إلى مجرد نبوءة مخزية، حيث ينص على تولي الحفيد الخامس والعشرين لـعبد الله الحظرد - ذاك الحفيد الذي لم يأت بعد - منصب أمير سيبتيما، حتى يظل ذلك الوادي آمنا محجوبا نطاقه!

البعض التاع لذلك والآخرون دعوا الله أن يموت هذا المنبوذ كمدا دون أن يتزوج أو ينسل من صلبه من يحقق تلك النبوءة الملعونة، فهم لا يعلمون كيف سيكون حفيد الحظرد هذا!

ومن بين هؤلاء وأولئك ها قد بدأت الحكاية!

***

- أتعجب من تلكم القاسية قلوبهم وأذهل كثيرا من مبدأهم وأفكارهم، فكما يزعمون؛ مجاراة الحياة بكافة الطرق المشروعة وغيرها حق، ومجابهتها بصلابة دون كلل جهاد، الحياة غير عادلة، فلتكن معها غير عادل، لا تنصت لها، ولا توليها الدبر، قوتك في جلدك وقدر بأسك ليس بقوة ضرباتك، فصدقني لن تتركك الحياة تكيل لها الضربات أبدا، الحياة ليست زوجتك، لن تدعوك لعشاء صُلح ليلا بعد أن وبختك في السَّحَر.. الحياة ستتركك لتتضور جوعا ولن تبالي!

ربما أنضم إلى الاتجاه سالف الذكر ذاك في مضمار واحد إلا أن باقي الحلبة موبوء، لم يفلح إنسان قد صم أذنه قط، أحيانا تتيح لك الحياة درسا مجانيا للتعلم دون دفع شيء أو تكبد خسارة، صدقني إن لم تهتم أو تستمع فلن يوجد خاسر سواك, سيكون الدرس القادم باهظ الثمن !

إذا كانت الحياة حقا غير عادلة، فالله عادل.. بل الله هو العدل!

أي مبدأ يجعل العبوس في وجه أخيك هيبة؟!

أي إنصاف يقضي بأن الفتاة المدخنة منحلة أما نيكوتين الفتيان لَيحمل عبق الذكورة؟!

المرأة التي حظيت بماضٍ؛ لعوب، ورجل العلاقات برمجي وأفضل من ذلك الطربش النظيف الذي ليس له ماضٍ في كسر قلوب العذارى، فكيف يراعي الله في الفتيات لمجرد أنه يمتلك أختا أو اثنتين؟! غريب هذا النقي حقا!

أي صلابة أقرّت بأن الرجل لا يبكي؟ فحُنُوِه ضعف، وخوفه عجز؟

أي احترام يفضي ببر الكبار سليطي الألسنة والأكف، دونما بر الصغار وتخليصهم من تحكمات أولئك الهِرَم وعقدهم؟!

أي حماقة تدعو بأن نلتاع لفراق أحدهم وقد هانت عليهم أنفسنا من قبل، لم نحاسبهم على الهجران، أيحاسبونا على السلوان؟!

أي استكانة تقبل بأن يتقاعس الفرد عن حقه ثم يزدرد لعابه ويمصمص شفتيه قائلا في تواكل "حقي عند ربنا"، أنت عند الله ضعيف، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، تواكلت وتغاضيت فلا تأخذك الغضاضة إن آل حلمك إلى محارب ضنّ بما جُدت به أنت من خنوع!

أي عمل يتطلب قهر المرؤوسين في سبيل حسن سيره؟!

أية ضرورة تحتم عليك أن ترمقني من خلف نظارتك الثمينة باستنكار ثم تعيد رفع زجاج سيارتك الملون لمجرد أنني...

توقف عن الحديث قليلا ليزدرد لعابه حيث أكمل الجالسون في حضرته في ذات الوقت عاقدين أذرعهم صوب صدورهم قائلين في بشاشة وكأنما ينشدون :

- لمجرد أنني .. معاق، متأخر، مجذوب أو أقل مالا، أقل حسبا ونسبا، أقل علما، أقل ثقافة، أقل خَلْقا، أو حتى أقل خُلُقا!

ابتسم الأستاذ عارف -الجالس أمامهم- بغبطة ثم استأنف بعد أن سعل لتوه مرة أو اثنتين بعنف :

- فمن قتل تسعة وتسعين نفسا دخل الجنة.. ودخلت امرأة النار في هرة!

الحمد لله أن مفتاح نجاتنا ليس بيد بشر، لَتَعاظمت الأهواء وكانت الجنة والنار بالوساطة!

أقول لك حقا:

كيف تنهر سائلا، لعب القدر بيد الله أن يبدلكما مكانا ومكانة؟!

كيف تزجر طفلا أتاك مهرولا ليختبئ بين أحضانك حين رأى فيك ببراءته الملاذ الآمن؟!

قل لي كيف ستجد السبيل إلى احترام ذاتك وأنت ذاك الأب المتغطرس الذي

طالما تشدق معددا مخاطر التدخين ومحذرا صلبه من الوقوع كفريسة بين براثن دخانه، ومن بين شدقيه يتطاير الرذاذ المحمل بالقطران وتفوح من بين ثناياه رائحة النيكوتين العطنة التي تضمخت بها ثيابه بالفعل؟!

كيف تكسر قلبا وثق بكلمة لاكها لسانك لمجرد أنه أصبح سهل المنال؟! أو أصبح متاحا!

أعطني سببا لكِبْرِكْ؟ كيف تغتر وأنت تحمل في جوفك فضلات تسد بالوعة؟!

كان الجميع يقعدون قدّام الأستاذ عارف وهم فاغري الأفواه من طلاوة حديثه الخصب , لا ينفك أحدهم عن تمرير تلك الكلمات على ألبابهم طربا إلا أنه لم يلحظ ذلك, فقد اعتاد تلك النظرات المنبهرة مؤخرا حين يجمع أبناء حارته ليزودهم ببعض من نصائحه المسبغة قبل أن يعود ابنه, على كل حال فقد أكمل مضيفًا:

- صاحب الرسالة السماوية الذي حمل رسالة الله إلى الأرض كان يوطئ ظهره الشريف للحسن والحسين ويمشي على أربع مازحا: (نعم الجمل جملكما)!

وهو نفسه عليه أفضل الصلاة والسلام الذي قال "لن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" فمن أنت لتتكبر؟

من أنت لتتفاخر بالتـزامك وتطبيقك؟ ماذا فعلت ليفوق إيمانك من قال سيد الخلق في حقهم "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم"؟!

ورغم ذلك كان عمر يخشى مكر الله وإن كانت إحدى قدميه في الجنة!

عمر الذي عاد حذيفة بن اليمان كاتم سر النبي، محتضرا حين داهمه السام ليسأله بالله هل هو من المنافقين الذين أخبره النبي بأسمائهم قبلا؟!

أي دين يحلل قتل النفس لاختلاف عقائدي أو لأيما اختلاف؟!

ممن استقى هؤلاء جهلهم؟

نوح عليه السلام كان ابنه كافرا ولم يقتله!

الخليل عليه السلام كان أبوه آزر كافرا ولم يقتله!

كفرت زوجة لوط وخانته فلم يقتلها!

خاتم الأنبياء والرسل هل قتل عمه الكافر؟!

هذا هو حال من كفروا، فمن أقنعكم بقتل إخوتـكم المسلمين؟!

هل ماتت فكرة بقتل صاحبها!

هل بعث الرسول برسالة القتل؟

من قال اذهبوا فأنتم الطلقاء إذن؟!

أي فردوس ستطأه ممهدا بجثث المسلمين؟!

كيف تفكر؟

كيف يسير عقلك؟

صمت الأستاذ عارف ناظرا إلى أولئك الغلمان مستبشرا, فلم يرد أحدهم!

حثهم بغمزة تشجيعية إلا أن أحدهم لم ينطق .

قَطّرَهم بتلك الكلمة قائلا :

- أي حمية ..

وما أن قالها حتى أكملوا في ذات اللحظة متذكرين :

- أي حمية يتبعها عقلك ليفقد هذا الكم من الوعي؟!

انتشى رغم ألمه البادي على محياه, ناظرا إلى العنان بثغر باسم وجبين مباهٍ,فما أسعد لحظة من علم رأيته يترسخ بمعول فِكرك في جُدُرِ غيرك!

****

عاد أمجد كعادته يترنح من أثر آخر أنفاس الحشيش، شاعرا بالتخمة أيضا جراء كميات الكبدة والكفتة التي استقبلتها معدته المسكينة كمَزّة لتلكم الأنفاس التي تطايرت بخيلاء سالبة معها بريق شبابه ورونق الصحة ومسحة الوسامة البادية!

يشعر أنه منهك القوى، لا يقوى على رفع إحدى يديه لسد فيه حين تثاءب حتى استقبله كرسي مريح منهيا نضال قدميه المنهكتين من حمل جسده.

تأفف بضيق حين انتهت إلى مسامعه تأوهات قادمة من الغرفة المجاورة، ما هذا الملل!

أرهف السمع مرة ثانية، نعم، كما اتضح له، إنها تأوهات والده مجددا، يصدح بآهاته التي تصل إلى مسامع حتى الحشرات بجنبات المسكن وجحوره، يملأ صوت آلامه البيت صخبا، وكأنه أول من ينتخبه سرطان الدم عائلا بجانب حمله لفيروس الالتهاب الكبدي الوبائي، لاسيما انخفاض الضغط، وقليل من ارتفاع نسبة السكر بالدم!

إنه حقا لرجل مضياف!

دوما تخرجه تلك الآهات من انتشائه بتبعات الحشيش الذي يقول فيه دوما، أن لولاه لما وجد مبدعا، ولم تتخط أعمار الشعب الأربعين جراء تثاقل الهموم!

ناداه والده بعد جولة من السعال فرد عند المرة الرابعة تقريبا بتبرُّم جلي قائلا بفظاظة:

- ماذا تريد؟

أضاف والده بضعف متسائلا:

- هل جئت يا أمجد؟

تضجّر أمجد ثانية:

- لا، لم آت بعد، انتظرني قليلا حتى آتي، أبي أنا أتحدث إليك، قد جئت إذن، فلا داعي لتلك الأسئلة الوجودية!

قالها صاخبا وهو يفتح باب غرفته متجها إلى غرفة والده حيث دفع الباب مقتحما ثم أوصده خلفه بشدة، فاستطرد بجفاء:

- لِمَ تناديني يا أبي؟! ماذا تريد؟

رد بوهن وقد ارتسمت على وجهه أمارات الألم:

- عذرا يا أمجد، أعرف أنني قد أثقل عليك يا ولدي، أريد كوبا من الماء، فأنا ظَمِئ منذ فترة، ولم أعد أقوى على الانتصاب من فراشي، اعذرني يا صغيري، لقد بلغ مني المرض شر مبلغ!

تأفف ثم أجاب برعونة:

- إذن تنتظرني كالعادة لكي تلقي بالأوامر والتعليمات هنا وهناك، لم يعد لي مغزى في حياتي غير كوب من الماء أو إحضار طبيب وجلب كميات مهولة من الدواء تكفي لإثرائي وتلبية كافة احتياجاتي لو تم توفيرها؟! ناهيك عن أنك لا تشعر بالألم في وجود صغار الحارة و أنت تنهال عليهم بنصائحك اللوذعية , الألم مقرون برؤيتي على الأرجح, الرحمة يا أبي.. ارحمني قليلا، غيري من الشباب لا يعرف سن أبويه ولا يهتم لذلك كثيرا، هل اشتريتني من سوق النخاسة، هل لمثل ذلك قد حبلت أمي؟!

قالها فسكن قليلا ثم استطرد متنهدا:

- عموما، حاضر يا أبي، سآتي لك بكوب الماء، هل لك من حاجة أخرى؟!

قالها بضيق فابتسم الأب ابتسامة ثقيلة واهنة وازدرد لعابه محاولا استجماع

شتات كرامته وتخفيف وطأة تلك الكلمات على قلبه إلا أنه فشل مجددا حيث اغرورقت عيناه دمعًا فسارع بمسحها ثم قال بائسا:

- ما أراني الله بك مكروها قط يا ولدي، ولا أشعرك أبدا بما أعايشه الآن، أنا آسف يا أمجد لقلة أَنَاتِك في خدمتي، لكني والله لا أقوى على القيام ولا تحملني قدماي على المسير، لقد التهمني المرض حتى آخري، اطمئن يا ولدي، سينتهي مني قريبا وسترتاح أيُّهَا راحة!

قاطعه أمجد ناهرا:

- ولِمَ لا تأخذ دواءك فحسب، لماذا لا تتعاطى حقنة المخدر خاصتك؟

تحدث ملتاعا بألم:

- يا أمجد، المخدر ما هو إلا قاتل رحيم، راحة اليوم وموت في الغد، مثلما يسكّن فإن له أعراض جانبية قاتلة على مراكز الحس والإدراك والكلى وجدار المعدة! لم يعد لي الكثير في الدنيا يا أمجد ولا أود أن أخرج منها وفي دمي قطرة من مخدر محرّم، أتحمل الألم لكني أنوء بحمل ذلك.

أجاب دون تفكير بفجاجة الدنيا وبمنتهى الدناءة:

- أوَتتحمله وحدك؟! أم أشاطرك إياه؟ هل هذا عدل في ناظرك! ثم هل من العقل أن تخشى شيئا على الكلى وأنت تحمل السرطان؟! أي معدة تتحدث عنها؟ لقد داهمك المرض الذي يخشاه الجميع بل ويستعصي عليهم حتى ذكر اسمه يا أبي، فممَ تخاف؟!

لم يتمالك الأب نفسه هذه المرة فأطلق العنان لدموعه تنهمر من فظاظة ما ألقاه صُلبه على مسامعه ومعها يحاول التذكر، هل آذى والده من قبل فيخلص الله ذنبه هذا في الدنيا قبل الآخرة؟! أم أنه مجرد ابتلاء، فليصبر ويحتسب؟!

***

- ما هذا الورق الذي تتأبطه طيلة الوقت؟، أراك تحمله على مدار الأربع وعشرين ساعة!!

قالها فاستغرب خالد بشدة فاغرا فيه للحظات مرت عليه مختلجة المشاعر ما بين الدهشة والإثارة، إلا أنه سرعان ما استفاق فقال مبتسما تلك الابتسامة الصفراء:

- مخطوطة سيبتيما!

تساءل ببلاهة:

- ماذا؟!

- مخطوطة سيبتيما يا أمجد!

رد أمجد متثاقلا ليستفسر:

- لا أفهم ما ترمي إليه أو يعنيه كلامك، ما مخطوطة سيبتيما تلك؟!

أشار خالد إلى تلك الأوراق المجمعة بيده ثم أجاب بحماس:

- تلك المخطوطة هي لبلوغ وادي سيبتيما!

سأل أمجد متهكما:

- وهل وادي سيبتيما هذا يبعد كثيرا عن وادي دجلة؟!

أشاح خالد بتلك المخطوطة أمام وجه صديقه أمجد والتي هي عبارة عن مجموعة من الأوراق الصفراء عتيقة المنظر والمزدانة ببعض الخرائط والكلمات غير المفهومة يظهر أنها قد نُكِتت بخط اليد فيما يبدو ثم قال مهتاجا:

- أمجد، أنا لا أمزح، وسأزيدك من الأمر غرابة، عليك أن تأخذ هذه المخطوطة.. صدقني!

قالها خالد ثم ألقى بالمخطوطة لتستقر على الكرسي المتاخم لنظيره الذي يضطجع إليه أمجد في حين رد الأخير مستنكرا:

- ماذا آخذ يا خالد، أعلم أنك تهزي، ولاسيما قليل من المزح، إلا أن بالي الآن غير رائق لمثل هذا النوع من الهزل والترهات!

قطع الحديث دخول وائل صديقهما، وقد جر ذات الكرسي الذي تقبع عليه المخطوطة حين ألقاها خالد، ثم جلس إليه وقال ملاطفا:

- صباحكم لذيذ.

رد أمجد بسخرية:

- صباحك عمىً يا وائل، قم عن ذاك الكرسي يا أعمى، ألا ترى ما قد جلست عليه؟!

رد وائل وهو ينهض ثم نظر أسفله موضع اتكاء دبره على الكرسي قائلا باستنكار:

- على ماذا قد جلست يا أمجد؟! أتسخر مني؟!

نظر أمجد بفزع إلى خالد الذي ارتسمت تلك الابتسامة الفاقعة ذاتها على وجهه، ثم غمز له حين وجدا المخطوطة مستقرة بمكانها غير أن وائل لا يراها، فقطع وائل تلك اللحظة قائلا بغير فهم كامل لحقيقة تلك النظرات الغريبة:

- سأحضر فطورا، أيريد أحدكما مشاطرتي؟! هل ستفطران معي؟!

لم يرد أحدهما عليه فما زالت حالة البهتان تلك تظللهما في حين استطرد وائل:

- إذن سأذهب إلى المقصف، إن مختار وجمال ينتظراني هناك!

امتقع وجه أمجد وتجهم ثم نظر بشرر إلى وائل دون أن يلمحه خالد الذي سأل:

- من مختار وجمال؟

أجاب أمجد بغير اكتراث أو هكذا قد تظاهر بعد أن تنحنح:

- هذان صديقانا أنا ووائل غير أنك لا تعرفهما، لا عليك.. لا عليك!

قاطعه وائل مضيفا ببلاهة:

- لكنهما يعرفانك يا خالد، يعرفانك جيدا.

رجمه أمجد بتلك النظرة النارية فتساءل خالد بدهشة:

- يعرفاني جيدا من حيث لا أعرفهما؟! من هما إذن!

حاول أمجد زهق أطراف الحديث حولهما فتحدث إلى وائل زاجرا:

- اذهب يا وائل، اذهب أنت الآن لا يريد أحدنا فطورا، اذهب، وأدعو الله أن تختنق بفطورك ذلك فتموت ميتة مؤلمة بطيئة!

تحرك وائل خطوتين ثم توقف فسأل مرة ثانية:

- أنتما متأكدان إذن، لا يريد أحدكما فطورا، أليس كذلك؟!

رمقاه بتلك النظرة الصاعقة، فاتخذ سبيله إلى المقصف مهرولا، في حين حوّل أمجد ناظريه مراعيا باستنكار إلى تلك المخطوطة وقد أحس بشَدَه، ثم لحظات من الصمت قد رانت عليهما، قبل أن يقطع ذلك السكون خالد قائلا بابتسامته الخبيثة ذاتها:

- ها.. هل علمت الآن وتفهمت، لِمَ يجب أن تأخذها؟!

ابتلع أمجد ريقه وبصوت مبحوح وهو لم يزل عاقدا حاجبيه، بلا فهم كامل لما يجري قال متسائلا:

- لِمَ؟

- لأن المخطوطة قد اختارتك يا صديقي، هي لا يختارها أحد!

توجه أمجد بسؤاله مستفسرا ببعض الذهول:

- كيف اختارتني؟! أنا حقا لا أفهم ما تقول!

ملأ خالد جعبته بالهواء ثم زفره في راحة مستعدا لتوضيح بعض الأمور وسبر أغوارها فقال:

- هذه المخطوطة يا أمجد هي تختار من يقرأها، هي فقط التي تختار، لذلك اندهشت حين وجدتك قد رأيتها، المخطوطة مخفاة عن أعين العامة ولا تظهر إلا لمن تنتخبه لقراءتها، وليكن بعلمك يا صاحبي، فمن يراها لابد أن يقرأها سواء أراد ذلك أم لم يرد! قلت لك، هي من تختار وتتحكم بالأمور!

قالها فابتسم مطولا حتى قاطعه أمجد رادّا بسخرية:

- اتركني يا خالد، دعك مني، أنا لن أقرأ مثل تلك الخزعبلات، وبالمناسبة إذن وبدافع الفضول ليس إلا، من أين لك بها، أوجدتها بكوخ قديم لبيع الكتب ثم اكتشفت أنه لا وجود لهذا الكوخ، أم بمكتبة عتيقة في آخر رواق ذاك القسم المحظور والذي لا يراه غيرك؟!

ابتسم خالد مرة أخرى ثم رد بثبات:

- لن أناهضك، فلك أن تمزح، واسخر مني كلما أردت ذلك، لكني أؤكد لك، ستقرأها يا صديقي.. حتما ستقرأها!

زفر هواءه بقلق ثم هدأ من روعه متناسيا حيث هدر قائلا:

- اترك هذا الأمر يا خالد فأنا لن أفعل شيئا مرغما دونما إرادتي الحرة مهما تطلب الأمر، دعنا من ذلك وقل لي، متى ستسافر إلى أمريكا أيها المحظوظ المتأنق؟!

ابتسم بخبث وقد التمعت عيناه حتى أن أمجد قد لاحظ بريقيهما مستغربا!

- بعد ثلاثة أسابيع يا أمجد.

***

- سيدي القائد، قمرة القيادة تبلغنا بأبعاد غريبة وإحداثيات ليست موجودة البتة على أجهزة راداراتنا!

رد مشدوها حين قال باهتمام:

- ماذا؟!

- ليس هذا هو الجزء الأغرب في الأمر، سيدي!

سأل بقلق:

- ماذا بجعبتك إذن؟

- تلك الإحداثيات ليست على كوكبنا من الأساس؟!

لم يرد القبطان بغير تلك النظرة الجامدة في حين استأنف الضابط قائلا:

- سيدي القبطان صدقني أنا لا أهذي، تلك هي الإحداثيات، لم أر لمثل ذلك نَسخ من قبل.

قالها وهو يريه بعض الإشارات والأرقام على تلك الشاشة فازداد فوه انفراجا، ثم تساءل ببلاهة:

- كيف يتأتى ذلك؟!

- لا أعلم سيدي لكن، آخر إحداثيات أرضية، كانت إحداثيات مثلث الشيطان!

رد القبطان متسائلا باستنكار:

- برمودا؟!

قالها فظهر خلفه مبتسما بخبث ذاك الشخص الغامض والذي قد وُضِعَ معه على متن تلك السفينة قهرا دون أوراق أو إثبات، من جانب السلطات الأمريكية، وبأمر سيادي لا يقبل المراجعة أو الجدال، إلا أن تلك الابتسامة الخبيثة قد تبددت حين نظرا إليه بفزع مما يحضرهما الآن!

***

وضع الهاتف نصب أذنه فتنحنح منتظرا ثم سرعان ما استهل كلامه مُرحبا:

- مي، حبيبتي، كيف أنتِ؟!

جاءه الرد مرضيا حين أجابت متلهفة:

- أمجد، لقد افتقدتك كثيرا يا حبيبي.

- أنا من افتقدك أكثر مما تتخيلين صدقيني!

تحدثت فجأة بنبرة اتهام:

- أصدقك؟! وكيف أصدقك؟ إن لم أسأل أنا وأهتم لا تفعل أنت أبدا؟

أجاب موتورا:

- مي، لا أريد حقا أن أخرجك من حالة العته أو أفسد عليكِ متطلبات هرموناتك تلك، إلا أنني وللأسف من طلبتك حالا وها أنا ذا أسأل عنكِ!

ردت بتردد حين تراجعت في القول لتسأل:

- أحقا؟!

- كنت أعلم أنكِ مجنونة منذ أن قابلتك يا حبيبتي، على العموم أنا حقا مشغول، والدي مريض جدا وأقوم على خدمته قهرا، لذلك لا أسأل في بعض الأحيان، إلا أنكِ في قلبي وعقلي دائما, حتى لو لم أجاهر بالسؤال صدقيني!

ردت مواسية:

- شفاه الله يا حبيبي، كيف تسير حياتك؟

- باستثناء والدي، فأنا بخير حال!

في تلك الأثناء بالذات تعالت وتعاظمت أصوات آلام وتأوهات والده طريح الفراش، حيث تناهى أنينه إلى مسامع أمجد، قاطعا تلك الحالة من العشق السرمدي الدميم، فتأفف الأخير بدوره ثم تمتم بكلمات ساخطة مبهمة وضغط زر

كتم صوت المكالمة حتى هدأت حدة الآهات فأعاد الصوت مرة أخرى ثم قال وقد استرجع جل إحساسه متملقا:

- تعلمين أنني أحبك كثيرا.

ردت رفيقته بحنو أنثوي:

- أنا أيضا أعشقك.

وهاهنا اهتـز الهاتف على أذنه ليعلن عن متصل جديد، فأنزله ليراعيه، وإذا به يهتم بمجرد أن شَافَ اسم من يطلبه، ومن الواضح أنه كان ينتظر تلك المكالمة وتجلى ذلك حين تنحنح قائلا:

- اعذريني حبيبتي، علي أن أذهب الآن، والدي يتألم ويريدني حالا!

مصمصت شفتيها ثم قالت بإشفاق:

- يا الله، شفاه الله يا أمجد، هاتفني حين تنتهي، أريد أن أطمئن، لقد افتقدتك حقا، وأريد أن أحادثك كثيرا!

أنهى أمجد تلك المكالمة ثم أجاب الأخرى مبتسما:

- حبيبتي التي افتقدتها كثيرا!

ردت الأخرى ناكرة:

- يا لك من كاذب حذق، مع من كنت تتحدث يا خائن؟!

- ذاك صديقي وائل، تعرفينه أنتِ، والله لقد افتقدتك وافتقدت غيرتك تلك!

- كالعادة تعرف كيف تسكتني، لقد افتقدتك يا حبيبي!

***

- تجشم يا عارف، تحمّل من أجلي، أنت أقوى من ذلك، أنا أعرفك يا رجل!

قالها جلال حين تلألأت العبرات في مقلتيه فخلفت بريقا مذموما حتى رد عليه عارف وهو يسعل بقوة ليتطاير الرذاذ من فيه:

- لقد تعبت يا جلال، أنا أنهار حقا.. لم أعد أقوى، إني أتمنى الموت كل يوم حتى يرحمني الله من الألم!

مسح جلال عينيه بيمناه إلا أن دموعا جديدة قد نبتت حالّة موضع ما قد جُمعت من عبرات في تلكما العينين الخصبتين، فقال ضجرا:

- لعن الله السرطان وأراح كل جسد أنهكه الخبيث ذلك، بالله عليك تجسّر يا صديقي!

- جلال، أنا لم يتبق لي الكثير، لقد شارفت على القضاء، تلك حقيقة أعلمها جيدا ولا أخشاها!

قاطعه مستنكرا، فداهمه ليقول:

- لا تقل ذلك يا عارف، أنت أقوى من هذا كما عهدتك، نغمة الاستسلام هذه لا تليق بك!

نظر عارف إليه بحسرة ثم قال:

- أنا أكثر من يريد العيش يا جلال، لطالما كنت أحمقا، كثيرا ما زعمت متصابيا أنني لا أهاب الموت وأن خيرا لي أن أموت يافعا على أن أحيا عليلا بداء عضال، أما الآن فلا، إن قُدّر لي أن أختار العيش ولو بساق واحدة, وعين ثَلْبة وعقل مأفون سأحارب من أجل النجاة!

نعم قد كنت أخرقا!

أنا حقا أخشى الموت، أخشى أن أموت وحيدا، أخشى أن أموت وحيدا, أخشى

أن أموت متألما، أن أموت ولم أعدّ لرحلتي مؤنا تؤمن لي سبيل البلوغ، إن كنت قديما لا أخشى الموت، فالآن أنا أتلوى وجلا ورهبة من رب الموت!

قالها فصمتا طويلا حتى تنهد جلال ثم قال مناديا:

- عارف!

رد متألما:

- نعم يا جلال!

تكلم بحماس:

- أتدري أن نسبة نجاح الأسود في اصطياد فريستها هي خمسة وعشرون بالمئة، أي الربع وهذا يعني أن ثلاثة أرباع محاولات صيد الأسود والضواري عموما فاشلة بمفهومنا، ورغم ذلك، هل وجدت أسدا قد تكاسل يوما عن المطاردة أو قال لن أكمل؟! السبب في ذلك يا صديقي ليس الجوع، السبب هو قانون "البذل المتروك"، وهو القانون الذي تعمل به الطبيعة برمتها كما سمعت مؤخرا!

فنصف بيض الأسماك يتم التهامه، ونصف مواليد الدببة تموت قبل بلوغها، أما معظم أمطار العالم فتهطل في المحيطات بلا فائدة، وبذور الأشجار أيضا چلها تأكلها العصافير!

وحدهم البشر من يعتقدون أن التعثر فشل والألم نهاية!

في حين أن السقوط والألم هما مجرد تمهيد لبداية ناجحة!

بل إن معظم الناجحين قد بدأوا من حيث تألموا وظن الناس أنهم قد انتهوا!

لا يوجد إنسان ناجح وإنسان فاشل، بل هناك رجل أكمل وآخر ملّ الطريق!

مجالد حارب وجبان انزوى!

الفشل الحقيقي هو التوقف عن الصمود, والنجاح هو أن تطأ أخطاءك فتتخطى كل مرحلة انحطّت فيها جهودك هدرا!

لو أن الحياة توصم بكلمتين لكانتا "أكمل.. استمر!".

انتهى من حديثه بذات الحماس الذي قد بدأ به، ثم ازدرد لعابه وأخذ شهيقا فتحسس يد صديقه بحنو وقال بلهفة مستطردا:

- لذلك يا صاحبي لابد أن تتوقف عن كونك قد تعبت، ولا تلق بذلك على مسامعي مرة أخرى، أنت تعلم أنني لا أستطيع العيش من دونك ولو لساعة واحدة، لا صاحب لي ولا ونيس أو جليس غيرك، لن أتخيل تلك الحياة البائسة من دونك، خير لي الموت على تلك الدنيا التي تخلو منك يا أخي!

رد عارف بتأثر وقد أدمعتا عيناه:

- أطال الله عمرك يا جلال، ولكنها الحقيقة يا صديقي، أحسها قريبة!

لحظات من الصمت قد رانت على نفسه حتى بددها جلال متسائلا بشك:

- لكن ليس ذلك فقط ما يشغل بالك يا عارف، ماذا بجعبتك يا حبيبي؟! أعرفك جيدا كما لا تعرف أنت نفسك! أفصح عما بداخلك!

تنهد بحرقة ثم أفضى ملتاعا:

- أمجد يا جلال، لقد تمادى معي كثيرا، لم أر قسوة كقسوته تلك، أشعر أحيانا أنني ربما اقترفت جرما فيخلصه الله مني قبل أن أقضي نحبي!

- هون عليك يا حبيبي، الشباب جميعهم أصبحوا كذلك، هي غمرة الشباب يا صديقي، سلم أمرك لله يكن حسبك.

رد عارف بهدوء متناسيا همه حين سأل صاحبه بتهكم:

- كلامك أراحني يا جلال، تعرف دائما كيف تدفعني حين أسقط، إلا أنني وللأمانة لم أسمع بقانون البذل المتروك هذا بتاتا!

ابتسم جلال بسخرية فنزل إلى جوار رأس صديقه ثم همس ممازحا:

- في الحقيقة لقد ابتكرت هذا الاسم توا وأنا أحادثك، وجدته اسما رنانا لقانون مجهول، وللحقيقة فإن الأسود بطبيعتها ملولة، ونعم يمكنها أن تيأس وتقوم إناثها بالصيد بدلا عنها!!

قال ذلك، ثم أدار دفة الحديث تماما في اتجاه معاكس وسط ابتسامة عارف حين قال:

- أواه، لقد انتبهت إلى أمر آخر، أتتذكر تلك البنت الجميلة بالفصل المشترك في الثانوية العامة، حين كان الجميع يتكالب على الحديث معها في حين أنها كانت تلاطفك لتطرق أنت رأسك خجلا كخيبتها؟!

قهقه الأستاذ عارف وهو يسعل وعلى قسمات وجهه قرائن الألم ثم قال بوهن:

- نعم أتذكرها يا جلال؟ ما بها؟!

- لقد قابلتها بالأمس تسير مع ابنتها وقد سألتني عنك وحملتني إليك بالسلام!

ابتسم عارف مرة أخرى ثم سكت متنهدا فبدوره تنهد جلال مضيفا:

- سأقوم أنا لأداء صلاة الظهر بالمسجد يا صاحبي! أبك حاجة مني يا عارف؟!

- لم أنته منك يا جلال، فلتجالسني قليلا، والله لم أشبع من وجهك السمح!

قالها عارف فلجأ إلى السكون قليلا ثم أردف متداركا:

- لا.. لا، فلتذهب أنت إلى صلاتك يا صاحبي، لكن اعرج علي بعد أن تفرغ، أستحلفك بالله أن تعود!

- حاضر يا عارف، سأفعل إن شاء الله.

تنهّد عارف بارتياح ثم قال:

- ادعُ لي يا جلال، ادع لي الله أن يريحني، وتعالَ بعد الصلاة.

قالها عارف بضعف شديد فنظر إليه جلال بأسى وقد رطبت جفونه أسفا حين

نظر إلى صديق عمره العفي وما آل حاله إليه وهذا الهزال وجحوظ عينيه ثم قال بصوت مختنق:

- بإذن الله يا رفيق عمري، سآتيك أو ستأتيني، سنتقابل حتما يا صاحبي، لا تقلق!

***

- الـلَّـه أكـــــبر.

صدح بها الشيخ "عقل" إمام مسجد "خالد بن الوليد" فرفع المصلون جميعا أكفّهم ثم عقدوها على صدورهم في تناغم كموجة ارتقت فحطت وحدة واحدة برغم تناثر حبيبات المياه المكونة لها، حيث رددوا جميعا في خشوع وسكينة:

- الـــلَّـــه أكـــــــبـــر.

طفق جلال يقرأ ما تيسر له من القرآن حتى انحنى الإمام راكعا، فركع جلال ثم انتصب حامدا، ثم خر ساجدا، حينها شرع جلال يدعو متلهوجا, وكأنها آخر دعواته في الدنيا، ظل يردد رجاءه المكلوم وقد سالت عبرات مارقة ساخنة عن مقلتيه، حتى اضطربتا في محجريهما فتبخترت تلك العبرات مرورا بوجنتيه لتصل إلى موقع سجوده مبللة إياه:

- اللهم اجمعني به في جنتك، اللهم اجمعني به في جنتك.

ظل يرددها حتى قام الإمام واقفا مرة أخرى وهو ينادي:

- الـــــلَّـــــه أكـــــبـــــــر.

قلّده المأمومون جميعا إلا واحدا ظل مسجى على وجهه لا يتحرك.

المصلون يقفون فينحنون خلف الإمام إلا هو ثابتا في وضع السجود.

أنهى الإمام بالتسليم فانقضّ المصلون صوب هذا المسجى يطوفون حوله ويحيطونه، حتى قال أحدهم بلهفة في غير تؤدة:

- لا إله إلا الله، إنه الأستاذ جلال، أيوجد طبيب هنا؟

اخترق الصفوف المحتشدة على عجل رجل يبدو عليه الوقار فدعاهم للتفسح في موضع تسجيته طلبا للهواء وهو يقول:

- دعوني أمر من فضلكم، أنا طبيب.

تفحصه الطبيب ثم عقد يديه قائلا في حسرة:

- البقاء لله، لقد فاضت روحه وتوقف النبض.

فما بين تهليل وتكبير وحوقلة التقط الإمام مكبر الصوت ثم قال بأسى مدويا صوته في أنحاء الحارة المغبونة لتوها:

- لا إله إلا الله، يفنى العبد ويبقى الله، انتقل إلى رحمة الله تعالى المرحوم جلال كامل السيوطي، والدفنة عقب صلاة المغرب.

شرع الإمام يرددها مرارا, وفي كل مرة كان صوته يكتسب مزيدا من الألم والمرارة، وعلى الجانب الآخر كان هناك ذا الأستاذ عارف الذي سحّ دموعا حين سمع اسم صديق عمره وأخيه الذي ضنت بمثله عليه أمه، يُذاع وينعت بالمتوفى، هذا هو صديق العمر بحق!

كان معه منذ برهة، يواسيه كما لم يفعل غيره، كان معه الآن مثلما كان معه في جميع مراحل وتقلبات حياته، نكباتها قبل مآربها ومرّها قبل حلوها، بكى بحرقة لم يبكِ بها حين مات والداه، بكى رفيق دربه، وتوأم قلبه وعقله وروحه الذي كان يعزيه لحاله منذ قليل!

الآن فقط، لا مجال للعيش، ولا رونق للحياة، ولا طائل من الجلد والبأس لحياة هو لا يرومها!

***

هدوء وركود مخيف ببيت الأستاذ عارف الدرملي يخيم على المنزل من مدخله إلى أسقفه، فقد أسلم الأستاذ عارف الروح المطمئنة إلى بارئها توا بعد أن تغرغر وحيدا بمسكنه.

عصف الظمأ بلعابه فصار احتكاك حلقه كالرحى الفارغة يصطك صخراها فتحمى دون غاية، لم يقو على بلوغ الحوض ليتوضأ، فتيمم صعيدا طيبا.

لم تحمله قدماه على المسير أو حتى تتمة صلاته، فانكفأ على وجهه حين أراد الانتصاب من السجود!

لم يلقنه ابنه الغائب "أمجد" الشهادة وليت صديقه جلال أو زوجته كانا في عالم الأحياء ليمسحا دمعته الحارة الفارة على وجنته بجانب هذا الخط من الدماء والذي قد تسلل من جانب فمه ليستحيل لونه من الأحمر الطازج إلى البني الدميم.

وصل التيبس إلى عضلاته فأضحى متخشبا في وضع السجود قبل حتى أن يصل فلذة كبده إلى البيت رغم اتصاله مرارا قبل أن يأفل نجمه، اتصل به مستنجدا من شدة الألم، إلا أن أمجد تلكأ متعللا بأنه مثل كل مرة يُكسب الأمور أكثر مما نصابها!!

انتظره ربع الساعة ثم زاد عليها ربعا وتناثرت الأرباع فألقى الساعة أرضا حين سئم حثيث عقاربها!

فرت دموعه ثم انتــزع ورقة فقلما من أعلى الكومود المجاور وخطّ شيئا وهو يبتسم ليدحض ألمه, فخير كسر للألم هي البسمة , وبئس صارع للبلاء هو الحمد.

تذكر كلام صاحبه جلال إلا أن القلم قد سقط من يمناه، حيث لم يعد يطيق احتواءه فتدحرج أرضا، تألم فابتسم مكسبا جسده قوة السلوى حين تذكر آخر ما صدح به صاحبه:

- (سآتيك أو ستأتيني، سنتقابل حتما يا صاحبي، لا تقلق!).

تذكر ثم رددها وهو يبكي لا يعلم فيما يبكي، أخوفا مما هو مقبل عليه، أم حَزَنا على ما سيترك خلفه حيث ابنه الضال، أم يبكي فرحا بوصل الأحبة، فاليوم سيجتمع مع صاحبه وزوجته في البرزخ، تذكر مرة أخرى كلام صاحبه فاتسعت ابتسامته وكأنه كان يعلم!

- سآتيك أو ستأتيني، سنتقابل حتما يا صاحبي، لا تقلق!

استقبل القبلة فرفع كفيه ومازالت دموعه تنهمر كشلال لا ينضب ولن تحسبه سينضب!

طفق يؤدي حركات الصلاة بمشقة قاتلة حتى بلغ موضع السجود فلزمه، ثم أدمى فمه وخرجت الروح المرضية إلى رب البرية وهو يدعو بالهداية لابنه أمجد ثم ابتسم متذكرا صديقه جلال فطفق يردد:

- اللهم اجمعني به في جنتك، اللهم اجمعني به في جنتك.

***

أدار أمجد المقبض ففتح الباب بلُب مسلوب وقريحة خاملة، يمنِّي نفسه بليلة هانئة خالية من التأوهات آملا أن يكون والده قد ملّ الأنين وسئم الصراخ ثم وجد سبيله إلى النوم خلدا!

حتى وقت قريب قد كان البيت يذكره بالمشفى الحكومي، صوت الألم ينبح بكل زقاقه وجنباته، رائحة الخدر والدماء الخثرة تزكم أنفه، لاسيما حين يقترب من تلك الغرفة الكئيبة، غرفة والده!

بالفعل لم يجد لآلام والده صوتا هذه المرة!

البيت هادئ كما تمنى، إلا أنه كئيب بعض الشيء، لا يهم، المهم أنه لن يتعكر صفوه حين يهاتف حبيبات قلبه.

لا! البيت هادئ أكثر من اللازم! هدوء قميء، البيت مقيت حد الدمامة!

على كل هو الآن يتصل بصاحبته...

هو لا يتذكر من منهن التي سيحادثها... لا تجيب! لا يهم سيتصل بـ سلمى، سلمى هي الأخرى لا تجيب؟! ما سوء الحظ هذا؟!

ربما تجيب كوثر؟ هي أيضا؟!

البيت ساكن أكثر مما ينبغي؟! هل أخذ والده المخدر؟ ولكن من أعطاه إياه؟ ربما صديقه جلال؟!

إذن فهي ندا؟ هي من سترد لتحيل فراغه إلى ملوًا و بهجة، إنها سليطة اللسان، إلا أنها فرفوشة، هي چل ما يحتاجه الآن.

البيت كئيب مرة أخري، ماذا حدث؟ لماذا يشعر بذلك؟!

لا ترد؟! إنها مؤامرة كونية! ماذا يحدث؟ هل اتفقن سويا على ذلك؟!

فلتذهبن إلى الجحيم جميعا، ملفوفة واحدة من الحشيش وتتبدل ليلته إلى هناء ورغد، وقتها لن يعكر صفوه الموت ذاته!

ماذا؟! إن والده قد طلبه منذ مدة ليست بالقصيرة ليخبره بسوء حالته وأنه يريده الآن!

وما الجديد في الأمر؟!

هو دوما يفعل ذلك! لا جديد! لكن لن يخسر شيئا إن راعاه بغرفته، لن يأخذ الأمر فوق الدقيقتين، فليذهب إذن وليجد سببا لهذا الهدوء المدوي!

منذ متى وهو يريد الاطمئنان على والده؟ لا يهم، فقط الآن، لديه فضول لا أكثر!

دخل أمجد على والده ليجده مسجى على وجهه في وضع السجود وبجانبه ورقة ملقاة على الأرض، هرول إليه ناخًا، مستقبلا الأرض بركبتيه حاطّا يمناه على رأس والده حيث أمسك تلك الورقة بيسراه.

فضّها وقرأ ما بها وهو ينتحب كما لم يعهد أن يفعل قبلا، فقد خُطّ بها بحروف مهتزة:

- صلّ علي صلاة الجنازة عقب صلاة المغرب صحبة جنازة جلال، وادفنّي معه، تلك وصيتي يا..

قرأ تلك الوصية المبتورة، ثم ألقاها جزعا فرفع رأس والده واحتضنه صارخا.

ناح أمجد كما لم يفعل من قبل، ربما الدمعة التي جفت على خد والده أكسبته شؤمًا هو يعرف سببه!

ربما قضاؤه النحب وحيدا حرك مشاعره المتبلدة؟!

لاسيما ذلك الخط المقيت من الدماء قد ربط قلبه لا إراديا بتلك الخيوط من الدموع التي انهمرت؟

ربما أخيرا قد تذكر استغاثته بالهاتف وآلامه وآهاته المكتومة والتي قابلها هو بالتبختر والتلكؤ في الحضور رغم اتصاله مستجديا وسط عواءه المكلوم ليعود سريعا, علّ ذلك هو سبب تلك الدموع الساخنة الصادقة من تلكما المقلتين الوقحتين!

هو لا يعرف! فقط يبكي ويحتضن جسد والده المتيبس!

***

أنهى الشيخ "عقل" صلاة المغرب ثم قام متأثرا، فقدّم المأمومون المَيْتَين حتى وقف هو على رأسيهما وقال مصارعا عبراته:

- صلاة الجنازة أثابكم الله، صلاة الجنازة أربع تكبيرات على من حضر من أموات المسلمين، التكبيرة الأولى نقرأ فاتحة الكتاب، والتكبيرة الثانية نقرأ نصف التشهد الأخير، التكبيرة الثالثة ندعو بما تيسر للمتوفى، والتكبيرة الرابعة ندعو لنا وللمتوفى وما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنّا بعده واغفر لنا وله يا رب العالمين.

أنهي كلامه فرفع ذراعيه ماسّا بكفيه طرف أذنيه ثم صدح خاشعا:

- الـــلَّـــــه أكـــبـــر.

قالها والناس خلفه يرددون في خشوع وتؤدة، لاسيما ذلك البكاء المكتوم الذي لا يخفى على المعرضين من صف هنا وركن هناك قد قدّم نهاية ملحمية لصديقين تحابا في الله، اتفقا عليه وافترقا عليه.

***

- الصداقة!

قالها الشيخ "عقل"وهو ينتصب على المنبر زائغة عيناه مقهورا, بعد أن شيّع الصديقان .

عاد ليقف على المنبر خاطبا إذ يستند بيديه إلى متكأ قد برز من منبره, شاردا حيث استأنف :

- الصداقة.. هي الصخرة التي تتحطم عليها مكائد الأعداء وكدر الأحبة!

الصداقة لفظًا من الصدق ومرادا من الصَّدقة، إن أعظم صدقة في الحياة لهي رفيق مخلص وأطيب رزق هو صديق متفهم!

من قال أن الحب أعظم من الصداقة؟

فأنتَ.. من يغسّلك رجل، من يكفنك رجل، من يشيعك أيضا كذلك، وأنتِ أيتها الأنثى لن أستطيع حصر مهام صديقتك، فبم أبدأ وبأيها أنتهي!

صديقك بحق يدفعك في حين يتعثر هو، يذب عنك إذ تضعف، يمسي خط دفاعك الأول، وجيشك الأوحد، يسمعك ويخفف عنك أوقاتك العصيبة، في الوقت الذي يكون هو ذاته في أمس الحاجة إلى من يخفف عنه ولا يبالي!

صديقك حقا هو امتداد لوالديك، ونسخة ثانية من أخيك، تدمي كاهله كأبيك، ويزجر أعداءك كأمك فقد قال الرسول الكريم في ذيل دعاء إتيان المقابر:

"وددت أنّا قد رأينا إخواننا، فقال الصحابة: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟! عند ذلك قال صلى الله عليه وسلم: "أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد".

هل رأيت الترتيب المنطقي الذي وضعه الحبيب صلى الله عليه وسلم؟

جعل الأقرب إلى قلبه هم الأصحاب ويليهم في المكانة الإخوان!

هذا بالفعل هو الترتيب الصائب، فأخيك هذا لم يختر أخوّتك بل فُرضت عليه، أما صديقك فكان أمامه برغم عيوبك ألا يصاحبك، إلا أنه قد فعل!

عم النبي لم يؤمن به ومات كافرا ولننظر إلى أول من آمن به من الرجال؟!

لقد كان صديقه الصديق رضي الله عنه، لم يكن يعي شيئا من الدعوة أو الدين آنذاك، لم يزد فوق أنه صدّق صديقه، يعلم انه بفعلته تلك ستُفتح النار عليهما في مكة، إلا أنه باع كل شيء ليشتري خاطر صاحبه ودين الله الذي علمه من خلاله.

تفاخروا بأصدقائكم، هادوهم، قدموا لهم الورود ولا تخجلوا، التمسوا لهم الأعذار، بادروا بالعون وإن لم يُطلب، لا تخسر صديقك من أجل شيء، فزيف البدايات في الحب يقابله توطيد حتى النهاية في الصداقة!

كونوا ممن يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، رجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه.

وهذا بالضبط ما عهدته عند هذين الصديقين, ما علمتهما قد اجتمعا إلا في خير وما انتهيا إلا عن شر, حتى قبضهما الله في ذات اليوم والساعة, رحمهما الله وأسبغ عليهما من عفوه.

***

- لقد أتت إلينا تلك المرة على طبق من ألماس، ألا ترى ذلك؟

تساءل مبهما فرد الآخر:

- ماذا تقصد؟

نظر إليه في غير تصديق محاولا استجلاء ماهية رده ثم تحدث متسائلا:

- هل تمازحني؟! تلك فرصة عمرنا حتى نثبت لهم أن الفضيلة التي يدعيها مسالمو "سيبتيما" هي محض أوهام، لقد أصبح عندهم قانون يسن العقوبات شأنهم في ذلك شأن باقي الوديان، لقد أصبح عندهم جرائم كذلك، الأمير الجديد هذا في يومين فقط قد مهد لنا طريقا كنا نحتاج إلى سنين لسلكه وحدنا!

- لا أفهم مقصدك صدقني!

تنهد زافرا هوائه في ضيق ثم طفق يحدثه ساردا:

- الآن مسالمو سيبتيما لن يسكتوا عن ذلك وسيطالبون بإلغاء مواد القانون الجديد الذي لم يمر عليهم مثيله من قبل، فذلك القانون لا يتماشى وعرفهم ولم يعرف به دستورهم من قبل، ولن يعترفوا به بمثل تلك السهولة، وبالتالي سيفقد الأمير الجديد شرعيته أمام سيبتيما وباقي الوديان، وعندها سنتدخل نحن باسم شعب "سيكستوس!".

تساءل ببلاهة وقد ولى وجهه متحاشيا النظر في عينيه الناريتين:

- وما دخل وادي سيكستوس؟

رد بعصبية:

- بحكم الجيرة يا أحمق، هل تناسيت أننا أقرب الوديان إلى سيبتيما؟! والمعاهدات تكفل استقلالية الوديان عن بعضها مادام أنه لا يوجد أي خطر وشيك؟!

- بالفعل أعي ذلك!

أجاب مفصلا:

- والخطر الوشيك هو ما حققه الأمير، وسيكون عذرنا للتدخل هو عدم الاستقرار الواقع بوادي سيبتيما، ومن حقنا وقتها التدخل.

قاطعه مستنكرا حين تساءل:

- عدم استقرار؟! في سيبتيما؟! مستحيل؟!

ابتسم بخبث ثم تحدث بحماس:

- القرارات الجديدة بالنسبة لمسالمي سيبتيما هي قرارات متعسفة، لن يسكت أهالي الوادي مطلقا، وسيكون موقف الأمير الجديد في غاية السوء أمام ملك "لاتيوم"، وقتها سيتفسح الطريق أمامنا لعرض خدماتنا على الملك، من أجل حل الأزمة هناك، وحين يحدث ذلك، سينتهي وادي سيبتيما وستفنى سمعته، سنخلق بينهم الصراعات، سنفرق بينهم في كل شيء، في الدين والعرق والجنس والنزعة القومية، ستزداد الفوارق بينهم اتساعا في كل شيء تستطيع أيدينا لمسه، سنجعل من سيبتيما أسطورة زائفة!

رد مهتابا:

- شعب سيبتيما متسامح ومتفهم لأبعد الحدود، من الصعب جدا بل من المستحيل أن يقعوا في ذلك الفخ!

ابتسم مرة أخرى فالتمعت عيناه ثم أجاب:

- سيظل الشعب راقيا إلى أن تقترب من دينه أو قوْته، عند ذلك سيشعر بالخطر، وقتها ابدأ في إشعاره بأن له كلمة وصوت وحق في تقرير مصيره كشعب وكوادي، ولا مانع من تقوية نزعته القومية، عندها سيحدد كل فرد مصير الوادي تبعا لهواه، وفيما يتناسب مع فكره ومتطلباته واحتياجاته الخاصة ومستواه، وحين ذلك سيحدث الاصطدام بوجهات النظر، سيتقاتلون لإثبات وجهة نظرهم، ولا مانع من إدخال بعض الرويبضة في اللعبة، حتى يقنعوا الشعب أنه له حرية الاختيار في حين أن تلك الاختيارات هي ما اخترناها له مسبقا.

سكت قليلا ثم استطرد متسائلا بخبث وابتسامة رقيعة صفراء:

- ما أستنكره أو بالأحرى أستغربه، هو لماذا يفعل الأمير الجديد كل ذلك؟! لا يمكن أن يكون هذا الأمير مسالم سيبتيمي، لابد أن هناك خطب ما!

قالها مبتسما فابتسم الآخر ثم رد طربا:

- يعجبني منك ذلك بالفعل! المهم أنه سينفذ الخطة التي نريدها جميعا والأهم من ذلك ألا ينكشف أمره وأمرنا إلا حين تقضي الخطة بذلك!

***

مرت بضعة من الأيام وازدادت بضعا وما زال أمجد ينقصه شيء، لم يكن من هواة وصل الأرحام، لم يعهد نفسه بارّا، الآن فقط يمكنه أن يستريح من نشيج أبيه ليل نهار، إلا أنه قد نقص منه جزءٌ برحيله، هو بالفعل كان يأكل بمفرده بشهية ثور قد وُضِع توا أمام عليقته!

إلا أنه حين يأكل وحيدا الآن، لا يكاد يلتهم من اللقيمات ما يقمن صلبه.

نعم كان صوت آلامه يؤرق عليه يومه!

إلا أن هذا الهدوء المقيت يبعث الرهبة في سويداء قلبه، فلكم يتمنى الآن أن تطربه تأوهات والده.

ربما هذا ما يدعوه لإلصاق رأسه بين الفينة والأخرى بباب غرفة والده، لا يعرف لماذا يصيخ السمع، إلا أنه يفتقده!

يفتقد نظرته الحانية، كلماته الرقيقة الصادقة التي طالما لم يلق لها بالا، فعند بعض الأبناء كلمات الجميع صادقة عدا الآباء، وكان هذا العاق منهم!

تبا له!

لم يشعر بذلك إلا بعد فوات الأوان!

لاسيما دعاءه المكلوم وصوته المبحوح من أثر الألم، بل ابتسامته النقية التي يختلقها ببراعة أحيانا ليسبغ ألمه ببعض السلوى، أو حتى يحاول التقليل من تذمرات ابنه العاق، الذي يقتات الآن بلا نهم على بعض الخبز الجاف والجبن الذي ربما انتهت صلاحيته وبعض فتات كانت بالثلاجة، والتي تسغب أكثر مما تشبع، وها هي الدموع تنهمر كعادته مؤخرا تزامنا مع لَوْكِه الطعام وطحنه بين رحى فكيه.

الآن يتذكر آلامه، الآن يشتاق لابتسامته ودعائه، يتلوى وَلَهَاً لحضوره، الآن فقط يلتاع لغيابه!

تبا لبشر لا يتقنون علم احترام الأحياء!

فحتى يجلّك البشر ويذكرونك بالمحاسن وإن لم تكن من ذويها لابد إذن من رحيلك، لن يحبوك ما دمت حيا، لا يجوز مدحك وفي إحدى رئتيك شطر من الأكسجين!

حين يجد التعفن طريقه إلى جسدك، عندئذ سيمدحك الجميع بغتة، ويحبك الجميع عَرَضا!

سيدبرون لك المكائد ويقطعون دابر إحسانك حتى يتوقف قلبك ويتلاشى نبضك فيترحمون عليك كما لن يفعل أهلك وبداخلهم رجال تصلي شكرا لقضائك!

حفظوا من كتاب الله فقط اذكروا محاسن موتاكم، أما الأحياء فلا محاسن لهم!

***

اضطجع أمجد على كرسيه مضطربا، أصوات رتيبة تزيد من قلقه الموتور، تضافر صوت زحف لعقارب ساعة الحائط التي بالكاد تحبو لاهثة وراء الوقت تدركه، مع خرير ذاك الخيط الرفيع من المياه في صنبور صدئ، ربما نقر تلك العصافير على خشب النافذة من الخارج، ما جعل أمجد يختنق بصمته فبتره موجها كلامه لصاحبه الذي كان قد جر كرسيا إلى جواره:

- أنا متعب يا خالد، قلبي يحترق، كل مآرب وصراعات الدنيا لم تعد تؤرقني، بداخلي صراع واحد الآن، هل أحيا لأكفر ذنبي أم أموت لأرتاح من عناء الحنين!

رجم خالد كمد أمجد بيده حين حاوط رأسه فقال:

- ما بك يا أمجد، لم أعهدك على مثل هذا مسبقا، أنت مؤمن، ارض بقضاء الله، رحم الله الأستاذ عارف يا صديقي، هل كان يعجبك مرضه وعناءه؟! لقد أراحه الله!

- أراحه مني!

قالها مباغتا فانحدرت دمعات عن عينيه تشق طريق وجنتيه بتؤدة ليسارع خالد حيث هدر مهدئا من روع صديقه حين قال:

- ماذا تقول يا أمجد؟! لا تقل ذلك، اهدأ أرجوك!

ابتسم أمجد المكلوم بلوعة فأطرق رأسه في أسى قائلا:

- لقد أراحه الله بالفعل، أراحه من جحودي، من عقوقي، من وجهي القبيح العكر الرافض الشكّاء حين يطلب مني مجرد كوبا من الماء، كنت أتركه وألمه، أبارك السرطان على جسده المنهك، أدعه ليتألم بمفرده، كانت آهاته تخترق أذني وأنا نائم فأتقلب غير مبالٍ، طالبته بأخذ المخدر بغض النظر عن أعراضه أو ارتياحه النفسي، لم أراعي إلا نفسي فقط، برغم مرضه وألمه كان يحاول إسعادي بشتى الطرق، لكني جاحد عاق أحمق، لم أدخل سرورا إلى قلبه يوما، لم أدخل إليه إلا الأسى والدمامة، أنا من جعلته هشا، والدي لم يكن يعاني من الألم، كانت معاناته الوحيدة هي أنا، وأنا فقط!

صمت قليلا ليلتقط أنفاسه اللاهثة ثم زاغت عيناه في حسرة فطوقه خالد مهدئا حين قال:

- رحمه الله يا صاحبي، رحمه الله يا أمجد، ادعُ له، هذا ما يحتاجه الآن، بإذن الله هو مسامحك!

قاطعه محتدا:

- يسامحني؟ على أي شيء سيسامحني؟! ما الذي سيتذكره في حقي طيبا لكي يسامحني عليه؟! لا أتذكر موقفا واحدا قد وقفت فيه إلى جواره أو شددت من أزره! لم أعرف أنه يعاني من السرطان إلا صدفة ولم أبد أية ردود للفعل! لم أكن أشعر بغير ما يلم بي ويلزمني، لقد توفي أبي في مراحل السرطان الأولى! هو من أراد الموت! لقد زهد الحياة من داخله بسببي، أبي لم يمت بالسرطان، لقد مات بي، وقد كنت مرضا عضالا!

أنهى حديثه، فأجهش بالبكاء ليحيطه خالد بذراعيه وكأنه يقيه من وخزات الألم الشّاكّة.

ظل الصديقان هكذا حينا لم يحصياه حتى تنحنح خالد قائلا:

- اسمح لي يا أمجد أن أغادر، لدي أمور يجب أن أنهيها وخططا لابد من إنجازها قبل أن أسافر في الغد بإذن الله.

نظر إليه أمجد مطولا فمسح دموعه ثم ابتسم بمرارة مودعا:

- لك ذلك يا صديقي، سلامة من الله تصاحبك إلى أن تبلغ بإذن الله.

***

أوصل أمجد صاحبه لعند الباب ثم أجفل مترنحا، يعتصره الألم، يعصف الندم بكيانه، يود لو أطلق ذراعيه مكبلَيْن بلا قيود ليسقط على حد حسام عتي، أو نصل للساموراي يخترق أنسجته وتتهتك له أعضاؤه فيلحق بأبيه إلى عالم صافٍ لا قسوة فيه ولا جحود، لا تبلد فيه ولا عقوق، أراد أن يعتذر من أبيه حتى وإن كان ذلك في الحياة الأخرى!

جلس أمجد إلى كرسيه وبمجرد أن نظر مقابلته، ذهل بعينيه وشرد قليلا، لتواتيه تلك القشعريرة التي ينتصب لها شعر اليد وتتشنج لها مؤخرة الرقبة بعصبية!

فقد أبصر أمامه على كرسيٍ مجاور، تلك المخطوطة الملعونة التي كانت بيد صديقه خالد من قبل!

ترى ما الذي أتى بها إلى هنا!

وهنا بالذات شرد متذكرا:

***

- لأن المخطوطة قد اختارتك يا صديقي، هي لا يختارها أحد!

توجه أمجد بسؤاله مستفسرا ببعض البلاهة:

- كيف اختارتني؟! أنا حقا لا أفهم ما تقول!

ملأ خالد جعبته بالهواء ثم زفره في راحة مستعدا لتوضيح بعض الأمور وسبر أغوارها فقال:

- تلك المخطوطة يا أمجد هي تختار من يقرؤها، هي فقط التي تختار، لذلك قد اندهشت حين وجدتك قد رأيتها، المخطوطة مخفاة عن أعين العامة ولا تظهر إلا لمن تنتخبه لقراءتها وليكن بعلمك يا صاحبي، فمن يراها لابد أن يقرأها سواء أراد ذلك أم لم يرد! قلت لك، هي ما تختار وتتحكم بالأمور!

***

جلس إلى كرسيه مرة أخرى، شاردا يناجي نفسه مناقضا بغير إدراك، يتساءل في حيرة لن يبددها غير استجلاء سر تلك المخطوطة وسبر غموضها!

ماذا يعني ذلك؟! هل اختارتني المخطوطة؟! ولكنّي لن أقرأها؟!

ولِمَ لا؟!

لماذا لا أقرأها؟ ما الذي أخشاه؟! وماذا أنتظر مجددا من حياتي البائسة تلك؟!

يمكنها أن تهلكني، مرحبا إذن!

مجرد اسمها يوحي بالقلق!

مخطوطة سيبتيما!

أشعر مع نطقها بأريج التاريخ المظلم يزكم أنفي!

تهلكني؟! هو المطلوب إذن! حينها سألتحق بالسابقين! لم يعد لي مأوى هنا!

إن كانت هذه المخطوطة ستقتلني حقا، فمن الجيد البدء في شعائرها الآن!

أما إن كانت ستأخذني في رحلة إلى حقب التاريخ وجنباته السحيقة فالأمر شيق بحق!

سأعرف بنفسي إذن ومما لا يتيح مجالا للشك إن كان الملك فاروق عربيداً خمورجياً أم كان وطنياً شامخا خضعت له منارات الدول وبوارجها؟!

سأتـفحص جثث الموتى القابعة بقبو بيت ريا وسكينة لأُجلي سرهما، هل كانتا تقتلان النساء فقط من أجل حُلِيّهنّ أم كانتا مناضلتَيْن حقاً؟! قتلتا جنود الإنجليز في مهمات ومذابح وطنية، وقد تم تصديرهما بهذا الشكل لجنّ دورهما الوطني؟!

سأسأل فرعون الخروج ذاته هل كان الملك رمسيس؟! هل كان الملك منفتاح؟؟!

أم بالفعل كان سادس ملوك الهكسوس.

هل انتهج سعد زغلول القمار وعاقر الخمر؟! هل فر من النزعة الدينية لقرينتها القومية؟! أم كان مجرد أداة وخيط وسط مجموعة خيوط لتحريك تلك الماريونيت التي طالما أنهكوها بالرقص؟!

سأسترد لــ هارون الرشيد تاريخه بين الصالحين، هذا المجاهد الذي كان ينفر عاما ويحج عاما، لا الشهواني المتغطرس عليل النفس، طافح الكأس.

سأرفع القبعة لــ "ديجون" الفيلسوف المتسول حين سأله الإسكندر الأكبر معجبا بشجاعته ما الذي يرضيك ويسعدك كي أفعله، وقتها رد بجفاء وبغير اكتراث:

ابتعد قليلا، فأنت تحجب الشمس عني!

أتوق لرؤية ردة الفعل على وجه الإسكندر!

هل كان غضبان أم منتشيا؟!

سأجوب التاريخ بحثا عن هذا الــ "كيركزيس الأول" لأستفهم منه، فيم كان

يفكر حين عاقب البحر بثلاث مئة جلدة وقتما حُطِّمَ جسر الفرس وفشلوا للمرة الثانية معزيا ذلك إلى البحر!

ثلاث مئة جلدة؟! للبحر؟! ممن قد ابتاع حشيشه وقتذاك؟!

أخيرا أريد أن أتيقن من أن رع وآمون وأنوبيس لم يكونوا آلهة إنما كانوا ملائكة وأن إدريس عليه السلام أدخل التوحيد مصر قبل أن يدخل شبه الجزيرة العربية على يد سيد الخلق بخمسة آلاف سنة!

كل تلك الأفكار كانت تراود أمجد وتزاحم خلده، وهو لا ينتبه ليده التي تمتد من تلقاء نفسها لا إراديا صوب المخطوطة، لم يلحظ حتى الكوب الذي أسقطته يده الهائمة تلك، فتدحرج منقلبا ثم ما لبث أن استقر لافظا ما في جوفه!

لم يفق إلا على وقع لسانه وهو يهمس قارئا دون وعي:

- مخطوطة سيبتيما!

***

فتح خالد حاسوبه بعد أن أنهى مواعيده بعناء بغيض، زحف إلى سريره أخيرا، وقد أنهكه التعب، حين احتضن الحاسوب وهو يضغط بعض المفاتيح به حتى أتته رسالة من الواضح أنها باللغة الإنجليزية، فطفق يرددها بصوت مسموع ونبرة متقطعة:

"Your ticket?"

وما أن قرأها حتى ضغط على بعض الأزرار بالحاسوب ليكتب بالعربية:

"نعم معي، ولكن اسمح لي أن أسألك عن شيء أثار لغطي واستغرابي؟!".

جاءه الرد بالعربية تلك المرة:

"أظنك ستسأل عن الطريق، لماذا اخترنا الطريق الأبعد للوصول لأمريكا، أليس كذلك؟!

"بالطبع".

"هل ظننت حقا أنك ستصل أمريكا من الأساس يا خالد؟

عقد خالد حاجبيه ثم كتب:

"ماذا إذن؟!".

"لا تتعجل يا صديقي، غدا ستعرف كل شيء.

"عندي سؤال آخر أرجو ألا تتخذوه على محمل شخصي؟".

"أظنني أعرفه لكنّي أريد أن أراه منك؟".

"منذ متى وأنتم تريدون الخير للعالم في حين أنكم تريدون الخير لأشخاص وكائنات في أبعاد أخرى؟!".

" ومن قال ذلك؟! من أقر بأننا نريد لهم الخير أو السلامة؟! الأمر كله أن تصارعهم الآن فيه تقويض لخططنا الحالية، لكن ربما فيما بعد نحن من نثيرهم لافتعال المشاكل".

" لم أفهم كليةً ولكن إذا أردت أن تستقر الأوضاع هناك فلماذا تبعث بمن هو خارجهم ليؤچج معيشتهم الرائقة؟!".

" أردنا أم لم نرد الحرب قادمة، النبوءة في طريقها للتحقيق وستفاجأ بماهية الشخص المنوط بتحقيقها".

"وكيف هذا؟!".

"لا تفكر بذلك الآن، كن حذرا فقط وتذكر، مهما حدث لا تهلع، نحن معك في كل وقت".

"في الحقيقة لقد أصابني الهلع الآن حقا".

"نحن معك في كل وقت، نحن معك في كل مكان".

***

أمسك أمجد هاتفه فضرب رقما ثم حاذاه بأذنه فانتظر قليلا ثم قال:

- مرحبا!

أتته الإجابة من الجانب الآخر ليرد:

- مرحبا، كيف أنت يا أمجد؟! الباقيات لك يا صديقي!

رد أمجد بجدية:

- البقاء لله وحده، مختار أنا أريدك، أريد أن توافني الآن ببيتي في مسألة هامة، ولا تسألني عن شيء أرجوك حتى تأتي، عند مجيئك ستعرف كل شيء!

أجاب مختار بفضول واستغراب:

- ألا يحق لي أن أعرف بخصوص أي أمر تريدني؟!

قاطعه أمجد محتدا:

- اعذرني يا مختار، ستعرف كل شيء قريبا صدقني! فقط تعال!

- حاضر يا أمجد، سأوافيك في الحال.

- ووائل وجمال أيضا، أحضرهما معك! لا تأت دونهما، ذلك أهم من أي شيء يفعلانه!

سكن يفكر قليلا ثم أجابه مُطَمْئنا:

- حاضر يا أمجد، سأفعل.

***

حزم خالد أمتعته وارتكن إلى أريكة مريحة بغرفته، يلهث من الكمد، لسانه الصامت وجسده الساكن لا ينفيان صخب عقله، فمن يحتمل ذلك!

يحبو إلى المجهول حبوا على صراط من الخواء، يبرح إلى حيث لا ينتمي، على وعد ممن يجهله بعدم بلوغ وجهته أصلا، ثم وعد مرعون بأنهم لن يتركوه، من هم من الأساس، ولماذا وافق على ذلك الأمر برمته، يشعر أنه مسلوب الإرادة!

المهم أنه قد تنهد زافرا مقلقاته براحة مصطنعة، ثم شد من أزر نفسه، ونهض فحمل أسفاره وحقائبه مستعدا وهو يغادر بسلام ظاهري أثناء تفقد جدران بيته علّه يفتقدها!

***

أرجأ خالد رأسه إلى كرسيه المريح بمقدمة الطائرة، يفكر في مستقبله المجهول، حتى أراح جفنيه اللذَين تثاقلا، وغط في سبات عميق!

رأى نفسه في قلب مكان، أقل ما يوصف به أنه الجنة الغناء، ألوانه وأصواته المريحة، أناسه الطيبون الذين يبتسمون إليه كلما مروا به، حيواناته اللعوب، جداوله الصافية، إنها الجنة كما نسمع!

وإذ فجأة يستحيل كل ذلك إلى النقيض، عاصفة شهباء تهوى من السماء فتحط أرضا على تلك المدينة العلوية فتصعق كل هذا الجمال، لتترك السماء تلك البقعة الساحرة خواء ركودا، تتبدل الخضرة إلى هذا الرماد السمج، وتحول ضجيج الأطفال ومرحهم إلى صرخات مضنية وآلام مجحفة، فاهتزت الأرض تحت قدميه حتى أنه استيقظ مذعورا ليجد الطائرة أيضا تموج مهتزة!

ماجت الطائرة ومعها المستقلون كذلك، فبعضهم يلهث والآخرون يهرعون بفزع، يروحون ويجيئون في لوعة، اضطرب خالد يتابع كل ذلك، فوجد الجميع يهذي بعبارات الاستنجاد والتوبة فهناك من التقط مصحفا، وأفراد قد عانقوا

صلبانهم.. إلا ذلك المتأنق، يجلس إلى كرسيه يقرأ في كتاب بمنتهى الهدوء، لا ينظر حوله وسط هذا السوق الصاخب.. حتى حوّل ناظره عن الكتاب فجأة ناظرا إلى خالد فابتسم، حينها استجمع خالد كل شيء ثم تذكر فهمس المتأنق له:

- نحن معك في كل وقت.. نحن معك في كل مكان.

هدر بها خالد معه فازدادت ابتسامة ذلك الرجل، حتى ارتطمت الطائرة بفجوة مجهولة وسكن بعدها كل شيء!

***

- ماذا سنفعل يا سادة؟! لقد سن الحاكم الجديد تشريعات تحتوي على عقوبات للإيلام الجسدي وأخرى سالبة للحرية!

قالها فنظر إليه أحد الحضور في جمود ثم سأل بجفاء:

- منذ متى ونحن نروج للإشاعات يا جاسر؟!

تنهد جاسر بحسرة فقال:

- يعلم الله أنني لست مروجا للإشاعات، لم أفعل من قبل ولن أفعل مطلقا!

- إذن ماذا تقول؟! هل هناك ما يسمى بعقوبة للإيلام؟! لا يوجد كائن خلقه الله يعاقب جسديا!!

أشاح جاسر برأسه ثم رد مبتئسا:

- الفرمان الأميري الصباحي هو ما يقول ذلك، هناك عقوبة تسمى الجلد!

- ماذا يعني الجلد ذاك؟!

- الفرمان قد فسّره بأنه ضرب ظهر المحكوم عليه بأداة سماها الفرمان السوط

تساءل مستفسرا:

- سوط؟ وماذا هذا السوط أيضا؟!

- لقد أدرجت مادة القانون أن وسيلة الضرب تلك مصنوعة من مادة مطاطية أصعب من أن يتحملها أحدنا لبضع جلدات!

ران الصمت قليلا فسأل في ضيق:

- ما الذي يحدث حولنا؟! لِمَ كل هذا؟!وما تلك العقوبات السالبة للحرية كذلك؟!

أجاب جاسر:

- الحبس في مكان مظلم، معتم، وليس لك وقتها الحق في الخروج، إلا بعد قضاء مدتك!

- ماذا تقول يا جاسر؟! من ذا الذي يسلبك حريتك؟! من يعطي أي شخص كائنا من كان الحق في سلب حق أصيل من حقوق المسالمين، حق قد كفله الله للبشر قبل أن يكفله دستورنا، دستور سيبتيما؟! تلك سادية مفرطة، من يتحمل مثل ذلك؟! ولماذا؟ نحن وادي الفضيلة!

سكن قليلا ثم تابع مغتاظا:

- ومن إذن المنوط به تحديد تلك المدة؟!

- الأمير.. الأمير وحده هو من سيحدد عقوبة كل جريمة!

رد باستنكار مستفهما:

- جريمة؟!

- التقصيرات.. التقصيرات أصبحت أعم وأشمل، ولها عقوبات أغلظ من تلك التوبيخات وغيرها وتم تسميتها بالجرائم!

- حقا أنا لا أصدق ما يلقى على مسامعي الآن! هل سنعيش هكذا؟! أظننا لن نستطيع!! تلك حياة غير آدمية!!

- الدعاء يا صديقي، الدعاء.

***

انتصب الملك مهابا أعلى منبره المرصع بأحجار بعض منها ما قد عرفها العامة وشطرها الآخر لم يخابروها، فمن سيحصي جل الأحجار الكريمة بوادي سيبتيما، وقف مزدانا بعباءته المطرزة بتلك النقوش المريحة لمن يراعي، وهذا الحسام القاصف اللامع المزركش عند المقبض بألوان قانية، لاسيما ما أكسب وقفته تلك شموخها الزائد هذه التماثيل الثلاثة والتي تتخذ هيئة المحاربين، حيث أمر بتشييدها في منتصف الرواق المؤدي إلى قصره المنيع.

اتكأ على متكأ قد برز من المنبر وأخذ شهيقا طويلا، فزفره ثم بدأ حديثه بابتسامة مقتضبة باسطا يده بالتحية لتلك الجموع المحتشدة والجحافل الغفيرة تترقب موتورة أمامه حتى بدأ كلامه قائلا:

- بصفتي أمير وادي "سيبتيما" أتوجه إلى الشعب بخالص الشكر والعرفان، هذا الشعب المسالم، الذي لولاه ما وصلت إلى منصبي هذا، الكرسي له رونق خادع، غير أن المدقق سيتأكد أن الكرسي ما هو إلا هم بالليل وكدٌّ بالنهار، فتُرى كم ستكون مرتاحا إذا علمت أنك مسؤول عن تصريف أمور شعب كامل!

أعلم أنكم قد ارتبتم في الأمر من مواد القوانين الجديدة، إلا أنني أريد أن أطرح سؤالا عليكم فأجيبونيه.

قالها وسكن قليلا حتى رأى هذه النظرة الوجلة في تلكم العيون المترقبة، نظرة الفضول ورغبة الاستجلاء، حيث ابتسم باقتضاب ثم استأنف حديثه صاخبا:

- لماذا قد يخشى المستقيم من العقاب؟! ما الذي يفعله المسالم ليستحق العقاب وبالأحرى الخوف منه؟!

على العكس فأنا أكفل للمسالم المتعاون حياة كريمة مأمون جانبها، أريد أن أضع الأساس القويم لحياة أبنائكم دون تعكير لصفوها.

لا توجد مدينة فاضلة، القانون والعقاب هما ما يجلبان الفضيلة.

الأصل في خصال الإنسان الإباحة، أنتم فاضلون لأنكم لم تتعرضوا للاختبار بعد، ما أن يتم تهديد الأمن والسكينة العامة بأية طريقة كانت، فستجدون تلك الحملان الوديعة تستحيل إلى وحوش ضارية، تتصارع على فرائسها مقوضة قصعاتها، وتصطك أنيابها بنواخر عظام الضعفاء، أنا لا أرى المستقبل، لست متنبئا مجذوبا، إلا أنني أمتلك مزية القراءة، أقرأ المستقبل بعوينات الحاضر، وعدسات الماضي، أنا لا أريد لأبنائكم الهلاك تحت براثن الفضيلة الزائفة!

نحن ضعاف للغاية، لا شرطة، لا جيش، لا قضاء، لا دستور؟

فقط رجال تقديم التوبيخ، ورجال التقصيرات؟!

أعلم أنكم لا ترتاحون لتلك المصطلحات التي قد تبدو مجحفة في ناظركم وأسماعكم بل أنكم على الأرجح لا تعرفون ماهيتها من الأساس، وهذا ما أحكي عنه، أنا مغتمّ لأجلكم، أخشى المستقبل فيكم!

هل هكذا تدار الأمور؟! أهذا ما سنواجه به تقلبات المستقبل ونكباته؟! رجال التوبيخ والتقصيرات؟!

نحن فاضلون، لكن جيراننا وأعدائنا ليسوا كذلك!

ماذا سنفعل لمواجهة غزو من وادٍ مجاور إن نقض المعاهدة لأي سبب كان؟!

ماذا سنفعل مع سفلة الوديان؟

هل سنقاتلهم بالحب والمودة؟!

أنتم فاضلون نتيجة تجربة ما، نتاج نظرية عقيمة وهذا غير كاف لأن تحيا حياة كريمة تؤثر فيها وتتأثر بها ولتكن بها كلمتك من رأسك وثمارك من معولك.

أتدرون كيف تكونت فضيلتكم؟

عن طريق التعود لا الاكتساب، بالتطبع لا الطبيعة.

اسمحوا لي أن أطيل بعض الشيء لسرد تجربة هي صاحبة الفكرة الأساسية لما أنتم عليه الآن!

قديما أتى عالم بخمسة قرود وحبسها بقفص حديدي منيع ثم علق أعلى القفص بعض أصابع الموز.

كان كلما تسلق أحد القردة ليلتهم موزة، رش العالم القردة الأخرى بالماء في قسوة إلى أن كفّت عن المحاولة لأنها تعلم أنه بمجرد محاولة التسلق سيكون العقاب هو الرش بالمياه.

أدخل العالم بعد ذلك قردا جديدا فطفق يتسلق عاليا ليحصل على الموز في حين رش العالم القردة اللائي على أرضية القفص بالماء.

أخرج العالم قردا وأحل محله بقرد جديد، فحين شرع في التسلق انقض عليه القردة تضربه وتمنعه من التسلق لأنها تعرف عاقبة ذلك.

أخرج العالم قردا آخر وأبدله بغيره، وما أن أراد التسلق حتى ضربه جميع القردة ومنعته.

وظل العالم يحل قردة جديدة مكان القديمة ولازالت تضرب من يحاول التسلق، العجيب في الأمر أن القردة الجديدة التي تم منعها من التسلق سابقا كانت تضرب القردة الأحدث والتي حاولت التسلق وهي لا تعلم لماذا تضربه فلا هي رأت الماء كعقاب ولا هي تعرف سر منعها من الأساس!

وظلت هكذا إلى أن أصبح القفص يمتلئ بخمسة قرود جديدة لا يحاول أحدها التسلق برغم أنها لم يتم عقابها أبدا، ولم يُرَش أحدها بالماء، فقط لا تتسلق ولا تعرف لماذا؟! رغم اشتهائها الموز، إلى أن حاول أحدها التسلق بعد جوع شديد، فلم يرشه العالم بالماء ووصل بالفعل إلى الموز، وعندما رأت بقية القردة ما حدث تسلقت جميعا لتصل هي الأخرى إلى الموز، الذي قد كان نقص عن عددها فتصارعت كلها من أجل إشباع جوعها إلى أن مات منها اثنان في ذلك النزال من أجل البقاء!

هكذا أنتم شعب "سيبتيما"، كانوا يريدون لكم أن تكونوا مجموعة من القردة تنفذون الأوامر لخدمة مصالحهم، مختبئين تحت مظلة الفضيلة، حتى يتم ما يريدون لكم وبأيديكم لا بأيدي غيركم، إلى أن تشارف خططهم على الانتهاء، فعندها سينقض من لا فضيلة لديهم على ذويكم، وقت ذلك فقط ستعلمون قيمة ما أريد فعله!

فكروا جيدا!

إن جاع أحد القردة لأي سبب كان، حتما سيتسلق، فإن لم يجد العقاب ستجد قرودا تتقافز عداء لبعضها، تتسلق بعضها البعض، فالكل يريد الموز لنفسه!

أنا معكم، إن أخطأت فقوموني، لكن دعوني أحافظ لكم على سيبتيما، دعونا لا نكون تلك القِرَدة التي أرادوها لنا!

فكروا في الأمر مليا، كل ما فرضته من عقوبات وقوانين سيتم تطبيقها، أنا لا أسألكم التأييد أنا أسألكم أن ترضوا بما فرضت، كعادتكم دائما، الولاء يكون للحاكم، ولغيره لا سمع ولا طاعة!

سيتم طبع عملات ورقية بدلا من العملات الودية للتعاملات في البيع والشراء، وكذلك سيتم فتح باب التجنيد الإجباري على أولادكم، سيكونون رجالا بحق،

سيرتفع قدرهم وشأنهم وسيتميزون عن الآخرين، مفارز الوادي العسكرية ستدشن قريبا لاختيار أفضل العناصر التي سيتكون منها الجيش، سأجعلكم تفتخرون بهم، وسيفتخر أولادكم بأنهم من جيش سيبتيما!

أنهى كلامه فأشار إلى حراسه حيث انحنوا، فانحنى الشعب المرابض أمام الأمير حين وضع الأخير قبضته محل قلبه بهيبة منه وجسارة، مرسلا شبح ابتسامة وهو يدور بعينيه شامخا ليرى الجميع ينحني بإجلال ووقار!

***

جلست هي ورفيقتها حيث تمهدت الأرض من تحتهما، أنهكهما الضحك وأعيتهما الأحاديث حتى توقفتا تماما لبضع دقائق تتلمسان الدعة حتى تجاذبتا أطراف الحديث مرة أخرى فسألت إحداهما:

- ما رأيك بالأمير الجديد؟!

مطت شفتيها في حيرة فسكنت قليلا ثم أجابت:

- حقيقة لا أعرف يا أميرة، أشعر أن قلبي منقبضا، لا أعهدها سيبتيما التي نحبها جميعا، لا أخابرها وادي الفضيلة!! لم نترب على مثل تلك المصطلحات؟!عقوبات وجرائم وإيلام جسدي وسلب للحرية؟! ما هذا؟ أضحى المسالمون كئيبين بدرجة لا أتحملها!! لقد ضن الأمير عليهم بالبسمة التي كانت تميزنا! انتشر الفقر والعوز لضعف الأمل في القلوب، أصبحت العملات الودية في انخفاض، لم تعد القلوب عامرة بالود كما كانت!!

غمزت رفيقتها بإحدى جوهرتيها مقاطعة ثم أومأت معترضة فقالت:

- أرى أنكِ تكسبين الأمر أكثر مما يحتمل، لا تضخمي الأمر، تلكم القوانين لن يتم تطبيقها بالمنظور الذي ترينه، صدقيني! ستعود الأمور مرة أخرى أفضل مما كانت عليه!

أطرقت رأسها تفكر ثم تنهدت فقالت:

- أميرة، أنا لا أتحدث هنا فقط عن تلك القوانين الجديدة، ولا حتى عن الجرائم التي لا نعرف فحواها فحسب، ولا العقوبات كذلك! المعضلة في أمرنا هذا أن الأمير يحاول تمرير اليأس لمسالمي سيبتيما، يحاول أيضا تصدير فكرة التربص، يحاول إقناعنا أن الجميع ينتظر تلك الفرصة السانحة للانقضاض علينا، يحاول توجيه شعبنا إلى أنه المنقذ الوحيد وأن الجميع سيغدر!!

ليس هذا فحسب، بل فكرة أن الشعب ستتغير طباعه فجأة من الألفة إلى التصارع من وجهة نظره تلك تؤرقني!

سكتت حينا ثم استأنفت:

- بل أن ما يرهبني حقا أن البعض رأى في كلامه الصدق، بعض النفوس الضعيفة قد ارتأت أن سيبتيما تنجرف إلى منحدر الهاوية!

ران القلق على قسمات وجه أميرة فأذعنت لرأي صديقتها لوهلة، واضطربت قائلة:

- وماذا بعد؟

ردت بحيرة جلية:

- لا أعرف.. حقيقة لا أعرف، لكن ما أراه عيانا أمامي لهو مدعاة للقلق، الناس في فقر مدقع بغير أمل، إن ضعف الأمل لهو فقر ومرض!

زفرت أميرة بارتياب هواءها فأضافت:

- لقد تسرب القلق إلي، فلندع بصلاح الحال، ليس أمامنا غير هذا!

***

- الآن فقط يمكنك أن تودع سيبتيما إلى الأبد.

قالها شذرا فرد صديقه معترضا:

- لماذا يا صديقي! بحسبك هذا التشاؤم، أنا بخلافك أرى كلام هذا الحاكم الجديد منطقيا جدا وأهلا للثقة، أنا أؤيده في بعض النقاط وربما المعظم، من الواضح حنكته وخبرته في مخاطبة الناس، ما أريد أن أقوله، أن لا خوف على سيبتيما تحت حكم هذا الرجل! لا تقلق يا صديقي.. لا تقلق!

نظر إليه مطولا يحاول أن يتحسس الطمأنينة في كلامه ويتلمس رجاحة عقله إلا أنه أطرق برأسه أرضا فقال:

- للأسف ما يقلقني هو ما تقره أنت، هذا الحاكم يبدو بالفعل خبيرا بالكلام، فقط الكلام، وهذا أمر مشؤوم، المسالمون بالفعل قد طربوا لحديثه، وهذا ينم عن كارثة، سيدمر هذا الوادي إذن بمباركة الشعب!

احتد صاحبه فقال مقاطعا:

- ولِمَ هذا الاقتناع السيئ، لماذا تفترض السوء في الأمور والأشخاص، لم أعهدك هكذا، ولم أعهد مسالما بسيبتيما على مثل هذا، أنت إذن من بدأت في التغير وليس الأمير، على العكس هو تماما، فلا يتضح سوء النوايا من بين ثنايا حديثه، اطمئن يا صديقي، سيبتيما لن تتغير، ربما يمكننا أن نطلب عدم تحقيق بعض أموره التي قطعها مثل إلغاء عملاتنا الودية، لكن باقي الكلام جيد إلى حد كبير!

ابتسم ببؤس ثم تحدث كدرا:

- مثلما قلت لك من قبل، لا تكون الأمور دائما في الخفاء على ما هي عليه في العلن، والتوقعات ليست من المفترض غالبا أن تكون إيجابية.

- وهل سنفسر كل أمر بما يخفيه؟ دائما نتعامل مع ظواهر الأمور، مالنا والخفاء؟

ابتسم بلوعة ثم أجابه مناقضا:

- أحيانا الجهل بما يخفى يكلفنا رحلة شاقة إلى اللاشيء نخسر فيها مؤنا كنا نعدها لرحلة البلوغ، صدقني لا تنظر لما يظهر فقط من الأمور، وجّه دفتك إلى بواطن العلل .. تذكر, هناك دائما جانب مظلم للقمر, فابن نوح قد كفر في بيت نبي، وابن آزر أضحى أبا الأنبياء، إخوة يوسف ألقوه في الجب.. والحوت هو ما أنقذ يونس في لج مظلم!

زوجة فرعون بُشّرت ببيت في الجنة، وزوجة لوط خائنة مخلدة في النار..، مكة تتنمر لابنها وتطرده.. فيأويه غرباء بالمدينة!

جذع شجرة يحن لاتكائه وناقة تشكو إليه.. في حين يلقي عمه بالشوك في طريقه، يلقون إبراهيم في نار مستعرة.. والنار تأبى أن تحرقه.. في الحقيقة يا صديقي لا شيء يبدو كما يبدو!

- عادتك هي هي.. لن تتغير، تتوقع الأسوأ دائما، حفظ الله سيبتيما من كل مكر وشر!

قالها وقد طفق يتفحص تلك الكلمات بعقله، فأطرق رأسه متمعنا وقد بدأ القلق يتسلل رويدا ويتحسس سبيلا إلى قلبه!

***

"اللهم فاطر السماوات والأرض رافع السماء بغير عمد، اللهم أنت القوي، أنت المعين، اللهم إني أسألك بالألف القائم الذي ليس قبله سابق إلا أنت الله، وباللامين اللتين طمست بهما الأسرار وجعلتهما بين العقل والروح، وأخذت عليهما العهد الواثق وبالهاء المحيطة بالعلوم الجوامد والمتحركة، والصوامت والنواطق، أسألك باسمك الذي هو الله القادر القاهر الجبار الذي تشعشع فارتفع، وقهر فصدع، ونظر نظرة للجبل فتقطع، وخر موسى صعقا من الفزع، أنت الله الإله الأكرم

الأزلي السرمدي الذي لا يحول تدهش منه العقول، اللهم إني أسألك بسر السر الذي هو أنت، وعدت به قلوب أهل الذكر بخفي جولان معرفتك بالفكر، اغمسني يا الله في بحر أنوارك واملأ قلبي من أسرارك، أجبني باسمك الأعظم الذي علمته قليلا من عبادك أسألك علم الخضر وقوة آصف بن برخيا في نقل العرش، اللهم انقلني إلى حيث كتب ومهد هذا اللوح، أزل الستار، واقصني إلى حيث يقسمون، بحسام من غيث قطرك، إلى أرض الفضيلة وما بعدها تحت غشاء الستر وجنحه".

أنهى أمجد قراءته الحثيثة بصرخة لا إرادية حين شعر أنه يخترق حاجزا من حواجز الزمكان، نعم، لقد كان يُسحَب لأعلى.. لا، لأسفل بل يمينا.. هو يعتقد يسارا.. إنه متوقف أصلا لا يتحرك!!

هو لا يعلم، فقط هو بداخل فجوة غريبة تجره جرا ولا يملك على روحه أو جسده سلطانا!

يمر بأماكن غريبة أثناء ذلك، لا هذه الأماكن تخصه ولا تلك الساعة هي أوانه، شعر مع ذلك بطقطقة كل عظمة وعضلة بجسده حتى وجد نفسه مستقرا باللامكان!

إنه الآن!

هو لا يعلم أين هو بالتحديد، هو بمكان لم يعهده ولم يطرقه وربما لم يطرقه أحد من قبل، فهو نظيف وزاهٍ حد الخوف، إنه يقسم أنه ليس موجودا على الأرض بالمرة، ماذا كان يقرأ!

لقد تذكر! المخطوطة!

***

إنه بالتأكيد داخل أحد قصور الجنة!

هل مات؟! ولكن أنّى له ودخول الجنة؟ إنه لم يفعل من الحسنات إلا بضعة جنيهات قد تصدّق بها رياءً على قعيد بالشارع ليعجِب إحدى الفتيات الأزهريات، بل إنه تذكر أيضا أنه قد عاد إلى هذا القعيد فيما بعد يطالب بصدقته!

إذن أين هو؟!

طريق يبدو أنه غير مطروق، سماؤه زرقاء لا يشوبها كدر، مهلا.. هل تغير لون السماء إلى الأخضر الصافي للتو؟!

إذن تغيرها للبنفسجي مرة أخرى لم يكن خيالا من فرط الصدمة!

الطيور مزدانة بألوان يقسم أنه لم يرها من قبل!

أشجار محفوفة، دانية قطوفها، زهور مختلفة أشكالها، ثمار متباينة ألوانها، أعشاب تحب أن تطأها حيث يتغير لونها مع كل خطوة تخطوها، حيوانات مارقة, جداول وقنوات جارية يكمل هدير مياهها في تناغم تلك اللوحة الزاهية بشتى عناصرها المرئية والسمعية!

مازال يتأمل فوقه وحوله في شَدَهٍ بينما كانت تمر وهي تدندن ببعض ألحان غريبة، ما هذا!

ملاك يمشي على قدمين، وجه أبيض بياض الثلج وعينان زرقاوان يقسم أنه رآهما تتغيران إلى اللون الزهري ثم الأخضر فالعسلي.. فأنف صغير أقنى وفم دقيق مزمومة شفاهه.. شعر منسدل أسود فاحم، قوام دقيق متناسق وارتفاع قامة متوسط!

لقد شرد فشرد وذهل فذهل.. أخذ وقتا كافيا جدا ليستفيق من أثر خمر عينيها ونبيذ حسنها!

ما هذا، لقد ركّز في دعائها ودندنتها ثانية.. إنها بلغته!

إنه يفهمها إذن.. إذن مازال على الأرض.. إن لم تكن تلك هي الجنة بعينها فكيف ستفوق هذه جمالا إذن.. كيف ستكون الجنة!

حمد الله كما لم يفعل من قبل، إنه الآن لا يشعر بالوحشة، فياليت كل الوحشة هكذا جمالا!

أين سقط؟ أين يقبع الآن! لا يهم، المهم أن تلك الجميلة تمر عليه وهو يفهم كلماتها، لا جلل في الأمر بعد ذلك!

صرخت فجأة فجعا حين تناهى طيفه إلى ناظريها قائلة:

- من أنت؟

رد أمجد فزعا هو الآخر:

- لماذا تصرخين الآن.. والله لا ينقصني مثقال ذرة من فزع!

ردت بحياء تام قد ازداد من حمرة وجهها ورونق وجهها:

- أنا آسفة حقا.. لكنك قد ظهرت في طريقي بغتة فاستشعرت الرهبة، أنا آسفة يا هذا.

قالتها فسكتت قليلا تتفحصه باستغراب ثم أردفت:

- ما بال هدومك، ما أغربه من ثوب!

قالتها بدهشة وهي تمحص بعينيها ثيابه وقد فعل هو الآخر فقد جال بعينيه في ملابسها حيث كانت ترتدي عباءة لم يتعرف على لونها أو بمعنى أدق على ألوانها المتداخلة التي تضفي راحة للناظر مع وجهها السمح المنير، وتربط إلى رأسها نصف غطاء للرأس لينسدل منه شعرها المنساب بسلاسة محيرة وتنتعل ذلك الخف الرقيق غير المخيط إلا أنه على كل حال بعد تفحصها قد رد مستنكرا بلكنته الساخرة:

- ما أرتديه لن يكون أكثر غرابة مما ترتدين.. ما ألوان الطيف هذه؟!

أجابت باسمة فأشرق وجهها بغرابة ما جعله يقسم في قرارة نفسه أنه قد رأي وجهها يضيء من تلقاء ذاته، كقنديل قديم قد زيد في وقوده للتو!

- ألم تعجبك ثيابي؟! قد ابتعتها بثلاثة عناقات ومسكة يدٍ مطمئنة، كنت أظن ذلك الثوب مميزا، على العموم أنا آسفة مرة أخرى، لم أقصد ترويعك، لكن أستميحك عذرا ألا تبلغ رجال التقصيرات، فأنا أنتظر مخالفة توبيخ بعد الحكم علي بتقصيرة تشاؤم!

عقد حاجبيه في بلاهة ثم قال:

- ماذا تقولين؟!كيف تبتاعين الثوب مقابل عناق؟! أأنتِ...

بتر حديثه فتساءلت:

- أنا ماذا؟!

- لا عليكِ، لكن حقا لم أفهم كل ما قلتيه، من رجال التقصيرات وما حكم التوبيخ ذلك؟! وهل أصبح التشاؤم تقصيرا؟! هل تتعاطين المخدرات؟!

ردت قلقة وهي تزدرد لعابها خيفة:

- عذرا، في الواقع أنا لا أفهم شيئا مما تقول .

أومأ برأسه مستنكرا ثم تساءل ببلاهة:

- أنت التي لا تفهمين؟ صدقيني لن تنحدري من ناظري، لكن صارحيني، أي نوع تتعاطين، الكلام الذي أسمعه منك يدل على نوع جديد مفتخر؟!

- عذرا أنا لا أفهم ما تقول حقا.. لكن على العموم آسفة ثانية وأرجو ألا تبلغهم!

قالتها فابتسمت - تلك الابتسامة الساحرة التي تذيب الثلوج وتجلي الحواجز - لأمجد الذي ابتسم هو الآخر تلقائيا حين قالت:

- أنا دهب.

راعاها جيدا وهو يتأمل الهواء الذي يداعب خصلات شعرها الحريرية والتي تتطاير على نصف وجهها وعينيها، اللتين تبرقان تحت أشعة تلك الشمس الساطعة ثم قال مداعبا:

- دهب؟! من إذن يسمى بالألماس والياقوت؟!

ابتسمت فاحمرت وجنتاها خجلا وقد عضت على شفتيها بتلقائية بعد أن ظهر وريد مارق قد قفز في جبينها عِذَارا ثم قالت:

- أشكرك يا..

- أمجد.. اسمي أمجد!

لحظات من السكون المريب وربما بعض من الترقب وهما ينظران بشغف إلى بعضيهما، هما حقا لا يعلمان فحوى تلك النظرات، إلا أنه ورغم اختلافهما كلية قد اتفقا على نظرات الإعجاب تلك!

قاطعت دهب تلك اللحظات الرائقة متسائلة:

- أين تسكن بمساكن سيبتيما، أو أنك من الكهف كما يتضح من ثيابك؟!

- سيبتيما؟!

تساءل بها أمجد وقد اتسعت عيناه فصدم جبينه بيسراه ثم أردف متذكرا:

- سيبتيما؟ المخطوطة!

شردت دهب ذاهلة وقد بدت الصدمة على قسمات وجهها حين فغرت فاها مستنكرة وقد تنامى القلق إلى جنبات وجهها الجميل فلم يزده إلا بهاء حيث تساءلت:

- المخطوطة؟!

***

- هل أغضبتك؟!

سأل أمجد فردت دهب في الحال:

- لا!

- إذن لم أنتِ صامتة كل هذا القدر؟! غير أن وجهك تتجلى عليه آثار الارتباك والقلق! ماذا حدث؟! أضايقكِ حديثي؟!

تساءل أمجد فراعته دهب ولم ترد ثم عاودت النظر إلى الأرض في كسرة ليستطرد الأول:

- لا تريدين الحديث إذن! لا مشكلة في ذلك، ولكن هل يمكنكِ إخباري أين أنا الآن؟! ولماذا ظهر عليكِ الاضطراب والقلق حين ذكرتُ أمامك المخطوطة؟!

تنهدت ثم أجابت بحسرة:

- أنت بوادي الفضيلة.. أنت بحضرة درة الوديان.. سيبتيما.

شحب وجهه فتساءل بلوعة:

- هل خرجت من مصر؟

- مصر؟ عذرا لا أفهمك.

أعاد الكرة سائلا:

- ماذا تكون سيبتيما إذن؟!

أجابت بصبر:

- كما أسلفت، إن سيبتيما هو الوادي السابع وهو الوادي الفاضل، والابن البار لمملكة لاتيوم.

- الوادي الفاضل؟! لاتيوم؟

قالها مستغربا في غير فهم حيث ردت:

- نعم، يا أمجد نحن المفضلون عند الملك.. لا نزاعات لا مشاكل.. لا احتياجات، نحن الأفضل في كل شيء!

تبرم رادّا:

- أنا حقا لا أفهم أي شيء تقولينه هنا إلا أن ما أفهمه أنك جميلة جدا ولا خوف منكِ وكل ما يخرج منكِ تجاهي فهو على الأرجح سيكون مميزا يا دهب!

ابتسمت ثم قالت بخجل:

- أشكرك ثانية يا أمجد.

سكتت لوهلة ثم استأنفت:

- للعلم فإن اسمك مميز يا أمجد، أنت أيضا مميز وجميل جدا.

قالتها فابتسمت بلطف وأطرقت وجهها في خجل فرد متعجبا:

- ماذا؟! ما كل تلك السهولة؟! هل كلكن بمثل ذلك الرخص وهذا اليُسر؟!

ردت متسائلة باستغراب:

- لا أفهمك يا أمجد، ماذا تقصد؟!

نظر إليها بلهفة فقال بود وقد أخذت بقلبه رقتها:

- ماذا؟! هل يمكن أن تناديني به مرة أخرى؟

- ماذا؟!

- اسمي، نادني باسمي مرة أخرى!

- أمجد!

قالت اسمه برقة مغموسة ببعض الخجل غير المصطنع فزفر هواءه مغمضا بسعادة بادية ثم قال بزهو:

- آهٍ على أمجد من بين ثنايا فمك الدقيق!

ابتسمت ثانية ثم أطرقت رأسها مرة أخرى فابتسم هو بدوره ثم تساءل:

- أعلم أنني قد أتعبتك معي، لكن حقا أريد أن أعلم، أين أنا بالتحديد؟!

مطت شفتيها فضمت يديها ثم فركتهما في تلقائية وأمسكت جيدها فمرت بيمناها عليه حيث قالت:

- أنت بوادي سيبتيما يا أمجد، وذلك الوادي كما أسلفت هو الوادي السابع من بين وديان مملكة لاتيوم التسعة، وهو أفضلها وأعلاها قدرا ويكنى أيضا بوادي الفضيلة.

صمت قليلا ثم تحدث متسائلا بجدية:

- أين تقع مملكة لاتيوم هذه؟

تنهدت بلوعة ثم أجابت:

- هذه المملكة هي أبعد مما تخيل عن موطنك يا أمجد، هي آخر نقطة كنت تتوقع أن تطأها قدماك، مملكة لاتيوم هي المملكة المحظورة!

تحدث ببلاهته المعتادة مستفسرا:

- المملكة المحظورة؟! أه "the forbidden kingdom" أعرف هذا الفيلم جيدا.. إنه ممتع!

نفثت هواءها في تؤدة فأضافت:

- لا أفهم ما تقول حقا، لكن يا أمجد مملكة لاتيوم تلك بالفعل محظورة، أي أنه لا يستطيع من هم بخارجها رؤيتها أو زيارتها أو حتى مجرد العلم بها إلا إذا...

لم تكمل كلامها فاستأنف هو:

- المخطوطة!

أجابت مؤيدة:

- نعم، عن طريق المخطوطة!

- لكن أين هي بالتحديد على كرتنا الأرضية؟

أجابت بغموض:

- مملكة لاتيوم هي كرتنا الأرضية هنا، لا نعرف غيرها ولا حتى نعلم مكانها، لأننا ببساطة لم نخرج منها قبلا ولن نخرج منها أبدا ولم يأت أحد هاهنا من خارجها عداك، أنت أول من يأتي من خارج المملكة بعد إبرام معاهدات الحظر.

قالتها فامتقع وجهها ثم قالت وجلة:

- يا رب سلم!

صمتت متذكرة المخطوطة وبندها الخاص بالحفيد الخامس والعشرين، ثم أطرقت وجهها في حيرة فقاطع أمجد صمتها وقد بدا عليه الاهتمام حيث تساءل بقلق:

- وماذا بعد يا دهب؟

ابتسمت معقبة في خجل:

- إن اسمي يخرج جميلا بين شفتيك، أنت جميل يا أمجد، أنت جميل للغاية.

عقد حاجبيه ثم قال باستغراب:

- لم أر مثل هذه السهولة مطلقا، أنتِ وحدك هكذا أم كل بنات سيبتيما؟!

- ماذا تعني يا أمجد؟!

سألها في عصبية:

- هل يوجد بنت سوية تفضي بمثل هذا الحديث إلى شاب لا تعرفه؟

- وما المشكلة في ذلك، لا أرى أي تعارض بالأمر؟

تنحنح قائلا:

- طبعا هناك تعارض.. هناك خطأ.. وخطأ فادح.. لابد أن تكون البداية من الرجل.. الإطراء لابد أن ينبع من الشاب أولا.. لا البنت.. فالبنت مجبرة على خبء مشاعرها وإلا كانت..

لم يكمل حديثه حيث تراءى له أن بقية حديثه سيكون جارحا لكنها على أية حال قد تساءلت باستغراب مستنكرة حديثه:

- ولِمَ ذلك يا أمجد؟! لماذا يتحتم على الرجل أن يبدأ، ولِمَ تُخبأ مشاعر المرأة عنوة برغم اتقادها بالداخل، نار الحب إن استعرت، التقمت كل حلو بالقلب وأججت كل بغيض!

رد بتلقائية:

- لأنها امرأة!

- لم أسألك عن نوعها، أعلم أنها امرأة، سؤالي هو، لماذا عليها أن تكبح مشاعرها، لِمَ لا تقول ببساطة لقد أحببتك إذا أحبَّتْ؟!

رد بعصبية غير مبررة:

- قلت لكِ، لأنها امرأة، وهذا عيب، لابد أن تدخر مشاعرها لمن يستحقها وذلك بعد أن يبادئها هو أولا.. وإلا كان عيبا!

- اشرح لي؟! ما الضير والعيب في ذلك؟! لماذا يخبئ الإنسان مشاعره سواء كان الرجل أو المرأة؟ ذلك ضار جدا بالصحة! إن مداراة الحب لهو السبب الأول في أمراض اعتلال القلب وهو المرض الأعتى هنا بسيبتيما! لماذا تلك المراوغات؟! هل من العيب إن أفصحت عما بداخلي مادام هو بالفعل ما أشعر به؟! سواء كبحته أو أفضيت به فهو في الحالتين بداخلي، فأين العيب في ذلك؟!

- دهب، أنتِ تدفعينني للجنون حقا، لا تجادليني، هكذا هو، البنت لابد أن تكون مؤدبة مهذبة!

سألته بامتعاض معترضة:

- مؤدبة؟ وما علاقة الأدب بأن ترى المرأة ما يسرها فتعترف بذلك دون مراوغة؟!

قالتها فسكنت قليلا ثم أعادت مستفسرة:

- ولماذا المرأة بالذات؟! هل إن عبّر الرجل عما بداخله يصبح هو الآخر غير مهذب؟!

أجاب أمجد بثقة:

- بالطبع لا، وقتئذ يكون متحرشا.

- ماذا؟!

- لا عليكِ.

- إنه عالم قاس ما أتيت منه يا أمجد، موطن موبوء!

- قاس؟! أية قسوة تتحدثين عنها يا دهب؟! تلك مبادئ وقواعد، المرأة كائن رقيق أنثوي، من العار أن تكون هي البادئة في أية علاقة! من الواضح فقط أن هذه المملكة هي المنحلة بعض الشيء!

- منحلة؟! كم هو عقيم منطقكم يا أمجد، لقد تسلل بعض الارتياب الآن إلى قلبي! يا رباه، لقد خسرت الآن بعضا من عملاتي الودية بهذا الارتياب، أنت مدين لي بغداء يا أمجد!

- عملات ودية؟! لا أفهم شيئا مما تقولين ولا أهتم كثيرا في الحقيقة، المهم أنك قد قلت أنني أول من يأتي هنا من خارج المملكة، كيف ذلك؟! ولِم اضطربتِ عند سماعك مني عن المخطوطة؟! ما الأمر المربك بها؟!

طفقت تسرد مجيبة بعد أن زفرت هواءها بقلق:

- مثلما أخبرتك يا أمجد، هذه المملكة قد أُسست من قديم الزمان،، تم حظرها من قِبل أجداد أجدادنا، وقد تم تقسيمها إلى وديان، كل وادي يربط أهله علاقات وعادات واحدة وتوجهات مترابطة، لا يأتي أحد من خارج هذه المملكة لأنها كما أسلفت، محظورة غير مرئية من الأساس!

لكنه وللأسف منذ فترة بعيدة زيّف أحد مسالمي سيبتيما...

قاطعها مستفهما:

- مسالمو سيبتيما؟!

- نعم، أي قاطنيها!

- الشعب تقصدين؟! شعب سيبتيما يسمى هنا مسالما؟! تابعي إذن!

- عندما زيّف هذا المسالم أقواله فبذلك قد خان العهد السيبتيمي الأكبر وتم نبذه ونفيه من الوادي، ولسوء الحظ فقد شق ذلك عليه ووقع هذا في قلبه، ليكتب مخطوطة اختراق حظر المملكة، ووادي سيبتيما بالذات، ثم اندثرت تلك المخطوطة زمانا طويلا، إلا أنه من الواضح أنك قد حصلت عليها بطريقة أو بأخرى!!

تساءل في غير فهم:

- ماذا يعني زيف أقواله وماذا تقصدين بخيانة العهد السيبتيمي الأكبر؟!

ردت ملتاعة:

- ذلك يعني أنه قد قال شيئا مغاير للحقيقة، شيئا لم يحدث حقا، فكانت الحقيقة شيء وقوله شيء آخر!

- يا إلهي؟! هل تقصدين أنه كذب؟! فقط كذب؟! ولأنه كذب فبذلك قد خالف العهد الأكبر واستحق النبذ والنفي؟! أتمزحين معي؟! فقط لأنه كذب؟!

- ماذا يعني كذب يا أمجد؟

- تعني أنه زيف أقواله وغاير الحقيقة؟ لكن إلى أين نُفي هذا المخالف؟!

ردت بحزن عميق:

- النفي يكون خارج المملكة إلى ساحات الجبال، حيث تجده قبائل الميامين فيقضي رحلة ملعونة حتى يموت بقلب معتل!

- يا رباه! هل تقولين أنه خالف العهد وتم نبذه ونفي إلى رحلة ملعونة لا عودة منها، فانتقم هو باختراق حظر المملكة وخطّ تلك المخطوطة وقد قرأتها فجئت إلى هنا!! كل هذا لأنه كذب؟! فقط!! وتقولين أن عالمي هو القاسي؟!

تنهد فتابع ببسمة ساخرة:

- أعلم أوطانا تحيا لتكذب وتكذب لتحيا، تتنفس الكذب كنسيم الفجر العطر، كرتنا الأرضية في الخارج يا دهب تكذب لتجامل، تكذب لتنجو بنفسها، تكذب حبا في الكذب لا أكثر!!

- ماذا؟!

تساءلت بها في اندهاش مما تسمعه فغير أمجد دفة الحوار سائلا:

- لا عليك يا دهب، لكني أريد أن أسألكِ سؤالا محرجا بعض الشيء!

- ماذا تعني بمحرج؟

- يعني ذلك أن هذا السؤال يمكن أن يضايقك.

- وما المشكلة؟! اسأل ما بدا لك وإن ضايقني اعتذر أنك قد سببت لي الضيق وأنا سأعتذر عن الإجابة وسأُعْلِمَك بأنني قد تضايقت!

ارتقى حاجباه في دهشة ثم تساءل:

- بمثل تلك البساطة؟

أجابت بتلقائية:

- بالطبع، ولماذا التعقيد؟

مط شفتيه مستغربا ثم سأل بحرج:

- أين تباع المخدرات في هذا الوادي؟

- ماذا؟

- الحشيش يا دهب.. الحشيش؟!

- لا أفهم حقا أي شيء؟

رد مبتئسا وقد علم أنه الآن في مأزق فلا متعة هنا على الأرجح:

- لا عليكِ يا دهب.. لا عليك.

***

- سمو الأمير!

قالها رجل عظيم الجثة متناسق القوام والقد، هامته العالية تشمخ بهيبته الناطحة، فتضفي على كلامه رونقا خاصا.

أجاب الأمير بخيلاء متعاليا كأنما يتتعتع بالكلام من بين شدقيه قائلا:

- تحدث يا حامي الحمى.

بدأ حامي الحمى كلامه متنحنحا فقال:

- عذرا يا سمو الأمير، لكني أرى...

تفرّس الأمير المعارضة في كلام حامي الحمى فقاطعه بصرامة محتدا:

- أنت ماذا؟

لم يرد حامي الحمى إلا أنه أعلن خضوعه بانحناءة بسيطة فاستأنف الأمير بعصبية صائحا:

- لا أحد هنا يرى غيري، من أنت لترى وتتفحص وتقرر؟!

زاد حامي الحمى في انحناءته فأوحي ذلك بالاحترام والخنوع التام والهيبة الزائدة ثم أضــاف مستكينا:

- مــولاي، أنا لم أقصد شيئا لقد خدمت الحكام والوادي بشكل عام طيلة حياتي، إن مسئولياتي تتضمن أن أرى نبض الوادي من خلال المسالمين بالطرقات والحارات، وأتحرى ردود أفعالهم!

هدأ الأمير من روعه بعض الشيء وقد حاول أن يبدو متـزنا أكثر وإن لم يكن كذلك من الداخل فقال برصانة:

- تكلم يا راسل، لك الإذن مني!

تنهد راسل "حامي الحمى" ثم استهل حديثه بابتسامة مريحة قد اصطنعها ببراعة فقال:

- سمو الأمير، هناك قطاع عريض من مسالمي سيبتيما مستاؤون من تلك القوانين الجديدة التي أقررتها، غير أن الشعب أيضا غير مهيأ للتعامل بتلك القوانين!

ابتسم الأمير بصبر نافد وأشاح بوجهه بعيدا فقال:

- راسل، لقد مللت الحديث في تلك النقطة، قد قلتها من قبل مرارا، لماذا قد أخشى من العقاب وأنا مسالم أروم الخير لسيبتيما!

- الأمر ليس كذلك عظمتك، كل ما بالأمر أننا واد فاضل لا نعرف الخطأ ولا تتقبله عقولنا من الأساس ولا نعرف تلك الجرائم التي ذكرتها سموك ولا عقوباتها، وذلك في حد ذاته خطأ فادح، فهذا يعرّف الناس بالخطأ أكثر ويدخلهم في صراع الفضول والتجربة!

ألقمه الأمير ابتسامة أخرى ثم طفق يدق على متكأ كرسي العرش بيده فأضاف بهدوء:

- راسل أنا أعلم أنك تشغل وظيفة حامي الحمى منذ زمن بعيد، من قبلي ومن قبل حتى الأمير الفائت، وليست عندي أية شكوك في ولائك وإخلاصك!

لكن صدقني هناك فروق كثيرة بين عهد حكمي الحالي والعهود المنصرمة، يوجد ما يخفى عليك ويغيب عنك، هناك مشكلات كثيرة قادمة إلينا ستعرفها فيما بعد، كل في وقته!

راسل، هناك بيت شعر يقول:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقّيه

ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه

أحنى راسل ظهره تبجيلا ثم أطرق رأسه عن غير اقتناع بما آلت إليه هذه المحادثة فاستأذن منصرفا، تاركا الأمير خلفه وقد امتعضت ملامحه وقسمات وجهه، لهذا الحوار الذي أثبت بالفعل أن القادم هو الأصعب وأن حاشيته ستكون أول معارضيه!

ذلك هو عيب المدن الفاضلة، لن تجد من يبرر لك سوء عملك طمعا في منصب أو مال أو حتى حرجا من المعارضة!

***

لا يعرف أمجد ما الذي ذكره بأبيه الآن، تذكر كل شيء.. آلامه، توسلاته، عقوقه تجاهه، تذكره حين فارقت روحه الجسد وهو ساجد، ثم انتخب أمجد لحظة في غير موضعها، ليسرح ويشرد بعيدا في نصائح والده التي كان يصبها دوما في أذنيه صبا في حين أنه لم يلق لها بالا في يوم، أيضا تلك العظات الذي كان لا ينفك أن يفضي بها لغلمان الحارة فكما كان يقول:

صحح مفاهيمك!

اخلع ثوب البطولة، لست أنت المميز دائما، وبالتأكيد لست البطل، لن يفشل الجميع لتنجح أنت!!

جميعنا يفكر على هذا النحو، الرصاصة دائما ستخطئني لأنني لن أموت بتلك السهولة، فمن ستصيب إذن؟!

لن أموت الآن.. ربما ملك الموت كان يتخبط ضحكا الآن وهو قادم ليأخذ روحك!

الدنيا أكثر واقعية ومللا مما قد تتخيل!

لا توجد نهاية سعيدة لقصة أحدهم، فالنهاية السعيدة هي مجرد بداية لقصة بائسة لم تبدأ بعد!

لست أنت محور الكون، لن يهتم العالم لحزنك أو لفرحك، لن تجد من يجفف دمعك عند البكاء ابتغاء مرضاتك إلا إن كان ذا حاجة منك!

لا تؤمن فقط بما تراه.. ولا يزداد انبهارك ببريق البدايات..فالشيء لن ينتهي إلا بعد أن يبدأ!

الناس في الطرقات حين تقابلك تغدوا دون أن تتعلق عيونهم بك! بل ربما نصفهم أو يزيد ممن تلاقت عيونهم بعينيك، لم يلحظوك أصلا!

يكرهك البعض لتفرّدك، لسطوعك وتوهجك... لتميزك، لا لعيب فيك أو خلة، صدقا أقولها.. تكرهك الأغلبية لمميزاتك لا لعيوبك وسيظهر هؤلاء بثوب الصديق، فاحذرهم!!

لا زيادة بك عن غيرك ولا نقص بغيرك عنك، العالم لا يراقبك، غب كثيرا فلن يفتقدك أحدهم!

لن يهتم لغيابك إلا ثلاثا!

مديرك بالعمل أو من ينتظر قضاء دين له عليك أو من ينتظرك خارج الخلاء حين اشتدت به الحسرة!

لا تكن عميقا، فرائحة المطر في حينها تزكم، وطعم القهوة إن لم يحتضن السكر مرّ، لا علاقة لفيروز بالثقافة، كم من جملة عابرة ذبحت قلوب أبرياء، لا تقل ضرير العين أَعْوَد من ضرير القلب، إن كنت بالحق ترى ذلك فمرحبا بك لتجرب الظلمة الدائمة والسواد القاتم، ومن قال أنه لا يموت أحد من جوع؟! إذن فلتذهب ولتقل ذلك لأسر ضحايا المجاعات!

لا تحتفل علنا بأمك وأبيك، فهناك من يتضورون عشقا لذويهم، كن كريما معطافا في أخلاقك، فالرسول قد بعث ليتمها قبل كل شيء!

لا تغادر فقط لتختبر تأثير أُفولك فستُصْدَم بالبديل يأخذ ذات مكانتك بل يُزِيدونه درجات من حيث ضنّوا هم عليك بها، لأنه ارتضى بحقيقة أنه مجرد ملء فراغ، وقد تعايش معها.. في حين لم ترتض أنت... تلك هي الحقيقة صدقني!!

لا تجزع.. ما أنت إلا ملء فراغ.. مثلك مثل أغنية جديدة.. أو لعبة ڤيديو.. أو حتى أكلة لذيذة.. صدقني هم يتطلعون إلى تلك الأكلة أكثر من تطلعهم إليك.. في حين تعدهم أنت كل حياتك!!

في حين مللت وأسقطت معولك كانت ستكون تلك آخر ضربة قبل أن يسقط الحائط الذي يفصلك عن حلمك!

قدم لنفسك الورود.. انتظر الخير منك فقط.. اعتد الهجر دائما.. اعتد الخذلان والفقد.. تعوّد على السيئ في كل شيء.. الأصل في الأمور السوء.. إلى أن يثبت الخير.. فقط تعوّد ألا تعتاد!!

لا تحذر صديقك ألف مرة بل احذر صديقك وعدوك مرة واحذر نفسك ألف مرة، فنفسك قادرة على إسقاطك أكثر من ألف صديق وعدو!

ولا تبالغ في إرضاء من تحب على حساب كرامتك أو راحتك فبمجرد الاختلاف أو انتفاء المصلحة ستصبح سببا في تعاسته من وجهة نظره وبذلك تكون قد خسرت حبه وكبرياءك كذلك، لتصير الخسارة فادحة، خسرته وخسرت نفسك!!

لن يكون الصبر مجديا في معظم الأوقات بل لربما يتطلب الأمر أحيانا سرعة تعديل الاتجاه فالبدء في التغيير بدلا من الصبر الملول!

إن أحبوك سيرفضون بلطف أما إن هابوك سيوافقون على مضض، أيهما تختار؟!

لن يحفظ العيش سوى كيس العيش القابع أعلى الكومود المهمل هنا أو هناك!

والملح كذلك لن يحفظه سوى مرطبان أمك، وكلاهما يمكن حفظهما أيضا بالثلاجة أو بقطعة قماش بالية، معظم الأشياء تقريبا يمكنها حفظ العيش والملح، أما صاحبك فسيأكلهما عمدا وربما يأكلك معهما قطعة قطعة!

فلا تثق، إن استطعت غسل اللبن قبل تجرعه فافعل ذلك، لا تثق، حقا لا تثق!

في الغالب لن تكتسب إلا صديقا واحدا بحياتك!

إن ألفيته، فابتعد عن كل من أراد القرب منك، لأنهم سيهجرون حتما!

لن يتهافتوا على صداقتك إلا إن كانت براتب مجزٍ.. وقتها فقط لن يجتنبك غير أولاد الأصول!

أقدار الناس ستحيق بك أيضا، لن تتفاداها لمهارتك، هناك من كانوا يزيدون عنك في كل شيء وانتـزعتهم خطاطيف القدر!

لا تنظر إلى الطائرة التي حلقت فوقك بحسرة، فالبعض من مستقليها قد طاروا إلى حتفهم وآخرون قد تركوا خلفهم فلذات أكباد مساقين إلى غربة مريرة.

لا يلجّنّ بك الشوق للماضي فهو جميل لأنه مَر، وانتظر حاضرك الذي تبغضه الآن حين يمسي ماضيا، ستهفو إليه وكأن چل أملك أن تحياه مرة أخرى!

العالم لا يحترم موطنك ويتغنى به لإنجابه عددا من العباقرة!

هو يتغنى فقط بالقوي، فالعالم لا يسبح بحمد مصر لأنها لفظت أحمد زويل ومجدي يعقوب ونجيب محفوظ وطه حسين ومصطفى مشرفة ومحمد صلاح، كل هؤلاء ليسوا إنجازا مصريا، إنجازاتهم شخصية بحتة، اجتهدوا فحصدوا نتائج ثمارهم وحدهم، بل ربما لم يسأل العالم أصلا عن جنسيتهم!

تُبْ الآن، لن تتوب غدا بعد ما تفعل كل حرام يثلج صدرك الآثم!

صدقني لن تفعل كل الموبقات ثم تموت هكذا وأنت ساجد بمنتهى البساطة لأنك مختلف عن الجميع كما تتخيل أنت، فالله لا يحبك دون البقية!

لا تنتظر موتك لترى كيف سينعقون بعدك كغرابيب سود!

سيأكلون بعد مرور ساعتين على الأكثر، سينتظر أحدهم الأجرأ كي يفتح التلفاز فيمصمص شفتيه قائلا: رحمك الله، لكن الحزن في القلب أما العين والمعدة فلا تحزنان!

وكأنه يريح ضميره بتلك الكلمات الضئيلة المزيفة، سيشكو كل منهم همه إلى من يحتضنه، أما أنت فقد احتضنك التراب وتلفح بك الدود!!

لن ترى عبراتهم، صدقني لن تراها إلا تباهيا!

قد أَفَلْتْ وطُوِيَت صفحتك، وصدقني لا أريد أن أصدمك، إلا أنه من الإنصاف أن أبلغك أن العالم لن يتوقف حينها حدادا عليك، فاشغل نفسك بما أنت بصدده، فالقادم أسوأ!!

لن تكون أكثر من مجرد ورقة صفراء ذبلت فسقطت عن غصن جاف في خريف مكفهر!

أفاق أمجد بعد تردد تلك الأفكار برأسه، لم تكن بنات أفكاره بل نصائح قد أسداها له والده أياما، لكنه لم يستمع، طالما لم يستمع هذا العاق!

ثم ما لبث أن سبح في تخيلاته مرة أخرى كيف كان يفكر طوال عمره في مكان لم يطأه أحد من قبله!

كيف كان يحلم بتلك الجزيرة المنعزلة! يفكر كيف أن خياله لاقى نصيبا من أرض الواقع!

ربما وطأ المكان غيره إلا أنه يبقى الوحيد من غير الأهل الأصليين، ربما استُبدلت الجزيرة بـــ وادي، لكن يظـل هذا الوادي قطعة من الجنة!

من الأمور الصحية أن تكون أحلامنا خيالية بقدر يمكّننا من المضي قدما وسط هذا الكم الهائل من الضغوط، ولكن لابد أيضا من سقف واقعي لتلك الخيالات لينتشلنا من غياهب الأحلام المزيفة!!

وقف المنادي يصدح قائلا وسط تجمهر الناس:

- يا سادة أهل سيبتيما، قرار من الأمير حاكم الوادي المجيد، احموا واديكم، من يشتبه في أي ضعيف خارج الكهف فعليه تسليمه إلى البلاط الأميري في الحال، وكل من يسلم أو يسهم في تسليم شخص غريب ليس من أهل الوادي فله مكافأة عظيمة.

انتهى المنادي هاهنا ثم طفق يطوف بجنبات الوادي السحيقة مبلغا أهل الوادي بالفرمان الصادر من الأمير الجديد!

***

دخل راسل إلى حرم البلاط الأميري الآمن منحنيا إلا أنه أيضا تكسوه الهيبة التي اكتسبها من ملامحه الدقيقة وقسماته الناطقة ولا يخفي ذلك مشيته المترددة والأمير موليا إياه ظهره منتصبا يطالع أمرا ما إلا أنه فاجأه حين قال دون أن يدير وجهه إليه:

- يمكنني سماع صوت خطواتك المترددة يا راسل! أتوقع أيضا السؤال الذي يؤرقك وتريد أن تسأله!

رد راسل حامي الحمى وقد جاهد أن يكون متماسكا:

- مولاي، أنا أريد فقط أن أطمئن!

- أظنني أعرف السؤال جيدا كما أسلفت لكنني أريد أن أسمعه منك.

قالها الأمير بابتسامة صفراء فاقع لونها تحرّ الناظرين فسأل راسل:

- لماذا الفرمان؟! ولِمَ في هذا الوقت بالتحديد؟! وعندي سؤال آخر، أرجو ألا تفهمه كما لا أريد طرحه!

- سل يا راسل، سل بكل ما يعتمره قلبك ولا تتهيب!

- لماذا لم يمر الفرمان بي أولا وقبل خروجه للمسالمين كما يجري العرف دائما يا مولاي؟!

ارتكن برهة إلى الصمت يزدرد فيها لعابه ويحل وثاق شجاعته مستطردا:

- ألم تعد تثق بي يا مولاي؟! أتتشكك بولائي سمو الأمير؟!

أدار الأمير ظهره بثقل وكأنه يزيد من تأجج نار قلب راسل والتي يعلم بشأنها مؤكّدا ثم سار ببطء حتى وصل إليه فابتسم رافعا كفه ليستقبله كتف راسل ثم قال مطمئنا:

- راسل، أنت رجلي لقد عاصرت في حياتي أناسا كثيرين أوفياء، لكن بمثل وفائك أنت؟! لا يا حامي الحمى لم أقابل!

قالها ثم قبض بقوة على كتفه واستأنف:

- أنت يا راسل أوفى شخص قابلته في حياتي البائسة، أنا قطعا أثق بك كل الثقة يا حامي الحمى أنا أستأمنك على حياتي يا راسل، فعن أي ثقة بعدها تتحدث؟!

- مولاي، اسمح لي، الأمانة تقابلها الخيانة والغدر، وتلك الصفات ليست من خصال وادي سيبتيما وليس أنا فقط بل المسالمين جميعا!

مولاي، أنت آمن على حياتك بي أو من دوني، أنا مجرد مذكّر ومساعد لجلالتك!

ابتسم ثم قال متوددا:

- أنا أزداد اطمئنانا ودعة وأنت بجانبي يا راسل.

- أنا بجانبك دوما يا سمو الأمير ولكن لِمَ..

سكت راسل فابتسم الأمير مرة أخرى مستطردا حديث راسل المبتور:

- لكن لماذا أرسلت المنادي ليصدح بهذا الفرمان قبل أن أعرضه عليك، أليس هذا هو سؤالك المتكرر؟!

أجاب راسل مؤيدا:

- نعم يا مولاي، هو كذلك!

- راسل أنا أنظر للأمام، لا تحت قدميّ! غدا ستتأكد من صحة حديثي!

الوادي لم يعد آمنا محظورا كسابق عهده، أما بالنسبة لسبب عدم عرضي الفرمان عليك أولا فأنت حماك الله يا حامي الحمى مشغول وقد تقرح كاهلك بمسئوليات كثيرة أسندتها إليك، لذلك أنا ولراحتك قد حررتك من بعض أمورك وواجباتك رفقا بك وبمنصبك!

صمت الأمير فتفرسه راسل بذكائه الحاد ثم سأله في مهابة:

- تحررني أم تعفيني يا مولاي؟!

ضحك الأمير بشدة ثم قال:

- راسل، أحيانا يكون الذكاء نقمة على صاحبه.

قالها ثم نضبت الابتسامة فجأة عن وجهه واستكمل بجدية:

- راسل، البعض يعتزل ليس لعدم القدرة، يعتزل فقط حتى يسمع توسلات الغير بأن يستمر!

يرحل لكي يستمتع بابتهالات البقاء، ينتبذ لكيلا يدمر مسيرته البيضاء بنكتة سوداء تعكر صفوها!

يجتنب فقط لأنه لا يستطيع الاستمرار على نفس وتيرة النجاح، يخشى أن يجافي جنبه مقعد التفرد الوثير، يغرب هو قبل أن يأفل نجمه إلى الأبد!

أرجو أن تتمعن في كلماتي تلك لتستخلص ما أود إيصاله إليك.

أدار الأمير ظهره مرة أخرى لراسل مندمجا فيما كان يفعله ففهم حامي الحمى ثم تقهقر منحنيا حتى ولى الأمير ظهره وانصرف.

***

استفاق أمجد من تخيلاته وتذكره لوالده ونصائحه على صوتها الملائكي ينادي برقة مفعمة بالحيوية:

- أمجد، أمجد.

أجابها ملاطفا:

- نعم يا أجمل وأرق من صدح باسمي؟

اختلجت مشاعرها ما بين الخجل والفرح فقالت:

- أناديك منذ فترة، أين شردت؟

- لا أعلم، فقد تذكرت أبي فجأة وبعضا من كلماته ونصائحه.

- أبوك هذا قد توفاه الله قريبا، أليس كذلك؟

رد مستغربا:

- نعم بالفعل ولكن كيف عرفتِ؟

أشارت إلى الصخرة التي يجلس عليها ثم قالت:

- هذا بسبب صخرة الوفاء التي تجلس عليها يا أمجد.

تساءل في بله:

- صخرة ماذا؟

- صخرة الوفاء يا أمجد، هذه الصخرة تذكّر من يجلس عليها بأعز من رحلوا وتركوه.

اكتفى بالنظر إلى وجهها وتفاصيله العذبة، كيف لها أن تكون هكذا؟!

كيف لبشر أن يتعدى حرم الجمال الآمن على مثل هذا النحو؟!

كيف لإنسان أن يحمل مثل هذا الوجه، إنه لم ير ملاكا قط ليشبهها به إلا أنه متأكد أنه إن رأى الملاك فهي حتما أجمل!

لم ير الحور العين مطلقا ولم يحص عددهم إلا أنه متأكد أنهن تنقصهن واحدة الآن، إنها حوراء مارقة!

هي جميلة كوجه بدر ثائر بين السحاب الأسود ينيره.

بسيطة كجندول ينساب في يم بلا أمواج، صاخبة كمنتصف النهار في القاهرة!

دافئة كحضن أمي بعد غياب قد استطال، مُطَمْئنَة كساعد أخٍ يتلقف رأس أخته حين نهرها والدها فبكت حيث وطأ جبينها صدره.

مبهجة كطفل ممتلئ كلثومه قد اشرأب عن صدر أمه ليبتسم إليك في لحظة لم تتخيل أن تضحك بعدها أبدا!

هي اليسر من بعد عسر، هي الصبر الجميل، هي الحوراء المستخلفة في الأرض، هي السبع السمان حين أبينَ أن يأكلهنّ العجاف!

إنها من ذلك النوع البشري الذي إذا رأيتها انفرج ثغرك وتهللت أساريرك وانتصب حاجباك تبجيلا لرونق قسماتها مبعدا بين دفتي فمك دون حول منك ولا طَول!

- أمجد!

أفاق مرة أخرى من شروده على صوتها المذعور فرد منتبها:

- ماذا هناك يا دهب؟!

- استمع إلى ذلك يا أمجد!

سكتت بعد أن قالتها فأصاخ أمجد السمع حيث تنامى إلى مسامعه صوت المنادي يجهر قائلا:

- يا سادة أهل سيبتيما، قرار من الأمير حاكم الوادي المجيد، احموا واديكم، من يشتبه في أي غريب فعليه تسليمه إلى البلاط الأميري في الحال، وكل من يسلم أو يسهم في تسليم شخص ضعيف ليس من أهل الوادي فله مكافأة عظيمة من الأمير.

أرهف السمع مرة أخرى ثم انتفض قائلا:

- ماذا يعني ذلك؟ هل أبلغ أحدهم عن وجودي هنا؟!

حاولت طمأنته قائلة برفق:

- لا تخف يا أمجد، نحن شعب مسالم، لا نعرف الأذى حتى وإن توصلوا إليك ستكون تقصيرتك تستوجب التوبيخ الشديد فقط يا حبيبي!

ارتقى حاجباه دهشة ثم تساءل:

- حبيبك؟! لا أعي كيف لك أن تكوني بمثل هذه السهولة حقا! لِمَ أنتِ متاحة هكذا؟!

مطت شفتيها ثم قالت:

- لا أفهمك يا أمجد.

رد بعصبية ناهرا:

- ما الذي لا تفهمينه بالتحديد يا دهب؟! تقابلين أحدهم لأول مرة بل هو غريب عن بني جلدتك وموطنك فتنعتينه بحبيبك؟! أيوجد رُخْص أعتى من ذلك؟!

- وما المشكلة؟! نحن هنا في سيبتيما نحب بعضنا ونحب كل من نقابله، كلمة أحبك هنا نقولها للجميع، لأننا بالفعل نحب الجميع، ونحب كل شيء أو شخص خلقه الله، الله جميل لا يخلق إلا جميلا، ثم أنني أردت أن أُطمئنك لأنني وجدتك مرتابا!

نظر إليها بدهشة ثم قال:

- يا ليت الدنيا وأمورنا بمثل هذه السهولة يا دهب، من نحبهم فقط نخبرهم بحبنا ومن نكرههم نخبرهم بذلك أيضا ولا نضطر لتكييل الابتسامة في وجوههم زيفا وتجميلا! يا ليتها سهلة هكذا!

راعته باندهاش ثم تساءلت مستنكرة:

- وهل ذلك جائز عندكم!! هل يجوز أن تتصنع الود والحب؟! هل يمكن أن تكره أحدهم ثم تخبره أنك تحبه وتبتسم في وجهه ابتسام الأحبة؟!

ابتسم أمجد ثم سكت هنيهة فقال:

- دهب، إننا في أوطاننا لا نفعل شيئا أكثر من تزييف مشاعرنا وكبحها لدرجة أننا من فرط الخذلان والمجاملة يمر علينا اليوم الذي نجد فيه أنفسنا غير قادرين على إخراج أيادينا من جيوبنا لنسلم على أقرب ما لنا، نصل حد أن نبكي وحدنا أحيانا لمجرد أن مشروبنا ينقصه القليل من السكر، نشعر أحيانا أن مجرد البسمة في وجه من نقابلهم لهي معضلة في حد ذاتها!

امتعض وجهها ثم سألت بتلقائية:

- ولماذا لا تخبرهم أن يتعاملوا بطبيعتهم يا أمجد؟!

ابتسم لتلقائيتها هذه ثم أجاب متهكما:

- يا ليت جميعهم بمثل بساطتك تلك يا دهب!

أجابت دهب ببراءة الكون:

- الناس طيبون وبسيطون لأقصى درجة يا أمجد!

- من الممكن أنهم كذلك هنا فقط يا دهب، في وادي الفضيلة، أما عندنا! فالأخ إن واتته الفرصة لقتل أخيه دون أن يُسأل جنائيا لفعلها، ومن يخبر الناس بذلك يا دهب؟! أنا! فاقد الشيء لا يعطه يا دهب!

ابتسمت ثم أضافت ناكرة:

- أحيانا يا أمجد يكون فاقد الشيء هو أكثر من يعطيه، الفقد عادة ما يكون أول طرق العطاء!

- وما العمل الآن يا دهب؟

- لا أعلم يا أمجد، ولا أعي لماذا قد بدأ القلق يتسرب داخلي في حين أنني أعلم مسالمي سيبتيما جيدا، إنهم طيبون لأقصى حد ممكن، لكن الأمير الجديد قد نجح في إدخال الريبة بداخلهم بعض الشيء وهذا المؤشر غير جيد بالمرة!

تحدث نائحا بسخرية:

- الأمير الجديد؟ حتى يوم أن أنتقل إلى بُعْد آخر ووطن ثان، يكون ذلك في فترة انتقالية؟! جيلنا هذا تتتبعه الثورة أينما حطّ!

- ماذا؟

- لا عليك، المهم.. ذلك وطنك وأنتِ أدرى بشعابه وشعبه، ماذا أفعل لكيلا يتم تسليمي إلى أن أجد طريقة أعود بها إلى وطني!

فركت جبينها ثم قالت:

- بمجرد أن تمشي بين المسالمين وتتكلم مع أحدهم سيعرفونك مباشرة، الحل الوحيد أن تتوارى عن الأنظار إلى أن نجد طريقة وحلا لتلك المعضلة!

تساءل أمجد مندهشا في غير تصديق:

- ستتسترين علي؟!

- نعم يا أمجد.

نظر إليها مليا ثم تحدث بانبهار:

- ستفعلين حقا؟! بتلك البساطة؟ ستواريننني عن أعين أبناء موطنك؟!

- نعم يا أمجد، أنت إنسان جميل، ولا خوف منك على وادينا الفاضل، أنا حقا أخشى ما يمكن للأمير الجديد عمله! وأنا أيضا متأكدة أنه وأيًا كان الدافع وراء قراءتك للمخطوطة فهو دافع نبيل بحق!

تحدث براحة قائلا:

- أنتِ طيبة بالفعل يا دهب، طيبة جدا، إلا أن تلك الطيبة لا تجدي في زماننا هذا، على الأقل في زماني ووطني أنا!

أجابت دهب مبتسمة حيث ناهضته قائلة:

- أمجد، طيبة القلب هي الكنز الحقيقي الذي لا يفنى، طوبى للسمحين!

سكنت قليلا ثم ما لبثت أن عاودت حديثها مستطردة بحماس:

- أتدري من هو الصحابي الجليل الأعلى مكانة عند الله في السماء والأقرب إلى قلب رسول الله؟!

مط أمجد شفتيه مجيبا بتردد:

- أعتقد أنه أبو بكر الصديق؟!

أجابت مؤكدة بذات الابتسامة المريحة:

- بالفعل هو كذلك، أتدري لماذا؟!

هز أمجد كتفيه سلبا فتابعت دهب مسبرة:

- أبو يكر لم يُعذَّب كبلال ابن رباح إلا أنه أعلى مكانة منه، لم يذق الشهادة كابن الخطاب الذي دعا الرسول يوما بأن يعز الله به الإسلام، لكنه ومع ذلك أعلى مكانة منه، لم يصرع فرسانا بمقدار ما فعل خالد بن الوليد غير أنه أعلى مكانة منه، لم يتجرع طعم مُرِ الفقر كأبي ذر، وهو أعلى مكانة منه، لم يفقد بصره مثل عبد الله بن أم مكتوب ولكنه بالفعل أعلى مكانة منه!!

رضي الله عنهم جميعا، لكل منهم مآثر لا تُحصى، إلا أنه يظل أبو بكر النجم الساطع والخيل الجامح لا لاحق له ولا مدرك، أفتدري لِمَ أبو بكر هو الأعلى مكانة؟!

سكنت قليلا تبتسم لأمجد الذي يستمع بانبهار فتابعت:

- لأنه الأطيب قلبا، الأشد إيمانا، والأكثر لينًا، إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم، لا تبتئس يوما لطيبة قلبك، لا تغتم أبدا لذلك، صدقني سيأتي ذلك اليوم الذي تحمد الله فيه ألف مرة لأنه اختارك دون الناس كلها واصطفاك بطيبة القلب!

شرد أمجد كثيرا، وتنهد براحة، هو حقا لا يضاهي تلك السكينة التي حلت بقلبه فأغمض عينيه يستشعر تلك المعاني الجميلة ثم امتقع وجهه فجأة فسأل دهب مترددا بعض الشيء:

- دهب، هل لي بسؤال؟!

- بالطبع يا أمجد، لك ذلك.

تنحنح ثم سأل:

- بحسب ما فهمت من المخطوطة فإن هذا الوادي بل المملكة ككل معزولة منذ زمان سحيق، فكيف دخلت الديانات إلى هنا؟! فأنا أراكِ ومع انعزالك، تعرفين عن الدين ما لا يعلمه المتضلعون في زماننا!

ابتسمت دهب ثم أجابت:

- عساسو الدين!

تساءل باندهاش:

- ماذا؟!

- العسّاسون يا أمجد، عساسو الدين، يخرجون من سيبتيما ليهيموا في الأرض، منذ قديم الأزل حين تفطن المسالمون بعد تدبر وتأمل إلى أن هذا الكون لم يخلق عبثا، وأنه لابد له من مدبر وخالق، خرج العساسون ليبحثوا عن خالقنا إلى أن أخذوا الدين عن كل الأنبياء والرسل، انتهاء بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين!

- وهل بذلك انتهوا؟! أقصد هل اندثر العساسون أولئك بختام الرسل؟!

ابتسمت مجيبة بشغف:

- لا، لم يندثروا بل خرجوا إلى الأرض، انتشروا بكل بقاعها، يدعون إلى الله

بطريقتهم، أمجد.. نحن نعلم ما آلت إليه الدنيا بالخارج من ظلم وظلمات، لذلك أرسلنا العساسين ليرسوا القيم ويغرسوا في بوار أراضيكم ولو نبتة صالحة يضفون ولو قنديلا من قبس ضئيل، في ظل تلك العتمة الحانقة، ربما قابلتهم في وطنك أو لم تقابلهم.. لا يهم، لكن اعلم أن كل خير مازال في زمانكم هو بسببنا، بسبب العساسين، بسبب سيبتيما، العساس ربما يكون أقرب إليكم من أنفسكم، ربما تجده يتمشى بجوارك أو يساعدك حين تسقط أرضا ثم يوليك الدبر لا ينتظر منك أن تعرفه حتى، لا يريد منك جزاء أو شكورا، صدقني أنتم لا تزالون بخير بسببهم.. الخير في أمتي إلى يوم القيامة.. هم الخير!

سكت أمجد مليا يعيد تلك الكلمات بذهنه المشوش حتى وجد أنه يبتسم بارتياح ثم سرعان ما سأل متذكرا:

- ولكن لم تخبريني، أين سأختبئ؟!

أطرقت في حيرة تحك جبينها وتحرك شعرها المنسدل الفاحم بخفة ثم قالت بانتصار ورقة:

- كهف الضعاف.

- الضعاف؟!

- نعم، لنذهب ولا تحدّث أي شخص نقابله، دع ذلك الأمر لي، اتفقنا؟!

ابتسم ناظرا في عينيها مباشرة فابتسمت دهب بدورها ثم أطرقت رأسها في خجل حين رد مجيبا:

- اتفقنا.

***

- عمِّي، تعلم أن أكثر أحلامي أو ربما كلها أن أتزين بدهب.

- أعلم يا جاسر، أعلم يا بني، ولكني لا أعرف أين المشكلة في الأمر!

أجاب جاسر بلوعة:

- المشكلة أن دهب لا تريد، لم أعمر قلب دهب يا عمي، ماذا أفعل لكي أكون عامرها، لقد تعبت من الأمر، ماذا أفعل!

- جميعنا نعرف أنك من خيرة شباب الوادي يا بني، وجميعهن يتمنين أن يعمرن قلبك إلا أن تلك هي فطرة الله التي خلقنا عليها، لا دخل لنا بالقلوب، هي من تسيير الله، لو اجتمع الإنس والجن على إدخال شخص إلى قلب يجحده فلن يقدروا!

- أعي ذلك جيدا، كنت أناجيك فقط يا عمي، فالأمر يشق علي بحق، ستظل دهب عامرتي سواء أحبت ذلك أم لا وسواء عمرت قلبها أو جحدتني، ستظل هي من عمرت قلبي وحيدة، ادع لي يا عمِّي!

- رزقها الله بحبك يا جاسر، رزقها الله بعمارتك يا ولدي!

***

كانت دهب تتمشى معه في طريقهما إلى كهف الضعاف حين قابلا مسالمي سيبتيما بجميع طوائفهم فقلب أمجد ناظريه فيهم متعجبا ثم تساءل باستغراب:

- ما هذا الرجل يا دهب، هل يقوم بأداء إعلانا لمعجون أسنان؟! لماذا يقف في المنتصف هكذا مبتسما للجميع؟!

أجابت مستعلمة:

- أي رجل، ما تقصد يا أمجد؟!

أشار ناحيته بيمناه قائلا:

- هذا الذي يقف في المنتصف هناك ويلوح مبتسما إلى كل من يمر به، من الواضح أنه أبله مجذوب!

- ماذا؟! ماذا تعني بأبله مجذوب؟!

نفث هواءه في ضيق ثم أجاب:

- وكأنني أجالس ابن اختي الصغير، كيف لكِ ألا تعلمين معنى كلمات بسيطة كتلك؟! أبله ومجذوب هما مجرد سُبَّتَين!

فغرت فاها استنكارا ثم تساءلت وهي تنهره:

- سباب يا أمجد؟ تسب هنا؟! في أراضي سيبتيما الطاهرة الفاضلة؟!

تساءل مبهما ببعض السخرية:

- ماذا قلت؟! آسف جدا، حقا آسف، فتلك الكلمات عندنا تستخدم للمدح أحيانا!

ربتت على كتفه ثم قالت حانية:

- يا حبيبي، السباب هنا تقصيرة يستوجب التوبيخ من الدرجة الأولى!

- حبيبك مرة أخرى؟! لنا الله.. في وطننا لكي تسمع تلك الكلمة ستدفع مليوني جنيه على أقل تقدير! ثم بعد الزواج ستكون ذات الكلمة هي للردح لا العاطفة!

صمت مليا ثم استأنف سائلا:

- لكن ما معنى تقصيرات وتوبيخ يا دهب؟!

- الأخطاء التي نفعلها يا أمجد هنا تسمى تقصيرات وتكفيرها يكون بالتوبيخ أو منع الود عنك!

أومأ أمجد برأسه متفهما ثم قال:

- نعم.. نعم، عندكم الجرائم هي التقصيرات والعقاب هو التوبيخ؟

- جرائم وعقاب؟

قالتها دهب وهي تتفرس أمجد فاستطرد الأخير:

- نعم يا دهب أخطاؤنا تسمى جرائم وتكفيرها بالعقوبات كالسجن وأحيانا القتل!

استنكرت دهب ذلك ثم قالت مشمئزة:

- إن ذلك لا يحدث حتى في سفلة الوديان وأكثرها فجرا، يا لكم من وطن قاس يا أمجد!

- ليس وطننا فقط يا دهب، العالم بأسره مثل ذلك، أنتم فقط من تعيشون في قمقم مغلق على أنفسكم!

شردت دهب ثم قالت:

- غريب جدا!

- ما الغريب في الأمر؟!

- عقوبات وجرائم وسجن؟! ذلك ما أراد الأمير الجديد العمل به؟!

قالتها وقد شردت قليلا فأفاقت على صوت أمجد يتساءل وهو يشير:

- لكني لم أعرف إلى الآن من هذا الرجل المبتسم طيلة الوقت؟!

تنحنحت دهب ثم أجابت:

- هذا الرجل هو موزع البهجة يا أمجد!

- موزع البهجة؟! من يكون هذا، وماذا يصنع بالضبط؟!

ردت ساردة:

- تلك وظيفة بسيبتيما يا أمجد، يقف موزعو البهجة بكل شوارع سيبتيما لكي يبتسموا للمسالمين في الشوارع، لربما هناك معتل بقلبه يمشي فتقع تلك الابتسامة في قلبه فيفرح!

ابتسم أمجد لتلك الفكرة.. دار بعقله أن ما أحوجنا هنا إلى وظيفة كتلك، فمن منا لا يحمل في قلبه كدرا يكفي سيبتيما تلك كلها ومع ذلك لا نرى إلا كل قبيح قميء!!

ما أحوجنا لأخلاق سيبتيما!!

سكت هنيهة ثم تساءل آنفا:

- هل مازال أمامنا الكثير على هذا الكهف؟!

- لا يا أمجد لقد اقتربنا.

***

- متى سنداهم سيبتيما؟

سكن قليلا يفرك ذقنه ثم أجاب:

- ليس الآن، سننتظر قليلا إلى أن يحدث ما أنتظره، ولن يكون أمامهم غير الرضوخ والانكسار، وقتها لن يبقى هناك سيبتيما لكي يعايروا به واديا آخر!

- وما الذي تنتظر حدوثه ذاك؟

نظر إليه مستنكرا ثم أجاب بعصبية:

- ألم تكن معنا وتحضر جميع قراراتنا يا أحمق؟!

- نعم معكم دائما ولكن لم أفهم أمرا، لِمَ الاثنان؟! ولما ننتظرهما؟! واحد فقط كان كفيلا بإنهاء خططنا! لماذا التلكؤ؟!

- كم أنك أحمق بالفعل.. لابد لأي تغيير من عنصرين يا غبي، عنصر يظهر عليه القوة والسطوة يقسو بمعوله هادما، ثم الآخر يحنو إلى أن يتمكن، وعند ذلك سيترجاه الناس لإنقاذهم.

- ولكن متى؟! لم أعد أحتمل!

ابتسم رافعا رأسه في زهو ثم قال:

- قريبا.. صدقني قريبا جدا.

***

توقفت فجأة فابتسمت ثم أشارت بيمناها ليتوقف أمجد بدوره حيث قالت بسعادة بادية على محياها:

- كهف الضعاف.

رد أمجد بانبهار من قد سُلب لبه:

- هل هذا هو كهف الضعاف؟!

- نعم يا أمجد.

احتضنت يد أمجد كفها تلقائيا ودون إرادة منه، فخللت أصابعه أصابعها ثم خطا خطوتين وتوقف حين رأى كهف الضعاف أمامه!!

انبهر بهذا البناء فقد توقعه كهفا قد اتخذته الخفافيش مأوى، ومغطاة أسقفه بالقش والأتربة.. توقعه مقفرا متروكا غير مطروق، إلا أنه وجد بناء قد شُيّد بالأحجار اللامعة المضيئة من تلقاء ذاتها تتخلل تلك الأحجار فروع ملتفة لنباتات خضراء مزهرة بأزهار تكاتفت ألوانها لتتماشى وألوان تلك الأحجار اللامعة، تتقافز تلك النباتات وكأنها حية كأي بشر.. فهو يقسم أيضا أنه يسمع همس تلك الأزهار كلما تحركت واقتربت من بعضها البعض!

لمح أيضا بعض الطيور المضيئة بألوان قرمزية وزهرية، كلما رفرفت بأجنحتها خلفت وراءها ثرى قد ازدان بتلك الألوان الحمراء والبنفسجية البهيجة ليتطاير في الهواء حيث يشكّل رموزا وعبارات ترحيبية!!

هذا إلى جانب تلك الحيوانات التي تمشي بعضها على قدمين والآخر على أربع، فتطأ أرجلها ذلك التراب السحري ذا الألوان البراقة لتتداخل بتناغم تاركة في النفس دعة وبهجة لا يسببها سواها، بيد أن كلما داست الحيوانات تلك الأتربة تغير لونها حتى ترفع أطرافها لتعود إلى اللون ذاته.

تناهت إلى ناظريه أيضا تلك الخيوط المنيرة في السماء كقوس قزح، حاجبة ضوء الشمس الذي تسلل من خلالها ليزيد بريق تلك الألوان ويزيدها زهوا!

يكمل ذلك كله أصوات الطيور التي ينبعث صوت زقزقاتها في الأفق، صادحا كصهيل محبب تعاظم مترددا، فتحسب أنه لن ينقطع.

مازال حاجبا أمجد في ارتقاء مستمر ولا يعرف سبيلا لإطباق فكيه من فرط الانبهار إلا أنه أفاق أخيرا على صوتها الرقيق ينادي:

- هيا يا أمجد؟

***

وقف أمجد على باب الكهف اللامع وما أن دلف إليه، إذا به كالمسحور يدور بعينيه اللتين تطوفان بدورهما في محجريهما.

ما هذا الجمال؟!

مدينة ساحرة بداخل الكهف، حياة رغدة رائعة، أطفال تغدو لاهية فتشرئب أعناقها طربا، وطيور تزقزق في تداخل وتناغم مع صراخ تلك الأطفال المرحين وأصوت هدير المياه الجارية في جداول نقية زرقاء ذات قاع زهري إلى جانب

الخضرة المنتشرة بكل حدب، حتى الأشجار اكتسبت ألوانا غنّاء، أغصانها ذهبية اللون خضراء الأوراق تختلجها أزهار زمردية لم ير لها مثيلا من قبل.

تجول بعينيه مرة أخرى حتى صدمه منظرٌ لا يكاد يصدق أنه يراه بالفعل، رأى أغناما ترعى على حد جدول ممتد لا يرى آخره، وكلبا يحدوهم بجانب ذئب يلاطفه جنبا إلى جنب مع تلك الحية الخضراء التي تلتف بنعومة حول جسد نعجة مارقة وكأنها تدغدغها لتعود إلى القطيع وبالفعل قد فعلت، فنزلت الحية عن جسدها لتأوي إلى جحر لها بغياهب الأرض تحسست طريقها إليه بسهولة، فاختفت فجأة وكأنها جاءت من العدم وذهبت إلى العدم!

أوصل حد السلام هنا إلى الحيوان؟

هل عندما أمن الحيوان على نفسه ورأى السلام بين البشر، التحف بفراء فريسته؟! بل ويذب عنها؟!

هل سُحِرْتُ؟ هل ما أراه حقيقة أم أن تلك البقعة فعلا هي قطعة من الجنة؟

كان ذلك هو لسان حال أمجد الذي ما زال يتأمل كل شبر بشدهٍ حقيقي حتى أفاق على لمسة من أنامل رقيقة جعلت الكهرباء تسري بجسده لتجمد دماءه داخل عروقه!

لمسة أججت مشاعرا ظن حينا أنها قد قُبِرَتْ منذ فترة ليست بالقريبة!

إنها أنامل دهب تمسك يده وتضغط عليها برفق وهي تبتسم ابتسامة تكشف عن ثغر أبدع الخالق في صبغته وأسنان صُفّت في تناغم وجيرة بغير كدر، لم يطغ ضرس على ناب ولم تعوج سنة.

حملق أمجد بوجهها فازدادت ابتسامتها ثم قالت:

- هل أعجبك الكهف؟

رد أمجد وهو مازال مشدوها:

- هذا ليس بكهف، إنها الجنة في أبسط صورها، هذا هو أجمل مكان رأيته بحياتي التعسة، هل هذا هو كهف الضعاف؟! أين يسكن الأقوياء الأغنياء إذن؟!

ابتسمت تلك الابتسامة المريحة ثم أجابت:

- لا ينظر هنا أحدنا للآخر، لا فرق بين أنواع أو أجناس، لا فرق بين فقير أو غني.. ضعيف أو قوي، الجميع راضون، الفرق هنا أن سكان كهف الضعاف هم مهاجرون من وديان أخرى!

نظر إليها مستفسرا فقال:

- كيف ذلك؟!

- حتى أقسى وأغلظ القلوب وأفجرها لم تزل تحمل الخير يا أمجد، بعض قاطني سفلة الوديان يملّون أحيانا من حياة الظلم والكراهية بوديانهم، حينها يتوقون للعيش بسيبتيما وبالفعل يأتون هاهنا، لكنهم قد يحملون أخلاقا ومشاعرا سلبية يأتون بها من وديانهم كفيلة بنشر عدوى خلقية بين مسالمي سيبتيما، لذلك يعيشون هنا في كهف الضعاف في ستيرات العزل حتى تتبدل أخلاقهم ثم نستأصل ما تبقى منها.

تساءل أمجد في بلاهة:

- عدوى خلقية؟!

- نعم يا أمجد، الأخلاق المنحلة والمشاعر السلبية تحمل العدوى من إنسان لآخر، لذلك نحن نعزلهم.

صمت أمجد حينا يقلب الكلام بخلده ثم تساءل مبتسما:

- ولكن لماذا سميتموه بكهف الضعاف؟! رغم أن أولئك الناس قد قَدِموا

من وديان قوية، عنيفة ومتسلطة وبالتأكيد أقوى وأكثر شراسة من الشعب الذي يقطن سيبتيما؟!

تكوّنت تلك الابتسامة اللطيفة على وجه دهب المشرق لتجيب:

- الضعف هو ضعف النفوس يا أمجد، الضعيف فقط هو من يظن أن العنف قوة والسطوة بالصرعة، في كهف الضعاف هنا يتم تعليمهم أن القوة الحقيقية هي قوة النفس، القوة هي الروح الطيبة، هي السيرة العطرة، لذلك هم بمفهومنا ضعاف.

نظر أمجد إلى دهب مرة أخرى وتخللت نظرته عينيها فابتسم لسحرها الحقيقي حين أطرقت وجهها في خجل ثم ابتسمت فتوردتا الوجنتان حيث قال أمجد:

- أنتِ أجمل وأرق إنسانة قد قابلتها في حياتي البائسة يا دهب، أنتِ فوق مستوى البشر، وبعد حد الأحلام، لطالما حلمت أن أتزوج من أجمل وأرق إنسانة بالكون، كانت أحلامي تناهز جمال البشر ورقة الملاك، إلا أن سقف أحلامي حتى لم يصل لحدك، لا أدري أبشر أنتِ قد ارتدى ثوب الملائكة، أم مجرد ملاك مارق قد تنكر في هيئة بشر!!

ابتسمت مرة أخرى خجلا إلا أنها رفعت وجهها تلك المرة ونظرت في عينيه مباشرة تتفرسه ثم غاصت في خجلها ثانية.

رأى أمجد شيئا غريبا، ما دعاه لاستنكاره حين تساءل موجها استفساره إلى دهب وهو يشير إليه:

- ما هذا يا دهب؟!

ردت دهب وهي تبادله النظرات متسائلة:

- أين؟!

أشار مرة أخرى إلى أحد الرجال مُلَثمًا يمشي على عجل ويظهر التوتر جليًا في هرولته حيث يتأبط لفافة كبيرة وأخرى أصغر قليلا يحتضنها بيده الأخرى، إلا أن ما داخل اللفافتين قد تعرّى قليلا، ولاسيما هذا الذي دعاه للتساؤل.

أجابت دهب باسمة:

- هذا ناجم.

تساءل ثانية في ريبة:

- من ناجم هذا؟!

- إنه ناجم صانع الورود.

رد أمجد مقطبا:

- صانع الورود؟!

- نعم يا أمجد ما باللفافتين هي ورود مصنعة ذات بريق ورائحة عطرة!

كرر أمجد باستنكار:

- ورود مصنعة؟! ألا توجد ورود طبيعية هنا؟!

- بلى توجد، إلا أنها تنبت من تلقاء ذاتها، لا تُزرع؟!

لم تبد عليه الراحة من الأمر فتساءل مرة أخرى بشك:

- وما اسم تلك الورود يا دهب؟

- الخزامي يا أمجد.. ناجم لا يصنع غير ورود الخزامي.

لم يرد أمجد إلا أنه أعاد النظر بارتياب إلى ذلك الرجل الذي بادله تلك النظرة المباغتة الخبيثة فأكمل طريقه ليوليه ظهره تاركًا أمجد في حالة من الاستنكار!

صفقت دهب فجأة بيديها في سعادة عارمة ثم شبكتهما عاقدة إياهما إلى صدرها بتلقائية مع ابتسامة صافية قبل أن تخر في الحال ساجدة حيث رمقها أمجد باستغراب إلا أنه اندهش أكثر حين تنامى إلى ناظريه أطياف الجميع يصفقون ثم يسجدون واحدٌ تلو الآخر ممن يقطنون تلك المدينة بداخل الكهف إلا أنه وجد أناسا آخرين لا يزالوا واقفين بيد أنهم يرسمون الصليب على صدورهم!

كان مشهدا مهيبا بحق، طفق يتأمل الجميع، يلحظ البعض ينهض من سجوده ثم يهرع إلى عربات مكشوفة مزدانة بالذهب والفضة وبعض الأحجار اللامعة زهرية اللون، متشابكة كعربات القطار تمشي تباعا.

قد لاحظ أيضا لفافات ذات ألوان زاهية مبهجة يحصل عليها المارة من موزعين يقفون على تلك العربات ثم يعانقونهم ويرحلون في سعادة، بل أن هناك طيورٌ تحلق فوق هذه العربات.. طيور ذات ألوان زهرية وزمردية ترفرف بجناحيها ناظرة حولها حتى إذا ما وجدت من المارة من هو قَصِيّ إذا بها تلتقط اللفافة بين مخالبها الدقيقة في غير خمش ثم تطير إليه فتلقي باللفافة إلى يديه ثم تطأطئ رأسها حتى يربت عليها برفق مع نظرة الابتسامة والعرفان تلك حيث تعاود التحليق عائدة إلى العربة!

نهضت دهب من سجودها الطويل ومازالت تلك البسمة مطبوعة على محياها، حيث وجدت آثار الذهول على وجه أمجد فازدادت ابتسامتها تألقا حتى قال أمجد متسائلا:

- ماذا يحدث يا دهب أنا لا أفهم شيء مما يجري؟!

ردت دهب مجيبة:

- تلك عربات السعادة يا أمجد، توزّع الطعام.

سأل مندهشا:

- توزع الطعام؟ هل ما يحصلون عليه في تلك اللفافات طعاما؟

- نعم يا أمجد.

- لماذا؟

- لأن ذلك هو ميقات الطعام هنا، ولابد للجميع أن يأكل، حتى من هم خارج ستيرتهم.

- وما تلك الستيرة؟!

- مكان إقامتهم بالكهف يا أمجد!

حرك وجهه بينهم ثم استفسر ثانية:

- أوصل حد المساواة هنا إلى ضرورة توفير حتى الطعام لمن هو خارج ستيرته حتى يأكل في ذات الوقت الذي يفعل فيه من بستيراتهم؟!

ابتسمت دهب ولم ترد فاستأنف سائلا:

- ولماذا إذن سجد الجميع أو رسموا الصليب؟!

أجابت بتلقائية:

- لأنهم قد فرحوا.

- وهل من يفرح هنا يسجد أو يرسم الصليب؟!

أجابته بهدوء ومازالت تسطع من بين شدقي ثغرها تلك الابتسامة الحالمة قائلة:

- هنا يا أمجد يتم ربط الفرح والسعادة بالله، الله هو من يبعث كل حلو، الله حلو لا يبعث إلا حلوا، هو لا ينسانا، نحن فقط نألف النعمة فننسى أن الله ليس مجبرا على إطعامنا وأن مجرد إطعامنا لهو نعمة منه وحده، وإن أرسل الفرح فهو

قادر على إرسال البأس والحَزَن، لذلك إن فرحنا هنا سجد المسلم ورسم المسيحي صليبه حتى نؤدي شكر نعمة أرسلها الله، باختصار يشكر هنا كل ذي نعمة ربه!

بدا الانبهار على قسمات وجهه ثم شرد لوهلة فازدرد لعابه وبعدها تساءل:

- ولماذا تلك الأحضان وهذا العناق وعقد الأيادي بين المارة وبين الذين يقفون على العربات؟!

أجابت سابرة:

- ذلك هو ثمن الطعام!

سأل بدهشة حيث كرر كلامها مستغربا:

- ثمن الطعام؟!

- نعم يا أمجد!

- ولكني لم أر أية أموال قد تم إبرازها!

- وما هي الأموال يا أمجد؟!

أجاب بشَدهٍ:

- العُملة يا دهب.. العملة التي تُدفع مقابل ذلك الطعام!

- أمجد، تعاملاتنا هنا بالعملات الودية، العناق والقبلات والتعضيد والربت على الكتف، وتشابك الأيدي ثم كلمات الشكر وعبارات الامتنان.

ابتسم أمجد ثم شرد بعيدا فتساءل:

- ولكن إن كانت تلك هي عملاتكم، فكيف يكون هنا من هو أغنى من الآخر؟! من المؤكد أن الجميع قادرون في أي وقت على العناق والتقبيل! فبذلك يمكن ابتياع ما يريد وقتما يريد؟!

ضحكت ببراءة ثم أجابت:

- بالطبع لا يا أمجد، سبق أن قلت لك بأننا هنا لا نزيف مشاعرنا، لن يدفع الثمن إلا من كانت نفسه صافية راضية، لن يقدر على العناق ودفع عبارات الامتنان إلا ذو نفس رائقة، وصفاء النفس درجات، لذلك الأغنى هنا هو الأجمل خُلقا والأجمل قلبا! وأفقر الناس هنا من يحمل أقل قدر من الطيبة في القول والفعل! هل فهمت يا حبيبي؟

- بالطبع فهمت، فهمت أنكم أجمل وأطهر بقاع الكون، فهمت أن الدنيا برمتها لا تشغل بال من لم يرتكن إليها، فهمت أننا لابد أن نبتاع قلبا قبل أن نبتاع سكنا.

قالها ثم سكن لبرهة وكأنه يتحسر على حاله وحال الذين تركهم هناك وعن تكالبهم وتصارعهم الدميم على أشياء حتى ربما لا تمثل لهم شيئا، ولسان حاله يقول: فيا ليت قومي يعلمون!

- هيا يا أمجد، لنبتاع بعض الطعام!

جهرت بها دهب ضاحكة فرد أمجد باستسلام:

- ليكن يا دهب.

وقف وهي أمام إحدى العربات وأخذا لفافتين ثم عانقت دهب رجلا طاعنا بالسن وقبلته على جبينه بود فأشارت إلى أمجد الذي تردد لوهلة حتى أومأت له برأسها مع ابتسامة صغيرة حتى دخل في عناق مع هذا الطاعن ولأول مرة يشعر بهذا الدفء، لقد تذكر والده.. عبق الطيبة يتدفق إلى وجدانه.. فتشبث أمجد بالرجل أكثر وأحكم يديه حول جذعه وظلا هكذا حتى فرت دمعة عن مقلته فانحدرت على وجنته تلهبها!

***

- حامي الحمى، لقد وصل الوفد.

قالها المخزنجي، ذلك الرجل الطويل مفتول العضلات، يرتدي عباءة ذهبية تستطيل إلى الأرض فيجرها حين المسير.

رد راسل باستغراب:

- وفد؟ أي وفد يا مخزنجي؟

- وفد وادي "سيكستوس".

- سيكستوس؟!

قالها راسل باستنكار فخرج الأمير عليهما في هيبة وما أن رأياه حتى انحنيا في خنوع إلا أن راسل كان لا يزال محتفظا بنظراته المستنكرة المتجهمة.

ظل الوضع هكذا برهة حتى نطق الأمير بحسم:

- نعم وفد وادي "سيكستوس" يا راسل، ألك شأن في ذلك يا حامي الحمى؟

- مولاي كيف يـ.....

قاطعه الأمير بحدة:

- راسل هل جننت؟! لآخر مرة سأقولها لك يا حامي الحمى، أنا لا أُسأل وغير مطالب بتبرير أفعالي أو الذود عن مآربي وكشف خطواتي لك أو لأي من رعيتي المسالمين، هل فهمت يا راسل؟!

أخذ الأمير شهيقا واسعا ثم استأنف آمرا:

- يا مخزنجي.

- أمرك مولاي.

- اخرج أنت، وقدّم واجب ضيافتنا للوفد وانتظر الأمر من حامي الحمى حين أعطيه له!

انحنى المخزنجي بإجلال حيث قال وهو يتقهقر خارجا:

- مولاي!

ران الصمت لوهلة قبل أن يستطرد الأمير ملينا في قوله:

- راسل، لماذا يستعصي عليك دائما فهمي؟!

رد راسل باحتداد غير أنه مازال يحمل هذا الكم من الهيبة تجاه الأمير قائلا:

- ماذا أفهم يا مولاي؟! سموك تعي جيدا معنى وفد من وادي سيكستوس، تعلم جيدا ماذا نطلق عليهم؟! إننا نكنيهم بوادي الضلال والخطيئة وهو ليس أسوأ أسمائهم!

- أعلم جيدا تلك الأسماء وأحصيها عددا, أنا لا أطلب أن نكون أصدقاءهم, ما أريده هنا هي مجرد هدنة.

- هدنة ؟ مع من ؟ مع سيكستوس يا مولاي ؟ إنهم ألد أعدائنا.

- وهل تُصنع الهدنة مع الحلفاء يا راسل ؟

أطبق الصمت قليلا حتى ابتسم الأمير مقتضبا ثم رد بكياسة:

- أعي تخوفك جيدا يا حامي الحمى، لكني أفعل ذلك من أجل مصلحة وادينا، من أجل مصلحة سيبتيما! ومن أجل المصالح لابد أن نتغاضى عن بعض المحظورات يا رجل!

ابتسم راسل هو الآخر بلوعة ثم سأل متهكما:

- مصلحة سيبتيما مع وادي سيكستوس يا مولاي؟ ثم أي تغاضٍ ترومه؟! إن الله قد عاتب خير أنبيائه في ضرير رغم أنه كان مشغولا بالدعوة في سبيل الله لأحد السادة، لم يتغاض الله عن ذلك رغم أن هدف النبي كان تعزيز الدعوة، ورغم

أن الضرير لم يره أصلا، وأنت يا مولاي تقول لي الآن أن مصلحتنا مع سيكستوس ولابد أن نتغاضى؟!

- نعم يا راسل لابد أن نتغاضى، أنت حقا لا تفهم.

- عذرا يا مولاي، لأول مرة مذ تقليدي منصب حامي الحمى سأقول لحاكم أنه على خطأ، لكنك بالفعل على خطأ!

انفجر الأمير غاضبا ثم قال بعصبية:

- ماذا تقول يا راسل؟! هل فقدت عقلك؟

- آسف يا مولاي، إلا أن هذا ما يمليه علي ضميري.

- اخرج الآن يا راسل وأعطِ الأمر للمخزنجي في دخول الوفد ولنا بعد ذلك حديث آخر!

- أمرك يا مولاي.

قالها أثناء انحنائه ثم تقهقر في خضوع تاركا الأمير يسبح في يم من الذهول.

***

صرخت دهب بمرح متذكرة فقالت:

- أمجد.

مسح أمجد دموعا قد تبلورت في مقلتيه فابتسم قائلا:

- نعم يا جميلة الأخلاق والخلقة.

تبسمت في خجل ثم ما لبثت أن قالت له بتلك الرقة المربكة:

- أريد أن أَريك شيئا ستطرب له كثيرا.

ران الصمت لفترة ثم تجهم أمجد فسأل:

- دهب، هل لي بسؤال؟!

- بالطبع يا أمجد!

رفع حاجبيه مستفسرا:

- كيف تفهمينني وتفهمين لغتي بل وتتحدثين بها بطلاقة؟!

أسدلت ستار بسمتها ثانية ثم قالت:

- نحن لا نملك لغة معينة يا أمجد، ذلك من ضمن مزايا وادينا الجميل، إن لغتنا هي لغة من يحاورنا، نتواصل حتى مع الحيوانات والنباتات إن أردنا، لذلك نفهم الجميع والجميع يفهمنا!

امتقع وجهه دهشة فقال:

- النباتات؟! هل تمزحين؟!

ابتسمت وقالت:

- بالطبع لا.

قالتها ثم اختارت موضعا قد استطالت منه نبتة عالية مرنة يحركها النسيم غدوا ورواحا وسط قطعة من نباتات صغيرة فانحنت عليها تحدثها همسا وما أنهت همسها حتى ارتفعت النبتة فمطت نفسها ثم فردت أوراقها لتغطي وجه دهب وتمايلت تلامس خديها حتى بُترت زهرة من تلقاء ذاتها لتتحرك تلك الزهرة رويدا فتسكن ما بين أذن دهب ووجها حيث تثبتت خلف أذنها ثم ما لبثت أن انكمشت النبتة على نفسها مرة أخرى لتنتصب دهب وخلف أذنها قد رست تلك الزهرة الزمردية التي أكسبتها رونقا آخر إلى رونقها؟!

حرك أمجد رأسه بانبهار ثم قال بتؤدة:

- ما حدث هاهنا أجمل من أن أعلق عليه حقا، أنتم وادي الخيال ليس فقط

وادي الفضيلة، والله لا أدرى من منكما الذي أكسب الآخر جمالا فائقا، أنتِ أم الوردة!

سكن قليلا ثم تابع وسط ابتسامتها:

- لكن هل معنى ذلك أنكم لا تملكون لغة أصلية خاصة بكم؟!

- بالطبع لنا لغة أصلية!

- وما هي؟!

- اللاتينية، فهي لغتنا الأم حين تكوّنت المملكة.

ابتسم أمجد بتفهم ثم سأل متذكرا:

- ما الشيء الذي أردتِ أن تريني إياه؟!

أجابت دهب كاشفة عن ثغر لم يُجَاد بمثله كثيرا:

- غرفة الذكريات.

- ماذا؟!

- غرفة الذكريات يا أمجد.

- ما غرفة الذكريات تلك؟!

قبضت دهب على يمناه بشغف ثم سحبته برفق أثناء تلك الابتسامة الساحرة مع تموج شعرها المنسدل حين قالت:

- فقط تعالْ، وسأريك.

أخذته وهرولا سويا إلى غرفة لم تبعد كثيرا عن مكانهما حتى إذا ما استقرا أمام بابها الذهبي اللامع طلبت منه أن يفعل مثلما ستفعل هي.

هز رأسه موافقا وهو مازال يستكشف ذلك الباب المهيب.

ضغطت بيمناها على تجويف بذلك الباب ثم ما لبثت أن نظرت إليه فوضع يمناه على ذات التجويف شابكا يده بيدها ناظرا إليها حيث أطرقت رأسها في خجل ثم قالت:

- قل ورائي.

لم يرد بل هز رأسه إيجابا وهو مازال ثابتا على تلك النظرة الحالمة الممحصة في عينيها فاستأنفت بزهو:

- أُشْهِدُكِ أنني ما أريد الهدم ولن أعيش كعبد للماضي، إلا أنني أريد استرجاع حلو ما فات لأطمئن على عذب ما قد يأتي.

كرر أمجد خلفها ببطء وهو لا يزال يتأمل ذلك الباب الأسطوري المزركش وسرعان ما سمعا تكّات ثلاث ثم انفتح الباب فكشف عن غرفة شفافة يملأها الضوء الأبيض الساطع من كل اتجاه، تحلق فوقها طيور ذات ألوان بنفسجية لامعة مضاءة من تلقاء ذاتها لم ير مثلها من قبل، أصوات تلك الطيور تدغدغ قلبه مع باقي تلك الأصوات الناغمة مثل هدير هذه الجداول مجهولة المصدر ولاسيما حفيف بعض الأوراق التي لا يراها أصلا.

وقف أمجد لا يجسر على السير خطوة واحدة، يتأمل هذا الجمال منبهرا فأخذته دهب من يده وما أن سارا أول خطوة تشقق أمامهما رواق من الخضرة الخالصة، وعلى جانبيه تنبت الأشجار من العدم لتظللهما فروعها التي تتشابك فوقهما!

مازالت دهب تسحبه برفق وهو حيث هو لا يرتد إليه طرفه حتى استقرا أمام لوح برونزي اللون يظهر فيه ذلك التجويف الخاص بالوجه.

نظر إلى دهب التي هزت رأسها مشجعة فوضع وجهه في ذاك التجويف ثم بدأت الذكريات تهاجم عقله فيراها رؤي العين وكأنها تحدث أمامه!

لقد فهم الآن ما معنى غرفة الذكريات!

تسارع ماضيه أمامه فتارة يرى أمه وهي تبتسم إليه فتعانقه بنهم، وأخرى يرى أصدقاء الطفولة وحب مراهقته حتى استقر ذاك المشهد أمامه!

والده الأستاذ عارف، رآه في ذلك المقهى الذي اعتاد دوما أن يشد إليه الوصال حين يهرب من دروسه.

اختبأ أمجد حين ألفى والده يحادث صاحب المقهى حيث ظن أنه قد علم بأمر هروبه وجاء ليسأل عنه.

ما لبث أن راح الأستاذ عارف فسرعان ما توجه أمجد إلى صاحب المقهى ليسأله عن سبب تواجد ذلك الرجل وقد صدمته الإجابة!

لقد كان يريد عملا إضافيا ليساعده بالإضافة إلى عمله، فظروف المعيشة صعبة ولا يريد لابنه أن يشعر بتعثره.

تجهم أمجد قليلا ثم حث الخطى ملتاعا عائدا لبيته، وذلك هو الجزء الأصعب من الذكرى!!

نهر والده بشدة حين قابله بعد دخول الشقة، رأى تلك النظرة الآسفة في وجه أبيه حين واجهه بذلك، رأى دموعه المتلألئة حين قال له:

- أنت تريد أن تفضحني وسط أصحابي! تريد أن تعمل بالمقهى الذي أجالس فيه أصدقائي، تعسا لك!

رأى رد والده الواهن حين أجاب:

- يا بني سامحني، فأنا لم أكن أعرف أنك تجلس على ذلك المقهى!

أسبلت الدموع من عيني أمجد ثم ابتعد مسرعا بوجهه عن ذلك التجويف، انتحب في النهاية حين ضاقت نفسه بما رأى!

هل كان جاحدا إلى هذا الحد؟!

هل كان عاقا بهذا القد؟!

تكوم على نفسه في إحدى زوايا غرفة الذكريات منتحبا بشدة إلى أن تساقطت دموعه مبللة وجنتيه حتى أن الأشجار التي تظلل الرواق الأخضر بدأت تتساقط أوراقها وكأن أغصانها قد شاخت، وتوقفت أصوات تغريد الطيور ثم طارت بعيدا!

فلم تجد دهب ما تفعله غير الجثو على ركبتيها محتضنة أمجد، حيث أطرقت رأسها تلامس رأسه في مواساة، حتى نزلت دموعها هي الأخرى أسفا لحاله.

***

- ناجم، لقد عمرت قلبي حقا، رغم اختلاف وديانتنا واختلاف طبائعنا، إلا أنني اخترتك أن تكون عامري!

قالتها أميرة وهي تنظر إلى "ناجم" صانع الورود بولهٍ في حين أمسك يديها وشبك أصابعه بأصابعها فتنهد ثم قال:

- انتِ أيضا قد عمرتِ قلبي يا أميرة وأملي بالفعل أن أكون عامرك.

أفلتت يديها من بين يديه ثم قالت ممتعضة:

- لكني قلقة يا ناجم، قلقة جدا.

- ولِمَ القلق يا عزيزتي، وممن؟!

- من المسالمين والأمير.. ومن صديقتي أيضا؟

رد باستغراب:

- دهب؟ لقد كنت أظن أنها صديقة عمرك، وهي آخر من تخشينه بل هي من يجب أن تذب عنك!

أجابت مطرقة رأسها في أسى:

- هي بالفعل أكثر من ذلك، إنها أكثر من مجرد صديقة لكن دهب لا تقبل الخطأ مطلقا، خاصة إن تعلق الأمر بسيبتيما ودستورها!

أنت تعلم، دستورنا يمنع ذلك، لا يجوز أن أعتمر شخصا من كهف الضعاف، لابد على الأقل أن يتعدى تلك المرحلة بالمرور برفيق الأخلاق فيصبح أهلا بالتزيُّن من بنات الوادي، وأنت ترفض الذهاب لرفيق الأخلاق، هذا غير أن...

بترت حديثها فقاطع ناجم مقطبا:

- أكملي يا أميرة، قوليها، قولي أنه أصلا لا يجوز لضعاف وادي سيكستوس أن يتزينون من بنات سيبتيما حتى وإن ذهبوا لرفيق الأخلاق، هل علمتِ الآن لم لا أذهب إليه؟!لأن غايتي هي التزين بكِ وهذا الرفيق سواء ذهبت أم لم أذهب إليه لن يحقق أملي، فلِمَ أكبد نفسي عناء يمكن أن يقتلني؟!

نظرت إليه في تودد ثم ما لبثت أن قبضت على يديه محاولة طمأنته بتلك النظرة التي يعي مفادها جيدا، فنظر إليها بدوره ثم أخفض رأسه مبتئسا!

***

وقف ذلك الوسيم دقيق الملامح يغازل ابنته ويدللها وكأنها لا تزال محض طفلة فابتسمت بدورها حين قال:

- لقد افتقدتك يا طفلتي، أين كنتِ؟!

أجابت دهب باسمة بسعادة تتجلى حتى في بريق وجهها:

- مازلت تدللني كما لم يفعل ولن يفعل غيرك!

- ما دمتِ بمثل تلك السعادة فاسمحي لي أن أحاورك في أمر يخصك!

- بالطبع يا أبي، كلي لك، فمُرني!

تحدث ملينا:

- جاسر يا ابنتي، إنكِ تعمرين قلبه، فلِمَ لا يعمر قلبك، هل به عيب أغفله؟!

تنهدت دهب فابتسمت على مضض ثم أجابت:

- أبي، إننا جميعا نعلم أن جاسر لهو من خيرة شباب الوادي، كريم ابن كريم ينسل من عائلة الأكرمين!

إلا أنه بالفعل لم يعمر قلبي يا أبتِ، هو وسيم حد الجنون، متفهم حتى الموت، قد لا تمر به الفتيات إلا وتعلقت به قلوبهن!

يحب سيبتيما كما لا يفعل غيره!

إلا أنني لا أريد كل ذلك يا أبي.. لا أريد وسامة وجمالا ولا حسبا ولا نسبا.

ما أريد إلا الاطمئنان، أريد لقلبي أن يطمئن بعامرٍ كاطمئنان هاجر حين سألت إبراهيم عليه السلام: آلله الذي أمرك بذلك؟! إذن لن يضيعنا!

أريد رجلا يُعدّني رزقا يستوجب الشكر، كما قال رسولنا الكريم في خديجة، لقد رزقت حبها!

أريد عامرا لا يخجل من فعلي فقد كان رسول الله يلملم فتات الطعام حين غضبت عائشة من استحسانه لطعام إحدى زوجاته فأوقعت الصحفة أمام صحابته ولم يزد غير أن قال متفهما: لقدغارت أمكم!

أن يناديني باسمي، بل بأحب الأسماء إلى ولو كان في مجلس علم، فاسمي ليس سبّة.. إن الحبيب كان يناديها عائش!

أريد رجلا يعدّني جيشه وقوته في مجابهة الدنيا كرسول الله حين قال لأبي بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما!

أريده لا يمقتني أو يرفضني في أوقاته العصيبة بل ينسى أوقاته تلك معي، فمحمد بعد أن أعد الجيش وقبيل بدء الغزوة قد انتخب مكانا خلف خطوط جيشه ليسابق عائشة بفرسه!

أبي أنا لا أريد من يعتمرني، بل أريد لفُلك قلبي أن ترسو صوب مرفأ فؤاد شخص يُكسب نفسي سكنا من بعد خوار مشاعري، أرجو لروحي أن تعمر جسد رجل أعدّه توأمي ورفيقي وواسطة عقدي!

***

تقدم راسل منتصبا ثم انحنى قليلا عند دخوله إلى البلاط الأميري فرفع رأسه في هيبة ثم قال:

- مولاي الأمير، وفد وادي سيكستوس ينتظر بالخارج.

ابتسم الأمير منتشيا ثم أشار بيده قائلا:

- قدم إليهم الطعام مرة أخرى يا راسل، أريد كرما مبالغا فيه ثم إذا ما اكتفوا وقنعوا بما أوتوا، أدخلهم واصرف عنّا الحراس.

انحنى راسل ثانيةً ثم نظر إلى الأمير أثناء انحناءته ليرى تلك النظرة الخبيثة فسرعان ما قال:

- أمر مولاي الأمير.

قالها فتقهقر ثم أغلق الباب تاركا الأمير خلفه وقد قام عن كرسيه المرصع حين بلغ منه الحماس والقلق - في ذات الوقت - جل المبلغ!

***

دخل المخزنجي إلى الوفد القادم من وادي سيكستوس والمكون من ثلاثة أشخاص بعباءات قرمزية قانية، فقال مُرَحِبا:

- سيكون الطعام جاهزا حالا يا جلالة الوفد المعظم، الأمير يبلغكم تحياته ويعلمكم أنه بانتظاركم حالما ينتهي واجب الضيافة.

ابتسم ثلاثتهم بفخر ثم قال أحدهم:

- ونحن أيضا ننتظره على أحر من الجمر!

***

التقت دهب برفيقتها أميرة بالقرب من يم يبرق ماؤه بلون لامع كبلورات الثلج واللؤلؤ تنعكس نورا وسط الظلام.

تتردد تلك اللآلئ في مقلتي دهب التي تطل عليه برأسها ثم ما لبثت أن افترشت الأرض المخضرّة تتنفس بعمق وارتياح في حين قلدتها أميرة التي قطعت تلك الحالة من الصمت المريب متسائلة:

- خيرا يا دهب؟

لم ترد فهي مازالت تتأمل ذلك اليم وكأنها تراه بعين المحب للمرة الأولى، فأردفت أميرة:

- دهب، هل تسمعينني؟!

أجابت دهب أخيرا بصوت غنِج مزدان بالرقة وهي تتحسس ذلك الغصن الذهبي المدلى بأوراقه المذهبة فيلتف الغصن على يدها ثم يتحرك مداعبا فتبتسم لتقول:

- أسمعك يا أميرة.

- قلتِ أنك تريدينني، ما بكِ يا دهب؟

راعتها دهب أخيرا ثم اعتدلت في جلستها مسندة ظهرها إلى تلك الشجرة الناطحة فقالت:

- لا أعرف كيف أبدأ كلامي، لكن صراحة لا أطيق كتمان الأمر أكثر من ذلك، أتوق لمعرفة رأيك، أنتِ صديقتي الوحيدة تقريبا ولم أعتد الفرحة من دون إشراكك، فرحتي لا تكتمل سوى بكِ يا أميرة.

أشرق وجه أميرة طربا فقالت مخمنة بتلك الضحكة العذبة:

- عمّر أحدهم قلبك؟!

لم ترد دهب بل أطرقت رأسها في خجل غير مصطنع فاحمرتا وجنتاها مما زادها رونقا حيث استأنفت أميرة بفرح:

- نعم، لقد حدث.. لقد حدث يا دهب؟!

أومأت دهب برأسها تلك المرة مع ذات الابتسامة الخجلة فسرعان ما قامت أميرة عن مقامها حيث احتضنتها بقوة ثم تساءلت:

- جاسر؟!

هزت دهب رأسها سلبا فتساءلت رفيقتها مرة أخرى بفضول:

- من إذن هذا النبيل الذي عمّر قلب بنت الوادي الأولى، من محظوظ من بين فتيان سيبتيما قد ظفر بقلبك بين عشية وضحاها؟!

عبست دهب فجأة ثم قالت:

- تلك هي المشكلة.

ردت أميرة باستغراب:

- مشكلة؟! أية مشكلة؟! هل في العمران من مشاكل يا دهب؟!

صمتت حينا تفكر ثم استطردت باسمة:

- هل من عمّر قلبك هو الأمير الجديد؟! إنه وسيم وذو كلمة، أظنه هو!

قالتها أميرة باسمة فقطبت دهب ثم شردت فجأة ففهمت أميرة ما دار بخلدها ثم سرعان ما طوقتها بذراعها فتساءلت دهب:

- هل قصدتِ ذلك؟! أم خرج الكلام بعفوية؟!

لم ترد أميرة في المرة الأولى فأعادت سؤالها مرة أخرى:

- أجيبيني يا أميرة عمدا أم بعفوية؟!

أطرقت أميرة رأسها ثم فكرت مليا فغمزت دهب بمرح ثم قالت:

- بشكل عفوي.

قالتها ثم رانت لحظات من الصمت لم تجسر إحداهما فيهن على الحديث حتى بترت دهب ذلك الصمت قائلة متلعثمة بتردد:

- المشكلة هنا يا أميرة أنه من خارج سيبتيما، كيف لذلك أن يحدث؟!

وكأن دهب قد ألقمت صاحبتها بحجر فسكنت تماما ومعها سكنت دهب هي الأخرى حتى سألت أميرة مستفسرة:

- هل تعرفين معنى ذلك وتبعاته؟!

تجلى الحزن على وجه دهب فنطقت:

- أعرف يا أميرة.. أعرف.

صمت تام مرة أخرى، وثانية قد قطعته أميرة مباغتة:

- صفيه لي يا دهب!

شردت دهب قليلا تنظر إلى الأعلى وتبتسم ثم قالت بدلال:

- جميل بما يكفي للأخذ بأعينٍ تواقة للذم، هادئ كبندول رتيب يتأرجح تحت

سطح يم راكد، صاخب كشلال ينهمر فوق صخور تتحرك متساقطة بفعل انهيار صخري، وسيم كأنكِ لم ترِ رجالا غيره، متناغم كماء اتخذ شكلا ولونا لكل إناء سكنه، فائر كعطر تضمخ مباشرة إلى الأنوف يلهبها، هو القشة التي ارتسمت للغريق كقضيب صُنِع من الفولاذ المقوى يمسك به وسط جرف قناة لا تتعدى قوته جر ورقة شجر ساقطة، هو الأمل الذي يحياه كل مجالد، هو أول رشفة بعد ظمأ دام يوما في الحرور، هو الحرية بعد القيود، هو ما تمنيته ولم أعهده، لا.. بل فوق ما تمنيت.. فوق ما تمنيت!

أغمضت أميرة عينيها مع حديث دهب تتأمل هذا الذي عمّر قلب الأخيرة وكأنه ليس ببشر، ثم قدر من السكوت وكأن جميع الموجودات قد توقفت عن الحركة وتلك الأصوات الرتيبة قد سكنت ثم قالت أميرة بتلقائية لا تخفي اضطرابها:

- أنا أيضا قد عمّر قلبي ضعيف من خارج سيبتيما!

ظهرت المفاجأة على وجه دهب فتساءلت مسرعة:

- منذ متى؟! ولِمَ لم تصارحينني؟!

- منذ فترة ليست بالقصيرة.

قالتها فصمتت قليلا ثم تابعت بوجه ممتقع:

- كنت وجلة، خائفة من أن تبلغي قوات التقصيرات والترحيل الخارجي!!

احتضنتها دهب بقوة ثم قالت معاتبة:

- برغم ميلي للواجب الدائم إلا أنني لا يمكن أن أفجع قلب رفيقتي.

ابتسمت أميرة وتنهدت براحة فأرسلتها دهب بعيدا خارجة من ذلك العناق الطويل متسائلة:

- من أي وادٍ هذا العامر المحظوظ؟!

سكتت أميرة حينا فأعادت دهب سؤالها حتى أجابت الأولى باستحياء متلعثمة:

- وادي سيكستوس.

فهمت دهب فتغبر وجهها قليلا ثم سرعان ما استبشرت فأطلقت ابتسامة مطمئنة لتقول:

- ليس مهما على الإطلاق، المهم أنه تعلم وتغير وتهذبت أخلاقه ونفسه بكهف الضعاف!

أجابت أميرة بلهفة المحب الذي يبحث عن إبرة حُسْن وسط كومة قش من الخبث:

- جدا، لقد تهذب جدا يا دهب.

- وهل زار الرفيق؟!

- ليس بعد، ولكنك تعرفينه.

أجابت أميرة بابتسامة فتساءلت دهب مسرعة:

- حقا؟ ومن يكون؟!

- ناجم.

- صانع الورود؟!

ابتسمت أميرة فتبعتها دهب التي قالت بذات الابتسامة:

- مبارك عليكِ يا صديقتي، أتمنى لكِ يوم زينة قريب وعمرانا طويلا.

شحب وجه أميرة ثم هدرت محزونة:

- ولكنك تعرفين جيدا يا دهب أن ذلك لن يحدث، إنه من وادي سيكستوس.

طوقتها دهب بحنان حيث صادف كلامها هوى في نفسها هي الأخرى فقالت مطمئنة بحصافة:

- صدقي بغيتك يا أميرة، لا تحلمين بمرادك بل عايشيه، لا تخططين.. فقط افعلي، صدقيني يا عزيزتي، لن يتحقق حلم لم تعيشينه بخيالك وواقعك أولا، إذا كنتِ غير مصدقة لحلمك أفتتوقعين أنه سيطرق بابك عنوة ليفرض نفسه عليكِ؟! صدقي حلمك ليصدقكِ!

الحلم ضيف لن يعودك إلا بعد إلحاح في الزيارة، لن يأتِي بمجرد الدعوة العابرة!

ابتسمت أميرة بشغف واطمئنان ثم تنهدت فسألت متذكرة:

- ولكنكِ لم تفصحين، عامرك هذا قادم من أي وديان مملكة لاتيوم؟!

اضطربت دهب قليلا ثم أجابت متلجلجة:

- تلك هي المعضلة الكبرى!

- لماذا؟! هل سيكون هناك ما هو أسوأ من وادي سيكستوس؟!

أجابت دهب وقد أشاحت وجهها بعيدا:

- نعم هناك الأسوأ.. إنه من خارج المملكة.

- ماذا؟! من خارج المملكة المحظورة؟ كيف ذلك؟!

أجابتها دهب مفاجئة:

- المخطوطة.

شردت أميرة لثانية ثم سألت بفزع:

- المخطوطة، هل هي بالفعل حقيقة، إذن كانت النبوءة صادقة؟!

لكزت دهب كتف أميرة برفق ثم قالت:

- سأقص عليكِ كل ما حدث.

***

جلست دهب في أناة تنظر مبتسمة إلى أمجد الذي قد سلب جَنَانه ذلك الثرى الأصفر الذي ما أن يحمله بين يديه حتى يتحول لونه إلى الأزرق البراق فتقفز ذراته من بين أصابعه ثم تبتعد بوثبة ضفدعية عالية، فيرتد أمجد إلى الخلف في خوف قد اختلج بمرح!

مازالت تنظر إليه في بريق وكأنه وليدها الذي يكتسب خبرات جديدة بالحياة، بالفعل في نظرها لا يوجد تقسيم للحب، لا يجوز فصل حب الأم لوليدها عن حب الزوج لزوجته وكذلك الصديق لصديقه، الحب واحد، الحب هو خليط من خوف وحنو الأم على طفلها وعشق الزوج السرمدي لزوجته وتفهُّم الصديق لرفيقه، حين يتضافر الحب بمثل ذلك يرتقي إلى مرحلة العشق وتوحد الروح، فيصير فراق الروح لجسد كل منهما أهون كثيرا من فراق أحدهما للآخر!

لم تفقد تلك الابتسامة الولهة إلى أن راعاها فابتسم لها هو الآخر حين داعب طيفها ناظريه حيث تربت بيديها الصغيرتين على ظهر ذلك الحيوان الذي يشبه إلى حد كبير الغزال إلا أن له فراء زهري كثيف، وثلاثة أجنحة ترفرف باستمرار دون انقطاع ما نتج عنه صوت صليل محبب!

مازالت دهب تربت على ضهره ثم أومأت برأسها إلى وجهه فألقت بضع همسات في أذنه حتى أناخ وطأطأ رأسه إليها في خنوع!

أدهشت أمجد أجنحة ذلك الحيوان المتواترة فأراد أن يتلمسها، وما أن لامست يده بالفعل إحداها حتى نهض الحيوان منتصبا، فابتعد قليلا ثم نظر إلى أمجد وهزّ جسده مرارا حتى تساقطت شعيرات زهرية من فرائه لتتناثر حوله في كل مكان على الأرض فتنبت كل شعيرة بزهرة زمردية لامعة تهتز على جانبيها بحركة رتيبة نتيجة نسمات تلك الرياح الطفيفة!

نظر الحيوان إلى أمجد مرة أخرى ثم إلى دهب التي أرسلت إليه ذراعيها

فشرع يتقافز بمرح وما لبث أن توجه مسرعا إليها مباشرة فعانقته مليا حتى تقهقر ببطاء فولّاهما الدبر تاركا أمجد خلفه مشدوها فاغرا لفيه ينظر إلى تلك الأزهار الزمردية التي لم ير لبهائها مثيلا حيث تساءل:

- يا رباه، ما اسم هذا الحيوان يا دهب؟!

ابتسمت مليا لتلقائيته ثم أجابت:

- الليرو يا أمجد.. هذا حيوان الليرو.

استطرد على ذات الحالة من البهجة قائلا:

- إنه خلاب حد الجنون، وتلك الورود التي خلفها أيضا مبهجة جدا!

مدت دهب إحدى يديها برقة فاقتطفت إحدى تلك الأزهار الزمردية ثم ناولتها لأمجد وهي تقول:

- ورائحتها أجمل.

وضع أمجد تلك الزهرة نصب أنفه فطفق يستنشق عبيرها الأخاذ ليغمض عينيه مبتسما مأخوذا حيث قبضت دهب على يده ثم خللت أصابعها بأصابعه وقالت بخجل مباغتة:

- أمجد، لقد عمرت قلبي، أنت الآن عامري.

ابتسم أمجد ولم يرد فتجهمت دهب سائلة:

- هل ضايقتك؟! هل اخترت عامرة أخرى؟ سأنسحب بلا ضغائن إذن.

ضحك أمجد من ردة فعلها تلك ثم تساءل ببلاهة:

- أنا لم أنزعج أبدا، بل أردت أن أعرف فقط ماذا يعني ذلك، لِمَ تضخمين الأمور؟ فقط قولي أحبك!

ابتسمت خجلانة ثم ردت بنقاء وبراءة:

- حبيبي نحن هنا بسيبتيما نحب الناس جميعا، كلمة أحبك لا تصف العامرين وما يعتمل بقلوبهم، إنها تصف المشاعر العادية التي بين الناس جميعا!

- فهمت، ولكن ما معنى العامر إذن؟!

أجابته بغنج طبيعي لم تصطنعه:

- العامر هو من ستختاره ليكون شريكك في حياة سرمدية أبدية يا أمجد، العامر هو من ستتزين به!

تساءل أمجد متأففا:

- وماذا يعني أن أتزين به يا دهب؟!

- أي من ستعيش معها في بيت واحد وستشاطرها حياتك!

تراجع أمجد برأسه حين تفهم ثم قال مبتسما:

- اااه، لقد فهمت، كلمة أحبك هنا إذن تصف ما بين الناس جميعا من ود، أما تعمير القلب يكون بين من سيتزوجون ومن الطبيعي أن العامر هو الحبيب بمفهومنا أما الزوج فهو الزائن الذي يتزين بعامرته، يا لألفاظكم المبهجة يا دهب، تعلمين أنني لست بحاجة للمخدرات هنا، أي عقل سيراد غياب وعيه هاهنا! هنا لابد لك من أكثر من عقل لكي يستوعب كل هذا الجمال!

ابتسمت خجلا ثم أطرقت رأسها فأحاط أمجد رأسها بعضده ليرفعها ثم نظر إلى عينيها مباشرة فقال على ذات تلك الابتسامة:

- انتِ أيضا قد عمرتِ قلبي يا عامرة قلبي.

حاولت دهب تغيير دفة الحوار لدرء خجلها فقالت:

- اه لقد تذكرت يا أمجد، هناك شيء غريب قد حدث معي!

اهتم أمجد فاعتدل ثم سألها:

- أي شيء؟!

أجابته على الفور:

- أميرة رفيقتي.

- ما بها؟!

- لقد تساءلت بعفوية هل الأمير الجديد هو عامري؟

مط أمجد شفتيه فسأل في استغراب:

- وما الأمر الجلل في ذلك؟!

أجابت مبهمة:

- أميرة قرَمية يا أمجد.

امتعض وجهه فسأل:

- لا أفهمك، ماذا يعني ذلك؟!

- القَرم هم أقدم سلالات المملكة المحظورة تقريبا وهم يسكنون كل وديانها وليس سيبتيما فقط، والقرم مشهورون بأن ما يقولونه بعفوية إن لم يكن من الماضي فسيتحقق في المستقبل!

فرك أمجد رأسه ثم قال بريبة:

- وما معنى ذلك على أية حال؟!

- شيئين.. إما أنني سأتزين بالأمير الجديد أو..

قاطعها أمجد مسرعا حيث استأنف حديثها المبتور مضيفا:

- أو سأصبح أنا الأمير!

أومأت برأسها إيجابا فابتسم أمجد ليتابع وهو ينظر إلى نفسه منتشيا:

- هل برأيك أصلح أن أضحى أميرا؟!

ابتسمت بدورها ثم أحاطته بذراعها وأخذت ترسم بسبابة الذراع الآخر قلبا على صفحة ذلك التراب الأصفر، وما أن انتهت من رسمه حتى أضاء تلقائيا بلون أحمر متوهج، فابتسمت لأمجد الذي ابتسم لها بدوره معانقا إياها بذات الوله الذي ارتسم على محياها وأكثر!

***

- أنا فرِحة بقدر لم أخابره من قبل، أنا منتشية حد السماء.

قالتها أميرة فتساءل ناجم بحيرة:

- ماذا حدث، من حمل كل ذلك السرور إلى قلبك؟

ابتسمت لتجيب بغبطة:

- بالطبع دهب، ومن غيرها! لقد قصصت كل شيء عليها!

أجفل قائلا بغضب:

- ماذا تقولين؟! لماذا فعلتِ ذلك يا أميرة! ستقوم بإبلاغ رجال التقصيرات والترحيل الخارجي، لقد انتهيت.. انتهى أمري!

ابتسمت ثانية فقالت بسكينة:

- اطمئن يا ناجم، لن تفعل، فعلى العكس لقد تذمرت لأنني لم أحكِ لها منذ البداية.

عبس قائلا:

- وهي من قالت لكِ ذلك؟! وبالطبع قد صدقتِها؟! لأنك طيبة بلهاء، ربما أنها تبلغ الآن!

قطبت أميرة جبينها ناهرة محتدة:

- ناجم، نحن لا نزيف أو نغاير الواقع في سيبتيما، إن كانت ستبلغ كانت لتقول لي!

صمتت حينا ثم تابعت على مضض:

- من الجلي أنه يتبقى لك الكثير لاكتساب أخلاقنا، أعلم الآن لماذا لم تزر رفيق الأخلاق، لقد أصابتني كلماتك بالذعر والتعصب، الآن قد فقدت بعضا من عملاتي الودية، وبعضا من اتزان نفسي، وكلفتني تقصيرة العصبة وثمنها الباهظ، شكرا لك، سأبيت اليوم بلا عشاء على ما أعتقد!

تدارك نفسه قليلا فابتسم ثم ألان في القول ملاطفا:

- سأبتاع أنا لكِ العشاء يا أميرتي.

ابتسمت عن غير عمد ثم اقتضبت مسرعة فابتسم هو الآخر قبل أن يقول بتؤدة:

- يا عامرتي.. لا تجلدين روحي، لقد اندفعت فقط من أجلك، أنتِ آخر حلوٍ تبقى لي في دنيايَ التعسة المرّة، ولا أتقبل خسارتك بأي حال وتحت أية ظروف، سامحيني، لم أقصد.

رقت أميرة فأردفت مسرعة حين ابتسمت لتطيب خاطره:

- اطمئن يا ناجم، دهب مثلي بل حالها أسوأ.

تساءل في غير فهم ليستجلي حقيقة ما يسمع قائلا بترقب:

- كيف؟!

سكتت قليلا وكأنها تستشير عقلها إلا أنها خضعت في النهاية فقالت:

- دهب أيضا عامرها شخص من خارج سيبتيما.

نظر ناجم إليها حيث يتفرسها بخبث ثم تساءل:

- ماذا تقولين؟!

استأنفت مفصلة:

- إنه أيضا من خارج المملكة برمتها!

أمسك يديها وقد التمع بريق عينيه فقال مغتبطا:

- أريدك أن تسردي لي كل شيء.

سردت أميرة كل ما دار بينها وبين رفيقتها فازداد بريق عينيه اتقادا، حيث أصاخ السمع وأرهفت لحديثها جوارحه، يمحص كلامها بإحكام وما أن انتهت حتى ضمها برفق فقال:

- أنا بالفعل أشعر بالسعادة أكثر منكِ الآن.

سألته أميرة بغبطة:

- ولم كل هذه السعادة البادية؟! حتى بمعرفة دهب فإن الموضوع لم يُحَل، مازلنا لا نستطيع التزيُّن، إلا بعفو فرماني من الأمير!

ابتسم ناجم بخبث وقال:

- أعي ذلك جيدا، لكني سعيد لأنني علمت الآن كيف سآتي بذلك العفو!

***

- الأمير بانتظاركم يا سادة.

قالها المخزنجي فنهضوا جميعا ليحكموا هندمة عباءاتهم إلا أن أحدهم استأذن لقضاء حاجته فأمر المخزنجي أحد حرس بلاط الأمير ليصطحبه إلى حيث يقوض عثرته، ثم تقدم الاثنين الآخرَين إلى حيث يقبع الأمير قائما عن كرسيه، فيبدو عليه الانشغال في شيء حين أولاهم ظهره فتنحنح المخزنجي ثم قال بهيبة وجسارة:

- مولاي الأمير، وفد وادي سيكستوس حاضرا.

لم ينظر إليهم الأمير بل اكتفى بالإشارة بيمناه حتى انصرف المخزنجي تاركا الاثنين يقفان بين يدي الأمير في حين صفق ليخرج الحرس تباعا!

وقف الاثنان في ريبة يراعي كل منهما الآخر في حين أن الأمير مازال يوليهم ظهره عن عمد وقد تجلى ذلك في ابتسامته الخبيثة!

التهمته أعينهما، لحظات باردة هادئة له، صاخبة لهما حتى أدار وجهه بالتدريج ليفغرا فاهاهما سويا من هول تلك المفاجأة!

نظرا إلى بعضيهما في استنكار فقلب ناظريه بينهما وهو لا يفهم سر تلك الدهشة التي اعترتهما فابتسم ليزيح بعضا من ذلك التوتر قائلا:

- لقد شرفتما بلاط الأمير الآمن يا سادة.

لم يرد أحدهما وكانا على ذات هول المفاجأة تتفحصه أعينهما فاستطرد الأمير:

- وادي سيكستوس له باع كبير في الحروب والقتال والانتصارات، وسجل خالٍ تقريبا من الهزائم، لابد أن يعامَل الوفد القادم من سيكستوس كالأمراء.

ابتسم الاثنان على مضض ثم تحدث أحدهما بأنفة:

- ذلك تشريف من سموك يا جلالة الأمير، لكن، أنت لا تعرفنا مسبقا صحيح؟!

ابتسم الأمير مجيبا بتلقائية:

- بالطبع لا يا هذا.

تنهد كلاهما براحة ثم طلب الآخر:

- أستميحك عذرا يا مولاي، لي عندك التماس!

- سل ما شئت، تفضل!

رد ملتمسا:

- نحن متعبان جدا من الطريق الجبلي الوعر بين الواديين والندّاهات في الطرق قد قضّت أنفاسنا، فقد استشاطت غضبا من مرورنا حتى أقنعناهن أننا ما قصدنا إلا السلم وأن ثلاثتنا غير قادرين على شن حرب على سيبتيما بالكامل!

تساءل الأمير باستنكار:

- والميامين؟!

- لم نقابل الميامين يا مولاي، وذلك من حسن حظنا!

نظر الأمير إليه يتفرسه ثم قال مندهشا:

- غريب جدا، ولكنك قد قلت ثلاثتكم، فأين الثالث إذن؟!

ابتسم مهزوزا ثم أضاف بجفاء:

- ثالثنا قد توعّك يا مولاي، ودخل الخلاء تحت بصر المخزنجي.

ابتسم الأمير فقال:

- أعرف أن التحرك والسفر بين الوديان لهو أمر شاق مهلك خاصة لشعب ووفود سيكستوس، وأعلم طبعا أن اعتراض طريقكم من قبل الجان الغجري والعنقاء ونسل النداهات وقبائل الميامين المحافظين لهو أمر مؤسف، فسكناهم لطرق الجبال الوعرة يؤرق الجميع.

صمت قليلا ثم قطع هذا الصمت مستطردا:

- لكن طبعا لن يعجز ذلك جيش سيكستوس على التحرك، صحيح؟!

أجاب أحدهما فورا بشبح ابتسامة:

- صحيح يا سمو الأمير، صحيح، بعضهم يمكن معه ذلك: كالجان الغجري والنداهات، أما العنقاء والميامين؟! فهم شر مستطير ونحمد الله أننا لم نقابلهم في طريقنا!

صاح الأمير سائلا بغضب:

- العنقاء أيضا لم تعترضكم؟!

- نعم سمو الأمير!

راعاهما الأمير لوهلة ثم سأل مستجليا حقيقة الأمر:

- قل لي، ما الأمر الذي تتعلل لطلبه بوعورة الطريق؟!

- الراحة يا سمو الأمير، الراحة لثلاثة أيام على الأقل نزور فيها المزار الأجمل في سيبتيما!

ابتسم الأمير مليا ثم شرع يتفحصهما جيدا فنطق بدهاء:

- كهف الضعاف؟!

- بالطبع يا مولاي.

فكرالأمير قليلا ثم صفق بيديه فحضر المخزنجي وجلًا حيث أمره الأول:

- خذ الوفد الكريم يا مخزنجي، وتوجه بهم إلى أفخم ستيرة بكهف الضعاف!

نظر المخزنجي إلى الأمير في ريبة فأمره في غلظة:

- نفذ الأمر يا مخزنجي.

ارتبك المخزنجي فقال حيث انحنى:

- أمر سموك، مولاي الأمير.

ظل منحنيا فقلداه ثم تقهقروا ثلاثتهم خارجين حيث ألفوا على الباب ثالثهم الذي كان قد قصد الخلاء فانضم إليهم خارجا تاركين حامي الحمى "راسل" على الباب غاضبا مما قد سمعه يدور بالداخل، فأحكم إزاره ولمّ بقايا عمامته مخفيا بها وجهه ثم رحل!

***

جلس أمجد يحذو دهب أمام ذلك الجدول الزرقاء مياهه، أسماك شفافة بأحجام مختلفة تطعم بعضها بعضا، فتقتات الأسماك الصغيرة على فتات من أفواه الأكبر حجما وجميعها تطفو على سطح الجدول تتقافز سويا في تواتر وتناغم!

شابك أمجد أصابعه بأصابع دهب وهو يتابع تلك اللوحة الطبيعية البهية مبتسما حين بتر ذلك الصمت قائلا:

- دهب، أنا آسف.

نظرت إليه مطولا ثم أجابت مندهشة:

- آسف؟! على أي أمر تتأسف يا أمجد؟

راعاها بشغف ولم يرد في حين همت دهب باستئناف حديثها إلا أن صوت المنادي قد قاطع تلك اللحظة حيث دوى صوته من بعيد مناديا:

- يا أهل سيبتيما، يذكركم الأمير بضرورة التبليغ عن أي غريب يمشي بينكم، تنامى إلى علم سموه بتخطيط بعض الدخلاء لأعمال تخريبية وشيكة، حافظوا على واديكم، حافظوا على سيبتيما!

ظل المنادي يكرر ذلك النداء ما دفع أمجد إلى النظر في عيني دهب ثم ما لبث أن أطرق رأسه قلقا حيث رفعت رأسه بكلتي يديها مرة أخرى لتنظر في عينيه مبتسمة فقالت:

- لك عندي مفاجأة أعلم أنها ستدهشك!

تحدث أمجد بلهفة:

- وما هي تلك؟!

ابتسمت ليزداد بريق عينيها فيكسبها رونقا زائدا فوق بهائها حيث قالت وهي على ذات الابتسامة:

- تل العطايا!

***

أوصلهم المخزنجي إلى ستيرتهم بوادي الضعاف والتي ما أن دلفوا إليها حتى شُدهوا وسُلبت ألبابهم!

أضواء زاهية تتبدّل من تلقاء ذاتها بتعاقب محبب، طيور متقدة كالمراجل ترفرف في أماكنها لتنير الطريق إلى الدالفين، وسقف معلق من عناصر لامعة لم يروا لمثلها وجودا في مكان آخر، أصوات هادئة كالموسيقى مزدانة بصوت أمواج مجهولة المصدر، يتخللها دعاء كروان شارد غير مرئي وبلبل يصدح هنا وهناك فيقف على أكتافهم تباعا ثم يطير مرحا!

ظلوا يراعون المكان بانبهار حتى قاطع المخزنجي تلك الحالة من الهيام متنحنحا فقال:

- ثلاثة أيام يا جلالة الوفد، في اليوم التالي سآتي لأصطحبكم حيث مقابلة الأمير.

قليل من الوقت مضى قبل أن يشير أحدهم إلى المخزنجي ليرحل دون حديث وبالفعل قد ولّى!

قال واحد منهم قاطعا تلك اللحظات المتأملة مستفسرا:

- لا أفهم شيئا، ماذا حدث حين تواجدت بالخلاء ولِمَ لم تبلغوا رسالتنا للأمير ولماذا تلك الثلاثة أيام، لم نتفق على ذلك؟!

لم يرد أحدهما حيث انشغلا بمتابعة ذلك السرب من الحشرات المضيئة الطائرة والتي تحوم بحركات بهلوانية في جماعات منتظمة لتخلف وراءها أضواء دائرية وحلزونية!

أعاد سؤاله بعصبية وهو يهزهما:

- أريد من أحدكما أن يفصل لي الأمر حالا، لماذا لم تبلغوا الرسالة للحاكم كما اتفقنا مسبقا؟!

انتبه الاثنان حين لكزهما ثم قال أحدهما:

- لم يكن على أحدنا التصرف من رأسه دون الرجوع!

وأضاف الآخر:

- لابد أن نقابله فنخبره بالتطورات الأخيرة!

سأل ثالثهم بغيظ:

- دون الرجوع؟! الرجوع إلى من؟! لقد أعددنا الخطة ودرسناها مرات ومرات، الأوامر كاملة بجعبتنا، لمَ نرجع إليه ثانية وأية تطورات نبلغها إليه؟!

رد أحدهما مقاطعا:

- ذلك قبل أن نعرف ماهية الأمير الجديد يا أحمق!

توجه إليهما بالحديث ثم سأل بجفاء:

- ومن يكون الأمير الجديد؟!

***

غطّ الأمير وتعالت أصوات أنفاسه!

يسير وحيدا في درب مخيف مظلم، قميء تحفه أشجار سوداء من الجانبين وتحلق فوقه غرابيب سود تنعق بجهر في حين تقضم بمنقارها ريشها وأجزاء من بطنها لتبقرها فتصيح ثم تعيد الكرة لتتساقط دماؤها فوق رأسه من كل حدب!

يحث الخطى ليقابل ذلك الضخم الأسود المتجهم، هذا الكلب المفتق فمه فيعبث ببقايا جلد فمه المتفتق بلسانه وكأنه يحاول حياكته، زمجر الكلب حين رآه ثم هرول باتجاهه ما دعاه إلى الركض فانتبه له الكلب ليركض وراءه هو الآخر!

يزداد صوت أنفاسه اللاهثة أثناء نومه، فيعلو صدره ويهبط سريعا بغير انتظام!

ينظر خلفه بين كل فينة وأخرى ليجد الكلب مازال يعدو خلفه إلى أن توقف الكلب الأسود فجأة وهو ينظر إليه نظرة متقدة مستعرة لتظهر خلف الكلب أفعى تلتف حوله وتطوقه فتزحف على جسده حتى توقفت أمام وجهه!

توقف ليتابع ذلك والغرابيب تنعق فوقه والكلب الضخم يعوي عواء مكتوما، حتى ضربته الأفعى ضربة قاتلة بإحدى عينيه ففقأتها ثم دلفت بداخل تجويفها لتزحف داخلة حتى اختفت بكاملها داخل جسده!

وقف مشدوها يتابع ما يجري إلى أن هبط فجأة من السماء غرابان في حجم الزراف يرفرفان بأجنحتهما الكئيبة لينتشلاه ببراثنهما، ويصعدان به إلى السماء، فيرتسم أمامه على صفحة السماء وجه أشعث أغبر يبتسم تلك الابتسامة الخبيثة لتصدح الغربان في جنون ناعقة بكل ما أوتيت من قوة ثم تصرخ فجأة فتتسابق في الوصول إليه وما أن وصلت إليه جميع الغربان حتى أضحت تخمشه في كل موضع بجسده وسط صراخه، ليسكت فجأة كل شيء.

يزداد تعرقه أثناء نومه ليتشنج جسده في مكانه، ويزمجر كالكلب الجريح وتتعاظم أصوات أنفاسه التي كادت تنقطع!

وعلى حين غرة تتركه الغربان من السماء لينزل بكامل سرعته فيصطدم بالأرض بقوة لتُكسر كل عظمة بجسده من فرط الارتطام، في حين تسودّ الدنيا من حوله فينزلق جفناه تدريجيا ليكون آخر ما يراه ذلك الملثم الذي تبتسم عيناه بخبث فيحكم لف إزاره ويمضي لينادي بحرقة وبكل ما أوتي من بأس قبل أن تنسدل عيناه أخيرا ليقول:

- الحظرد.

صرخ بها الأمير بالفعل في سريره ليستيقظ متعرقا يلهث منقطعة أنفاسه وكأنه كان يعدو في حلمه!

نظر حوله ليرى الموجودات القابعة حوله ففطن إلى أنه بجناحه وبلاطه الأميري يرقد على سريره متوعكا محموما وهو يتمتم ببضع كلمات غير مفهومة!

***

توقف وهي أمام ذلك البناء الحجري الشفاف، أحجار كريمة تشع ضوء بألوان متوهجة، تتبدل ألوانها كل بضع دقائق، حتى أن تركيب الأحجار ذاتها يتبدل فيستحيل البناء من طراز إلى طراز، فتارة هرمي ثم يتبدل ليضحى دائريا فحلزونيا لينتهي إلى الشكل المستطيل وهكذا دواليك!

يتحول البناء إلى كتلة شفافة مصمتة بلون الجليد الأبيض لتصفق دهب بمرح فيتحول البناء إلى مرايا مشعة حيث تظهر صورتهما في كل جنبات البناء لتصفق مرة أخرى فتظهر تلك الطيور اللامعة من كل جانب وتعدو خارجة من ذلك البناء المهيب وكأنها تعبر من الفراغ.

تتجمع تلك الطيور في سرب واحد وأثناء اتجاه ذلك السرب إلى دهب تنظر إلى أمجد فتبتسم وهي تشير إلى هذا الصرح قائلة:

- تل العطايا.

تجمعت الطيور أمام دهب بقيادة أكبرهم حجما وأشدهم توهجا ولمعانا لتربت دهب على رأسه الصغير برفق فيتفرق السرب فجأة في الهواء ليكوّن شكلا مستطيلا فتلتصق بمقدمة البناء وما أن تفعل ذلك حتى تفتح كوة بينها فتنظر دهب باسمة إلى أمجد لتمسك بيده حيث تخطو صوب تلك الكوة دالفة معه إلى داخل هذا البناء حتى يعاود السرب التحليق مرة أخرى لتأفل وتختم رواحها فتنغلق الكوة خلفهما!

***

- أريد أن أقابل الأمير.

قالها لأحد الحراس الذين يطوقون البلاط الأميري فابتسم الحارس ناظرا إلى زميله غير عابئ به فكرر طلبه مضيفا:

- قلت لكم أريد أن أقابل الأمير، مسألة هامة تخص أمن وأمان سيبتيما، وصدقوني إن علم الأمير أنكم قد منعتموني عن لقياه وتأخرت معرفته بالتفاصيل التي أحملها فاعتمدوا عقابكم بأيديكم!

اهتم الحارس فتفحصه قليلا ثم قال:

- انتظر هنا.

تركه ودلف قاصدا المخزنجي ليقابله بالفعل لدى الباب حيث نقل له ما قاله ذلك الغريب وما أن همّ المخزنجي بالتحرك حتى أوقفه حامي الحمى الذي نظر إلى الحارس فولى مدبرا في لحظات حتى بدأ راسل حديثه جافا:

- منذ متى وأنت تدخل للأمير مباشرة لتنقل له الأخبار دون علمي؟!

نظر إليه المخزنجي في هيبة ثم رد متلعثما:

- تلك تعليمات الأمير يا حامي الحمى، صدقني لا أريد ذلك أيضا، إلا أنها تعليماته!

نظر إليه راسل يتفحصه ثم قال مبتسما بلوعة:

- كنت متأكدا من ذلك.

***

- ما هذا الجمال يا دهب؟!

قالها أمجد وهو ينظر حوله إلى تلك المياه الملونة القانية حين تتساقط من سقف البناء لتصب في أحواض صغيرة في الداخل بجانبهما حيث يقفان، فتأتي تلك الحيوانات الغريبة ذات الفراء الأبيض والأزرق صغيرة الأحجام لتتقافز طربا وتنزل إلى تلك الأحواض بحيث تتغير ألوان المياه إلى الأخضر اللامع فالزهري حين تلامس فراءها!

هذا بجانب ذلك الكلب الأبيض الذي يدور حول أمجد ودهب في دوائر مركزية وهو يهز رأسه وذيله بمرح حتى جثت دهب على ركبتيها فمدت يدها إلى نبات أخضر ممتد في الأرض لتقتلعه برفق وتزجه بفم هذا الكلب الذي جثم على الأرض أمامها مطأطئ الرأس حيث سرعان ما نهضت دهب ممسكة بيد أمجد لتقوده إلى خزانة العطايا!

توقف معها أمجد أمام تلك الخزانة التي ما أن استقرا أمامها حتى انعكست صورته عليها إلا أن الغريب أن انعكاس صورة دهب ليست بجانبه.. بل أبواه، وحيثما رأى أبواه بجانبه في الانعكاس على الخزانة الشفافة حتى تكورت عبرة في مقلته عجزت عن حملها فتدحرجت تنزف على خده جارّة أذيال الحسرة!

نظر خلفه صوب دهب التي أومأت برأسها مشجعة فنظر أمامه مرة أخرى ليرى والدته تعانقه ووالده الأستاذ "عارف" يطوقهما بذراعيه في حنان ليسبل بعدها أمجد دموعا لا تنقطع حتى لاحظ أن والده يهمس بشيء لم يتبينه، فأرهف السمع قليلا ليتنامى إلى مسامعه تلك الجملة التي طالما سمعها من والده في صغره:

- انا آسف يا بني، هذا مصيرك، مكتوب هذا القدر من مئات السنين، كنت أتمنى لو كنت طبيعيا.

ظل الأستاذ عارف يكررها، إلى أن تبدل انعكاس صورته بجانب والديه على الخزانة ليظهر انعكاس آخر ليس هو من ضمن أشخاصه، مشهد لوالده ووالدته في شبابهما ورجل آخر يظهر من لباسه أنه طبيب!

تضطجع والدته على سرير حين قالت باقتضاب:

- ذلك يعني أنه لا يوجد أمل ولو ضئيل يا دكتور؟!

رد الطبيب مشفقا:

- الأمل في الله دائما، لكني لا أريد لكما أن تتشبثا بحبائل مهترئة، للأسف، الأمر مستحيل، أنتما الاثنان لا تملكان القدرة على الإنجاب!

أمسك الأستاذ عارف يد زوجته بيمناه وأحاط رأسها بيده الأخرى ثم أسبل الدمع في عينيه، في حين تراجع أمجد بخطوات للخلف مذعورا فتساءل في سريرته:

- ليس لديهما القدرة على الإنجاب؟! إذن ابن من أنا؟!!

***

- لقد أخبروني أنك تريدني، وقد قيل لي أن الأمر يخص أمن سيبتيما! هل ما يقولونه صحيح؟!

قالها الأمير موجها كلامه إلى ذلك الغريب الذي رد بتؤدة:

- صحيح تماما يا مولاي.

أشار إليه بجفاء دون أن ينظر صوبه فتحدث الغريب مهتابا:

- أنا ناجم، صانع الورود!

***

- أميرة!

نادت بها دهب متذكرة أثناء استلقائها بجوار رفيقتها التي ردت لتوها:

- نعم يا دهب.

- أنتِ من سلالة القرم، أليس كذلك؟!

سألت دهب فتفحصتها أميرة قليلا ثم ردت باستغراب:

- تعرفين أنني كذلك يا دهب، لِمَ تسألين؟!

اعتدلت دهب فأردفت:

- لقد تذكرت أمرا مريبا بعض الشيء، هل تتذكرين والدتك حين كانت تخبرنا عن زهرة الخزامي؟

غالبها الحنين فابتسمت متذكرة حيث قالت:

- طبعا أتذكر يا دهب، كانت أياما خوالي مبهجة، كنا محض أطفال.

نفضت دهب عن يديها بعض الغبار الملون الذي كانت تعبث به ثم استطردت سائلة:

- تتذكرين حين كانت تحكي عن استخدام بعض مارقي قبائل القرم لزهرة الخزامي؟! هل تتذكرين فيم كانوا يستخدمونها؟!

صمتت قليلا فصفقت فجأة ثم ابتسمت فردت:

- نعم نعم، لقد تذكرت، كانوا يستخدمونها في حـ..

قاطعتها دهب:

- لماذا لا يصنع ناجم سوى زهرة الخزامي؟! في حين أنها أكثر الزهور صعوبة في صنعها؟! وأطولها وقتا في التصنيع، وكذلك هي أقل الزهور أمانا وأسوأها سمعة من بين مئات الأنواع، ألا تتفقين معي في ذلك؟!

وجمت أميرة قليلا تتذكر، حيث قطبت جبينها فجأة فسألت متوترة:

- ماذا تقصدين يا دهب؟!

***

- ناجم؟! ضعيف..

سأل بها الأمير حين اهتم فأدار جسده ليلاقي ناجم الذي سرعان ما أكمل كلام الأمير مضيفا:

- وادي سيكستوس.. نعم يا مولاي، أنا ناجم، ضعيف وادي سيكستوس.

ابتسم الأمير بدهاء ثم سأله:

- وما أخبارك يا ناجم؟! هل اطمأنت نفسك بالعيش في كهف الضعاف؟!

أجاب ناجم مسرعا:

- جدا يا مولاي، نفسي قد اطمأنت واكتسبت صفات مسالمي سيبتيما الأصليين.

راعاه الأمير مليا ثم قال:

- هل مر عليك الوقت الكافي لتكتسب مثل تلك الصفات الحميدة، إن أناسا قد عاشوا سنينا طوالا يبحثون عن دعة النفس إلا أنهم قضوا بحثا عنها ولم يجدوها!

ابتسم ناجم ثم رد ملينا:

- الفيصل ليس في المدة يا سمو الأمير، الفيصل هنا في مدى استعداد النفس وتقبل الروح لذلك!

تمشى الأمير قليلا حتى وصل عنده فربت على كتفه مبتسما حيث قال:

- جيد جدا يا ناجم، لقد وصلت إلى معانٍ صعب تفهمها ومن المستحيل تقبلها

لدى البعض خصوصا من ضعاف وادي سيكستوس ذوي السمعة السيئة، ولكن وعلى الرغم من ذلك، أنا أستضيف وفدا من سيكستوس، لذلك لا ضغائن بيننا يا ناجم.

ابتسم ناجم غبطة فقال:

- عظيم الشرف لنا بذلك يا مولاي، مكسب كبير هذا التعاون والتضافر إما لسيكستوس أو سيبتيما.

تفحصه الأمير قليلا ثم سأله مباغتا:

- وما أخبار كهف الضعاف يا ناجم، ومتى ستزور رفيق الأخلاق؟!

أفرج ناجم عن ثغره وكأنه قد أصاب مبتغاه فقال مسرعا:

- قريبا جدا.. وبخصوص كهف الضعاف فهذا هو الأمر الذي أريد جلالتك بخصوصه سمو الأمير.

- تحدث يا ناجم ودون مقدمات مزرية.

***

- والآن بعد أن فشلنا في مقابلته ماذا سنفعل؟! لا أرى حلا غير المماطلة والتهرب من الأمير، ولكن أنى لنا ذلك؟!

قالها فصمت قليلا حتى وجد أن كليهما في سكون تام فاستطرد قائلا بصخب:

- هل يستطيع أحدكما أن يخبرني كيف سنتهرب منه؟ لا تتركاني وكأنني أناجي نفسي هكذا، فليرد أحدكما؟!

رد أحدهم مؤكدا بجفاء:

- معك كل الحق، كيف سنتهرب منه؟ خاصة وأن مدة الثلاثة أيام ستنفد ونحن لا نملك ما نماطل به، ماذا سنفعل؟!

- الحل الوحيد أن نتسلل من ستيرتنا، لا يوجد غير هذا!

***

(مقر الـ CIA بالولايات المتحدة الأمريكية)

جلس إلى كرسيه الوثير رجل في العقد الخامس من عمره، أشيب الشعر مصففه ذو ملامح قاسية ووجه مشرب بالحمرة، يرتدي بزة عسكرية تحمل بعض النجوم على كتفيها، حوله على الحوائط شهادات عديدة بلغات مختلفة أغلبها الإنجليزية!

تظهر عليه العصبية حتى دخل إليه شاب يرتدي بذلة عسكرية أخرى أدنى منه مكانة ومظهرا فما أن رآه حتى قام عن كرسيه ناهرا:

- أين كنت؟! تعلم أنني أنتظرك نقيب دونالد.

أعطاه النقيب دونالد التحية العسكرية المنضبطة باحترام جلي ثم أجاب:

- جنرال هوكينز، آسف لتأخري لكن هناك ما استدعى هذا التأخير.

ازدرد الجنرال هوكينز لعابه الذي قد جف فقال مسرعا:

- أفصح يا دونالد، أفصح مسرعا فلا داعٍ لمقدمات لن تجدي.

- المحفل.

قالها فصمت قليلا حتى قاطعه الجنرال سائلا بحدة:

- المحفل الماسوني؟!

- نعم سيدي.

تساءل بحيرة:

- ما به؟!

- رصد المحفل تغيرات جذرية بإحداثيات المثلث البُعدية.

فغر الجنرال فاه ثم تساءل باستنكار:

- برمودا؟!

- نعم سيدي الجنرال، هناك تدخل من غرباء.

جلس متعبا إلى كرسيه ثم خبط على مكتبه قائلا بحدة:

- غرباء؟!

سكت قليلا فاستطرد كمدا:

- غرباء؟! هذا ما كان ينقصنا.

- ليست تلك المشكلة سيدي الجنرال!

سأل ملتاعا:

- هل هناك مشكلة أكبر من ذلك؟!

- نعم سيدي، آخر تدخل للغرباء أعطانا إحداثيات المملكة المحظورة.

ارتقى حاجبا الجنرال دهشة ثم ازداد انفتاح فمه سائلا باستنكار:

- لاتيوم؟!

أومأ النقيب دونالد برأسه إيجابا فاستأنف الجنرال سائلا:

- أي وادي؟!

أجاب النقيب بلكنة متحسرة قائلا:

- سيبتيما.

سأل الجنرال مغتاظا:

- ورجلنا هناك؟! حفيد الحظرد؟!

- فقدنا الاتصال به سيدي وانقطعت إحداثياته.

***

- خيرا يا حامي الحمى؟! طلبت الإسراع في مقابلتي، هل هناك ما يستدعي ذلك؟! لقد أقلقتني!

قالها شاب دقيق الملامح وسيم حلو الطباع تبرق عيناه العسليتان تحت حرور الشمس الهادئ رغم سطوعها وتنبت لحيته الخفيفة لتزيده حسنا.. حيث رد عليه راسل:

- لم يعد الأمر يحتمل السكوت يا جاسر، لقد احترمت وظيفتي كثيرا، واضطلعت بكافة مهامها وحدي بصفتي حامي الحمى وكاتم الأسرار وحافظ مقاليد الإمارة، إلا أن حبي لسيبتيما أعظم مما سواه وأعلى من أية التزامات واهية.

قبض جاسر على كتف راسل فتساءل مضطربا:

- خيرا يا راسل، قد روعتني.

تحدث راسل ساردا:

- الأمير يا جاسر، عهدت نواياه غير طيبة بالمرة، لقد رأيت أمورا كثيرة بفترة حكمه القصير تنذر بهلاك وشر مستطير.

تساءل جاسر بدهشة مستكثرا حديث راسل:

- ماذا حدث يا حامي الحمي؟!

تنهد راسل ثم تحدث بلوعة:

- الأمير استقبل وفدا من ثلاثة أشخاص من وادي سيكستوس.

قاطعه جاسر مستنكرا:

- ماذا؟!

- هذا ما حدث يا جاسر، المشكلة أيضا أكبر من ذلك، عند سؤالهم عن طبيعة رحلتهم إلى هنا ذكروا أن ما اعترضهم في الطريق كانت سلالة النداهات وقليل من الجان الغجري فقط!

استشاط جاسر دهشة فتساءل بكدر:

- فقط؟!

- للأسف يا جاسر، هذا ما حدث!

سأل جاسر مرة أخرى بذات الاستنكار:

- وقبائل الميامين؟!

- لم يقابلوهم بتاتا!

ازدادت الدهشة على قسمات وجهه فسأل ثانية:

- فالعنقاء المخلبية إذن؟!

أجاب بجفاء ولوعة:

- حتى العنقاء لم تكن هناك، كل الخوف أن يكونوا قد أحرقوها بمكيدة من مكائدهم!

- ستنهض ثانية من وسط الرماد.

قاطعه راسل كدرا:

- لكن سيتم ذلك بعد شهر سيبتيمي كامل وبذلك يكونوا قد....

بتر كلامه فاستأنف جاسر مذهولا:

- مروا.. يكونوا قد مروا بجيوشهم!

انقطع الحديث فترة حتى تحدث راسل متذكرا:

- نعم لقد تذكرت، هناك أمر آخر، لا يريحني.

سأل جاسر مستفسرا:

- أي أمر؟!

- ناجم.

سكن جاسر ليبتلع ريقه الجاف بصعوبة ثم تساءل:

- صانع الورود؟

- نعم، وضعيف وادي سيكستوس يا جاسر.

استفسر مستغربا:

- ما به؟!

- قابل الأمير وكان يقول للحرس أنه يريد الأمير بمسألة تخص أمن سيبتيما!

استنكر جاسر سائلا:

- ماذا؟! هل سيعول ضعيف وادي سيكستوس هم أمن سيبتيما؟! هذا ما كان ينقصنا!

أضاف راسل ملتاعا:

- المشكلة ليست في ذلك فقط!

قاطعه جاسر قلقا:

- يا رباه! وهل هناك مشاكل أخرى أكثر مما سردته؟!

- للأسف، المشكلة إنني عندما بحثت وراءه وعرفت ما عرفته، حينها تثبتُّ بنفسي!

***

جلس أمجد على تلك المصطبة الذهبية المحاطة بزهور تنبت إذا تمايلت يمينا وتندثر آفلة إن راحت إلى الشمال متزملة ملتحفة بأوراقها، مختلفة ألوانها وعبقها!

أمسك بيد دهب على ضفة ذلك النهر الزمردي الغريب حيث تتسابق فيه الأسماك غدوا ورواحا، حتى إذا فازت إحداهن تقفز عاليا ثم تحط في النهر مرة أخرى ليتطاير الرذاذ في موضع نزولها لتستحيل كل قطرة من الرذاذ إلى أسماك صغيرة ضئيلة بأشكال مزدانة تنير الطريق حول مسار السمكة الفائزة وكأنه تكريم لها!

يرى أيضا تلك الغزلان المارقة تداعب ولدانها، وحيوان الليرو يتقافز طربا فيدور حول ذاته!

فغر فاه حين راعى تلك الحيّات المزدانة بألوان يسكن لها خلده، قد تلوّت في سعادة جلية، تلتف في مرونة على أذرع الجالسين في حين تتعالى ابتساماتهم وضحكاتهم حيث يمسكها البعض فيحكم لفها ثم يُلبسها لعامرته كقلادة حتى ينفصل الجزء الزائد من الأفاعي تلك ليصنع قلادة لأشخاص آخرين!

تنهد أمجد بضيق فتنهدت دهب بدورها ثم قالت:

- من الواضح أن المكان هنا لا يعجبك يا أمجد!

رد بجفاء:

- دهب، هنا لا مدعاة أبدا لعدم الإعجاب، إني أتفاجأ بجمال كل مكان أكثر من سابقه، إلا أنني بصراحة أرهب تلك الثعابين!

ردت دهب مستفسرة حين قطبت:

- ثعابين؟! ماذا تعني تلك الكلمة؟!

أشار أمجد وجلا إلى تلك الحيات فاستأنفت دهب:

- اه، هل تقصد الأقرطة الحية؟!

تساءل أمجد باستغراب:

- الأقرطة الحية؟!

سأل فهزت دهب رأسها إيجابا ثم صمت قليلا حيث استطرد هو آنفا:

- وهل تظنين أنه بمجرد تغيير اسمها من الثعابين للأقرطة الحية سأطمئن وستصبح ودودة بالنسبة لي؟! والله إن تم تسميتها چيلي بالمانجو، ستظل في ناظريّ ثعابين وحيات مخيفة!

سكت مرة أخرى لفينات ضئيلة فابتسمت دهب لطريقته التلقائية ثم سرعان ما استأنف مشمئزا:

- أنا أستغربكم حقا يا دهب، تلبسونها كأقراط وقلادات، كيف لكم أن تفعلوا ذلك؟! نحن كنا نضربها بالمعول!

تبدلت ملامح دهب إلى العبوس ثم قالت:

- تضربون تلك الكائنات الرقيقة؟! يا لكم من قاسين، إلا أنك غيرهم يا عامري، صحيح؟!

طلب متذمرا حيث قال:

- دهب، من فضلك، لنغادر هنا.

سألته دهب ببراءة:

- هل أنهيت مشروبك؟!

- تقصدين هذا المشروب الذي لا أعلم ماهيته.. نعم أنهيته، هيا بنا.

قالها ثم أحس بشيء يزحف على منتصف ظهره صاعدا إلى رأسه فانتصبت جميع عضلات جسده رعبا ثم سأل بخوف حد الموت:

- دهب، هل ما أفكر به صحيح؟! هل ما يزحف علي ذلك هو..

لم يكمل كلامه حيث غمزت له دهب تومئ برأسها إيجابا مع شبح تلك الابتسامة فكتم أنفاسه حتى التف ذلك القرط الحي ليزحف على بطنه وينتصب برأسه ليقابل وجه أمجد الذي أغمض عينيه في فزع!

أحس بشيء يلكزه برفق على رأسه وكأنه يدعوه لفتح عينيه، حيث فتحهما ببطء فوجد القرط قد تبدل لونه للأزرق اللامع في حين زحف بذيله حيث ذراع أمجد وكأنه يستجديه ليمسك به وبالفعل أمسكه بعد محاولات وتشجيع من دهب، ومازالت رأس القرط تقابل رأسه!

أمسكه أمجد من ذيله ببطء وحذر فانسل زاحفا حتى التف بأكمله على يده ملاطفا، اكتسب أمجد بعض القوة فطأطأ على جسده الذي يلتحف ذراعه، أحس بالألفة مع القرط فابتسم أخيرا على مضض ثم أمسكه برفق ليحل نفسه عن ذراعه ويقربه رويدا من رقبة دهب وما أن اقترب منها بشكل كاف حتى التف كعقد حقيقي على رقبتها مزدانا بلون زهري مضيء!

ابتسمت بشدة في حين ابتهج أمجد قليلا للونه المريح، إلا أن قلبه مازال يخفق إثارة حتى قالت دهب منادية:

- الفضل!

أضاف أمجد موجها حديثه إلى دهب:

- من تدعين؟!

ابتسمت دهب في حين استقر أمامها شاب وسيم بابتسامة هادئة فسألته مرة أخرى:

- الفضل من بعد إذنك، سنغادر.

- أجيبيني! ما الفضل هذا؟! لا فضل لأحد علينا، الفضل لله فقط، هل ستكفرين الآن؟!

قالها أمجد فابتسمت دهب كعادتها ثم أخرج الشاب المستقر أمام المصطبة لوحا نحاسيا صغيرا لامعا من وراء ظهره مع ابتسامته الهادئة فقال:

- الفضل يا سيدتي!

التقطت دهب اللوح النحاسي وقرأت ما به ثم ابتسمت له ابتسامة واسعة ساحرة فقامت لتتجه إليه معانقة حيث وقف أمجد بدوره مهتاجا ثم قال باحتداد:

- ماذا ستفعلين يا رخيصة أنتِ؟!

تساءلت دهب باستغراب:

- ماذا هناك يا عامري؟! لقد روعتني!

- لا تهربين من الإجابة، ودعكِ من عامري وهذا الكلام الآن وأجيبيني، ماذا ستفعلين؟!

أجابت بتلقائية:

- سأعانقه يا أمجد!

قاطعها حين استشاط غضبا وقد ردد كلامها بتهكم وغيرة:

- ما تلك السهولة يا دهب؟! سأعانقه يا أمجد! تبا لتلقائيتك هذه؟! هل تجلسين مع عفاف زميلة فصلك بمدرسة سيبتيما الثانوية المشتركة؟!

- لا أفهم مقصدك صدقني يا أمجد!!

حاول أمجد السيطرة على أعصابه المنفلتة حين تنامت أطياف المحيطين إلى ناظريه وقد بدأوا يراعون ما يحدث فقال:

- لماذا تريدين عناقه؟! أنتِ حتى لم تطلبي عناقي أنا يا متبلدة، أجيبيني ولا داعي لتلك الابتسامة الساحرة الآن فقد شارفت أن أضعف وأعانقك أنا، لا تضعفيني وأنا أتشاجر معكِ ثانية، لابد أن ننهي الشجار أولا، لا تقاطعيني بابتسامتك الخلابة هذه.. يا إلهي ما أجملها!

وقفت دهب مشدوهة لا تعرف بم تجيب أو ماذا يقصد فأجابت ببراءة:

- أنا أسدد الفضل يا أمجد، هل نسيت مجددا؟! العملات الودية، العناق!!

لكز أمجد جبينه بكفه ثم سكن قليلا ليخبو إحراجه، فقال متذكرا وقد حاول أن يبدو متماسكا:

- وليكن! دعيني أسدد ذلك الفضل عنكِ، هل ستسددينه وأنا بجانبك؟! ماذا أقول لرفقائي بكهف الضعاف؟! أنا أيضا أجيد العناق، تعال هنا أيها النادل!

اقترب منه النادل فسأل أمجد:

- ما حساب ذلك الفضل؟!

أجابه الشاب بهدوء وابتسامة:

- عناق وربت على اليد وعبارة امتنان.

- لماذا؟! ماذا طلبنا؟ أنتم مغالون جدا بأسعاركم!

قالها ثم ضم الشاب في عناق قصير فربت على يده وقبّله على خده قبلتين سريعتين حيث قال:

- شكرا لك على كرمك! دفعت لك قبلتين كبقشيش!

ابتسم الشاب منحنيا في تحية لأمجد الذي ابتسم بدوره فأمسكت دهب بيده ثم قالت بابتسامة واسعة قد زينت محياها:

- شكرا على التسديد يا أمجد، لنغادر.

رفع حاجبيه في دهشة ثم تساءل:

- ذلك فقط؟! قد سددت الفضل بذلك العناق وكلمات الشكر؟!

ردت ضاحكة:

- نعم يا أمجد، هو ذلك فقط.

ابتسم فقال:

- يا رباه!

قالها فصمت قليلا يتنسّم هذا الهواء العليل ثم استطرد مرهفا حين نظر إليها تلك النظرة الولهة:

- إنني لم أمكث بسيبتيما منذ تلك المدة الكبيرة، إلا أنني أشعر بقلبي ينتفض وكأنه يزيل عنه آثار السواد من أيام قد خلت! أنا حقا أحب سيبتيما وأعشقك يا دهب، أعشقك يا عامرتي!

قالها ثم أمسك بيد دهب فرفعها حتى وجهه ثم لثمها برفق في حين أغمضت عينيها ثم جنّت وجهها بيدها الأخرى ليبتسم أمجد حيث فعلها التلقائي من فرط الخجل!

***

(المحفل الماسوني – مكان سري)

على أرضية شطرنجية غابرة لبهو عظيم قد ارتفعت حوائطه بلون أسود مقيت، كما أنه خلا من الأثاث كذا المفروشات، مضاء بأنوار قرمزية هادئة تضفي الرهبة حتى في نفوس قد اطمأنت!

تراصّت أمام ذلكما العمودين المزدانين برسومات بارزة لفهود وأفاعي منتصبة، قابعة أيضا تلك القطع الصخرية لتماثيل تشبه آلهة قدماء المصريين وفي آخر ذلك البهو الفسيح قد ارتكز عرش من ثلاث وثلاثين درجة من السلالم الصماء السوداء القاحلة!

يعلو الدرجة الأخيرة مصطبة زرقاء قد ثُبت عليها كرسي من خشب الصندل والكافور المطعم بالزان يتخلله الذهب في بعض ثناياه غير أن متكَأيه يحذوان شكل الفُلك وفي مقدمتهما رأس قسورة غليظ الخلقة، يعتلي ذلك العرش وحيدا كهل طاعن، غير أنه مهندم بدرجة كبيرة يرتدي بزة ذات لون أحمر بالكامل وقبعة قد نُكِت عليها نجمة داود باللون الأصفر. تبدو الصرامة على ملامحه وتغزو الرصانة قسماته، قد ثُبتت خلفه لوحة غريبة لعين واحدة يظهر أنها تطلع على كل شيء حيث تحركت فجأة العين داخل تلك الرسمة لتدور في محجرها وكأنها تبحث عن شيء ما!

سعل في تؤدة ثم تحدث مخاطبا اللاشيء ناظرا إلى ذاك الركن المظلم الذي لا يتماشى وهذا البهو العظيم:

- قد علمت بأمرِك، لِمَ تتسللين كعادتك؟ تعلمين أنني لن أخطئك أو أتغافل حضورك!

جاءه الرد غامضا من الفراغ المظلم بنبرة صوت أجش قد خلا من المشاعر بتاتا دون مدلول لصاحبه:

- لن أرتاب في أمرك، ما كان لعاميٍّ أن يرتقي الثلاث وثلاثون، هنيئا لك ما صنعت، يا صاحب السمو.

ابتسم الكهل بغبطة ورضوان ثم أطرى قائلا:

- ولكِ المثل مولاتي، ما كان لأحدنا أن يخاطب مولانا دون حجاب غيرك، لقد اشتقنا كثيرا، أما قد آن؟!

تجهم الصوت بغتة ثم أفضى:

- ذلك الخبر خبركم يا بني صهيون!

ران على صوت ذلك الطاعن الخشوع ملينا:

- أعلم وعزة مولانا، إلا أن تشوقي إليه قد أرغمني على السؤال، حقا أشتاق إليه، وأروم جنته!

- إن كنت تطلبها فاعمل ما يزلفك!

ابتسم رادا ببهاء وزهو:

- العمل يجري على قدم وساق، الفوضى عارمة، والأخلاق قد اندثرت في أرجاء الكون، لم يعد يرى الأب حرجا في قتل ابنه ولا الولد في نحر أبيه، تجمعت الأصلاب في الأمهدة، وقد أصبح المؤمنون غرباء في ديارهم، حتى الأطقس والنظم الطبيعية قد اختلت موازينها، غير أن...

قاطعه الصوت باحتداد وغلظة ما أرجعه على كرسيه خلفه بغير عمد أو إدراك ثم تحركت العين وراءه في الرسمة بجنون تدور وكأنها عين بشر حقيقية وليست مجرد رسمة معلقة على جدار أسود منمق:

- لا.

سكت الصوت هنيهة ثم استطرد بهدوء إلا أنه احتفظ بذات نبرة الحدة والغضب مستأنفا:

- الفوضى لم تعم كافة الأرجاء، تبقى ركن واحد مقيت مازالت تحكمه الفضيلة، أظنك تعرفه جيدا!

رد في خنوع وانكسار وقد تشبثت يمناه برأس القسورة التي ينتهي بها متكؤه:

- أعرفه مولاتي.

- لم يبق غيره ليُحَل وثاق ملكنا.

خضع الكهل في قوله قائلا:

- مولاتي، أنا..

قاطعته بغضب مرة أخرى:

- لن أستمع إلى ترهات أيها الكاهن، مولانا قد أضنته القيود، ولا تطور بينكم حتى الآن، فهو يتابع ما يجري جيدا من محبسه، لم يتبق الكثير، الكل أنجز عداك!

هبّت نسمات عاتية من الهواء ذات صوت صاخب وتحركت العين خلفه بجنون وشر مستطير فقام عن مجلسه مسرعا ثم انحنى باحترام فسجد ثم قال:

- أمرك يا مولاتي الدابّة، أبلغي تحياتي لمولانا الأعور، وأخبريه أنه لم يتبق الكثير، رجالنا هناك قد أوشكوا، سلامي إلى سيدي المسيخ، سلامي إلى مولانا الدجال!

رد الصوت بهدوء مستهزئا:

- هو لا ينتظر سلامك أيها الكاهن، هو ينتظر ما هو أعظم عملا من ذلك.

قالها الصوت فانقشعت تلك النسمات من الهواء الذي قد عوى ثم هدأت حركة العين فسكنت وها قد عادت رسمة على الجدار من جديد وغرق المكان في بحر الهدوء مجددا بعد أن حطت موجات الصخب!

***

- خيرا يا جاسر؟! طلبت مقابلتي وقد أرسلت بأن ذلك لضرورة ملحة، جاسر، إن كان الأمر بخصوص الزينة فأنا...

أسهبت دهب فقاطعها جاسر مستوقفا حين قال:

- أعلم حقيقة مشاعرك جيدا يا دهب، ليس هذا ما أردتك من أجله بتاتا.

امتعض وجه دهب حرجا ثم تساءلت بلين:

- إذن ما الأمر الجلل الذي أرسلت إيعازا به في طلبي بمثل تلك السرعة؟!

- صديقتك!

أجابت مستنكرة:

- صديقتي؟!

رد جاسر بجفاء مؤكدا:

- أميرة.

- ماذا بشأنها؟!

- أريدك أن تحذريها.

تساءلت بقلق قد تجلّى على ملامحها الرقيقة فلم يفضّ عنها رونقا قائلة:

- مم أحذرها يا جاسر؟!

أجاب بإيجاز:

- ناجم!

استنكرت دهب سائلة بخوف:

- هل علمت بأمرهما؟!

- نعم قد علمت، إلا أن المشكلة ليست في هذا!

- فما الأمر إذن؟!

تنهد جاسر مليا ثم قال:

- حامي الحمى، بعد اطلاعه على بعض الطلبات المقدمة للأمير والخاصة برعيته وكذلك ضعاف الوادي، وجد أن ناجم، قد قدّم أكثر من سبعة طلبات للحصول على عفو فرماني من الأمير ليسمح له بالتزين من أكثر من سبع بنات من مسالمي سيبتيما والمخزي في الأمر أن أميرة ليست من ضمنهن!!

أطرقت دهب رأسها بلوعة فتساءلت متحسرة:

- ماذا؟!

رد جاسر على مضض:

- أميرة لم تعمر قلب ناجم يا دهب، ناجم يحاول الوصول إلى سكن المسالمين بأن ينزل من كهف الضعاف وذلك عن طريق التزين بأيّهن، ناجم يريد التعامل مع السيبتيميين مباشرة لسبب أجهله حتى الآن، إلا أنه بالتأكيد ليس خيرا على الإطلاق!

***

- سمو الأمير أنا أهاب الإفصاح، أستميح جلالتك عذرا قبل البوح والتشكيك في نزاهة أحدهم، أريد منك أن تعطيني الأمان المطلق حتى أتحدث!

احتد الأمير عليه ثم صاح بصبر نافد:

- ناجم، لقد تماديت فوق ما يستدعي الأمر، أفصح بما يعتمل في قلبك وأفرغ ما في جعبتك يا صانع الورود.

تقهقر ناجم خطوتين خلفا بتلقائية ثم سرعان ما ازدرد لعابه فقال هلعا:

- يوجد خائن بيننا يا مولاي، خائن باع سيبتيما وبخسها حقا!

عبس وجه الأمير وانكمش جبينه ذعرا فتساءل محموما:

- خائن؟! كيف ذلك؟! ومن يكون؟

أجاب ناجم بخشية وهو يطرق رأسه أرضا بحذر:

- دهب.

انزوى الأمير متجنبا نظرات صانع الورود حتى لا يلحظ ارتباكه ثم تساءل مطرقا رأسه بأسى:

- دهب؟!

- نعم.. نعم دهب يا سمو الأمير، لقد خذلتنا جميعا وخانت سيبتيما!

مط الأمير شفتيه في استنكار ثم حدث نفسه جهرا:

- دهب من أكثر شخصيات الوادي ولاء، كيف لها أن تخون؟!كيف ذلك!

ازدرد ناجم لعابه مرة أخري ثم قال بتؤدة وبنبرة حزينة قد اصطنعها بنجاح:

- للأسف يا سمو الأمير، هذا ما تظهره للناس أما ما تبطنه فهو أمر آخر، الحقيقة التي خُبئت بداخلها مرة كالحنظل.

ران الصمت على الأمير مخرسا حتى أنفاسه التي تباطأت ثم تحدث أخيرا ولكنة الابتئاس تغشاه:

- كيف خانت سيبتيما يا ناجم؟!

ابتسم ناجم تلك الابتسامة الصفراء دون أن يلمحه الأمير حتى قال بنبرة درامية:

- لقد ضربت دهب بتحذيرات سموك عرض الحائط ولم تبالِ البتة!

نزل الأمير عن كرسيه الوثير مسرعا وكأنه يهم بضرب ناجم ثم أمسكه من كتفيه بشدة فانهال غاضبا:

- كيف خانت سيبتيما يا صانع الورود، انطق!

قال بصعوبة وهو يواري وجهه بكفيه خوفا:

- تسترت على ضعيف من خارج الوادي بعد تحذيرات سموك بالإبلاغ!

فغر الأمير فاه وارتقى حاجباه كمدا ثم تساءل بغير تصديق:

- ماذا؟! ضعيف من خارج سيبتيما؟! وذلك بعد أن أطلقت المنادين في بقاع سيبتيما؟!

- نعم يا مولاي بعدها، إلا أن المعضلة أكبر من ذلك!

تساءل الأمير بفزع:

- أهناك أقبح مما قلت؟

- نعم، إنه ليس فقط من خارج سيبتيما، إنه من خارج مملكة لاتيوم برمتها.

***

جلست أميرة تنتحب ببكاء مكتوم وقد افترشت أرضية ذلك المرج ذي الزهور الزهرية، إلا أنه ومع غزارة بكائها استحالت ألوان تلك الزهور إلى اللون الأسود ثم هبّت ريح عاتية إذ تعوي وكأنها غاضبة!!

ربتت دهب على كتف أميرة التي مازالت تتلقى عبراتها على وجنتيها الملتهبتين، فقالت الأولى مطيبة:

- أميرة، أنا آسفة جدا لم يكن علي أن أغامر بكسر خاطرك، إلا أنني قد شق علي أن تحيي الوهم حتى آخره.

لم ترد أميرة بل ازداد بكاؤها فاشتدت الزهور سوادا من حولها وشرعت تذبل واحدة تلو الأخرى فتهوي ساقطة، ثم اشتد عواء تلك الريح التي تعبث بأطراف إزاريهما، فسرعان ما احتضنتها دهب وقالت ملينة:

- اهدئي يا أميرة، اهدئي يا حبيبتي، لقد بدّلتِ جو المروج حوالَينا بغمامة قلبك، أنتِ تعلمين جيدا أنه لا يساوي دمعة واحدة من عبراتك، أنت واحدة من أجمل بنات الوادي وأطيبهن قلبا، ماذا كنت تنتظرين من ضعيف وادي سيكستوس؟! ثم كيف أنك تفضلين هذا الضعيف على شباب الوادي الذين يرجون رضاكِ!

نظرت إليها أميرة بجفاء ثم قالت بغير تفكير:

- وأنتِ حين فضلتِ أمجد، ذلك الضعيف من خارج المملكة كلها على جاسر سيد شباب الوادي، هل كان تفكيرك سليما وقتها وحتى الآن؟! وما آخرة ذلك؟! حتى وإن عمرتِ قلبه، كيف سيتزين بكِ؟ هل تجاهلتِ سيبتيما ودستورها؟! لم أنتِ صامتة الآن؟!

لم تقو دهب على الرد فأطرقت رأسها حيرة وخجلا إلا أن أميرة قد أحست بثقل ما ألقته على مسامع صديقتها وألجمت قلبها به فاحتضنتها قائلة:

- أنا آسفة يا دهب، آسفة يا صديقتي!

ابتسمت دهب جزعا ثم قالت بأسى:

- لا عليك يا أميرة.

***

دخل المخزنجي مقتحما بلاط الأمير بارتباك لاهثا حتى رآه الأمير فقال مستفسرا:

- مالَك يا مخزنجي؟ لماذا تركض هكذا؟ ولِمَ يبدو عليك الارتباك؟!

ازدرد المخزنجي لعابه ثم التقط أنفاسه المتقطعة فقال مبتئسا:

- الوفد يا مولاي!

سأل الأمير مبهَما:

- أي وفد؟

-

- سيكستوس يا مولاي، وفد وادي سيكستوس!

تساءل مرة أخرى مستفسرا:

- ماذا بشأنه؟!

- لم أجده في ستيرته!

تبدلت ملامح الأمير فحدث نفسه قائلا: (ماذا يحدث هنا؟! ما بال تلك المصائب والكوارث تأتي تباعا! لا أعلم لِمَ يحدث هذا معي؟! شخص من خارج المملكة لا أعرف لِمَ يخطط وإلى أي أمر يرمي؟! ووفد سيكستوس الملعون غير موجود، يا تُرى لأي شر مستطير يخططون.. ماذا دهاني!! وبم أقحمت نفسي؟ يا لفرحتك الآن يا راسل حين تلم بالأمر!).

- مولاي.. مولاي!

استفاق الأمير على نداء المخزنجي فقال:

- كيف حدث ذلك يا مخزنجي، كيف لا تجدونهم؟!

أجاب مفصلا:

- بعد أن سكنّاهم بستيرتهم في كهف الضعاف، تركناهم إلى أن مرت الثلاثة أيام اللائي أرادوها للراحة، وعند ذهابنا للإتيان بهم لم نجدهم مطلقا! ما وجدنا غير الستيرة متروكة!

فرك الأمير جبينه ثم أطرق رأسه كدرا فنفث هواءه بضيق وقال بنبرة هادئة شابها الأسى والاضطراب:

- اذهب أنت الآن واتركني يا مخزنجي.

انحنى المخزنجي ثم تقهقر دون أن يوليه ظهره فانصرف تاركا الأمير في حيرة ماحقة قد امتزجت بأسى مدقع.

***

- لقد اصطحبتك معي إلى تل العطايا إيعازا من طلبك كما أردت، هل من الممكن أن تجلي الأمر أمامي؟! لماذا تريد أن تأتي إلى هنا بعد آخر مرة، لقد انهرت هاهنا تماما في المرة السابقة، هل لي أن أفهم؟!

قالتها دهب محاولة استجلاء أمره الذي ارتابت فيه فأمسك أمجد يديها ثم ربت عليهما حيث أطرق رأسه حينا ثم رفعها قائلا:

- المرة الماضية حين جئت معكِ هنا ووقفت أمام خزانة الواقع بداخل تل العطايا، رأيت شيئا غريبا بحق وهو ما دعاني للانهيار وقتها!

قاطعته بحنو بالغ:

- قد رأيتك يا عامري، إلا أنني لا أعرف ماذا رأيت يومها!

أجاب أمجد بتأثر:

- رأيت والدي ووالدتي رحمهما الله، كانا عند طبيب والذي أخبرهم بأن أملهم في الإنجاب مستحيلٌ، فهم لا يستطيعون لذلك سبيلا!

تحدثت بصعوبة مستفسرة:

- ماذا؟! إذن ابن من أنت؟!

تمشى قليلا بتردد وهمة مُثبطة حتى توقف متشبثا أمام تلك الخزانة مباشرة فقال بنبرة خافتة:

- هذا ما قد أتيت لأجله اليوم، هذا ما جئت لأسبر أغواره.

***

- أمر سموك يا مولاي!

تقدم الأمير نحوه بتؤدة ثم اقترب أكثر فألصق رأسه بمثيلتها عنده حين قال برصانة محاولا أن يبدو على قدر من الثبات يمنعه من الارتباك:

- الأمر الذي أريدك فيه يا مخزنجي على درجة عالية من الخطورة والسرية، ولابد له من أن يتم، مهما كلفنا هذا الأمر!

رد المخزنجي بارتياب:

- أي أمر يا مولاي؟!

خبط كتفه برفق ثم أضاف:

- قبل أن أوافيك بسر ما أريدك فيه، أريد أن أُذكّرُك بأن الأمور قد ساءت بما فيه الكفاية، وأنه لا يمكن أن تزداد سوءا، يكفي هروب ذلك الوفد من تحت ناظريك.

نظر إلى الأرض بحسرة ثم رد خجلا:

- مفهوم يا مولاي!

التمعت عينا الأمير ثم أضفى على نبرته بعضا من الإثارة قائلا:

- أنا أرومك قويا جاهزا لأمر هام!

قالها الأمير فسكن قليلا ثم تحدث بحذر:

- أريدك أن تقبض على خائن من خارج المملكة، موجود هنا للانقلاب على سيبتيما، كما تنامى إلى علمي أنه بدأ في خطته بالفعل، فقد طفق يحشد أتباعا له موالين لمخططه، من داخل كهف الضعاف ومن خارجه.

انفرج ثغر المخزنجي برهة ثم أجاب بحماس:

- أمر مولاي نافذ، لا نجاة لمن أراد بأهل سيبتيما سوءا يا أمير.

***

توقف أمجد منزعجا أمام تلك الخزانة التي انبعجت فيها صورته ثم تحورت فانبثقت عنها صورتان قد محوتا صورته تماما وكأنه لا يقف أمامها.. صورتا والده ووالدته بالفعل!

تحدثت والدته بانزعاج موجهة حديثها إلى زوجها الأستاذ عارف:

- ماذا سنفعل يا عارف، ماذا سنخبر الولد حين يكبر؟

رد عارف بأسى:

- أجهل حقا ما سأفعله يا حبيبتي! ذلك من حظه العثر، لا شيء بأدينا كي نفعله.

- هل ستخبره؟!

رد باستنكار سلبا:

- لا، طبعا لن أخبره، سيكون ابننا وسوف نكتبه باسمينا وكأنك قد حبلتِ به.

تحورت الصورة مرة أخرى ليظهر والده الذي اتكأ على كرسي بجوار أمجد حيث كان وقتها رضيعا فقال محدثا إياه:

- لقد كُتبت عليك أمورٌ من آلاف السنين، قد كُتب عليك أن تكون حفيد الملعون، حفيدا لأكثر شخوص التاريخ المظلم سوادا وظلمة وقتامة، أنت مجرد روح، روح عابثة قابعة في كل بقعة وَخِمَة من الأرض، لا يعلم أحد يوم ميلادك أو كيف وُلدت ولا حتى سيعي أحدهم موتك، لا نعرف لك أبا أو أما أو قريبا!

كل ما أعرفه أنك الحفيد الخامس والعشرين للحظرد.. أنت روح شريرة أراد الله لها الصلاح.. احكم سيبتيما.. احكم لتعود أمجادها وتبدأ أمجادك.. ليتم تخليص روحك.. احكم يا أمجد!

شهق أمجد صارخا ثم توارى من أمام الخزانة فانصهرت الصور المتحورة عليها ثم سرعان ما ابتلع ريقه فقال مصعوقا:

- المخطوطة!!

أمسكت به دهب بلهفة ثم تساءلت بقلق:

- المخطوطة؟! مالها يا أمجد؟! ماذا رأيت بالخزانة؟!

سحبها برفق في أحد الأركان فانزويا سويا ثم افترشا الأرض حين قال أمجد:

- اجلِسِي وسأخبرك بكل ما رأيت بالتفصيل!

***

دخل المخزنجي إلى بلاط الأمير بهمة وجسارة فلكز موضع قلبه بغلظة ثم قال بهيبة:

- مولاي!

رد الأمير في عجلة من أمره وقد ارتسم الارتباك على محياه قائلا برهبة من أراد استجلاء الأمر:

- ماذا صنعت يا مخزنجي؟!

- للأسف يا مولاي لم نجد الخائن في ستيرته هو الآخر!

رد الأمير متسائلا بخيبة أمل بعد أن تجعدت أساريره:

- ودهب؟!

أجاب متماسكا:

- دهب هي الأخرى غير موجودة بسكنها يا مولاي!

صمت الأمير قليلا فأطرق رأسه ثم قال بحسرة:

- اذهب يا مخزنجي، لتنصرف.!

تحدث المخزنجي بحذر مقاطعا بلطف:

- لكن يا مولاي..

اهتم الأمير فسرعان ما قال:

- ماذا هناك؟! هل من جديد؟!

- حين سألت الضعاف الذين يسكنون الكهف، أخبروني بأن آخر مرة قد شوهدت دهب، تم رؤيتها مع شخص غريب عن سيبتيما وعن كهف الضعاف، كانوا يرونه للمرة الأولى!

أمسك الأمير بكتفي المخزنجي ثم أشرقت بوادر ابتسامة على ثغره فقال مسرعا:

- ألم يخبروك بوجهتهما؟!

ابتسم المخزنجي بثقة ثم أجاب:

- تل العطايا يا مولاي!

***

غمغمت دهب في ذهول ثم ما لبثت أن أطبق السكون عليها وأمجد بل على جميع الموجودات حولها فالطيور توقفت عن غنائها وسكنت نسمات الهواء، ولا تعلم هل انكمشت تلك الزهور وتبدل لونها من الزهري إلى القرمزي أم أن هذا ما قد خُيل لها!

قالت بصوت متحشرج بعد فترة صمت دامت لدقائق مرت كعام:

- الحفيد الخامس والعشرون للحظرد؟!

تحدث أمجد بنبرة هادئة محاولا تلطيف ذلك الوقت العثر:

- ماذا يعني هذا الكلام يا دهب؟ ولِمَ ظهر عليكِ الارتياب والقلق حين سردت ما رأيته بتلك الخزانة؟!

استردت دهب أنفاسها ثم نفثت هواءها كزفرات مريحة فردت:

- أنت المنتظر يا أمجد، أنت تحقيق النبوءة، أنت الدعوة الوجلة التي دعاها أهل سيبتيما جميعا بأن لا تتحقق، لكي أكون صريحة معك.. إننا لم نردك.. إلا أنك بالفعل قد وصلت، ومن الواجب أن نحقق النبوءة لأننا لا نعي ما ينتظرنا من إغفالها!

- أي نبوءة؟ أنا لا أفهم شيئا!

- النبوءة التي قرأتها بالمخطوطة يا أمجد، الحفيد الخامس والعشرون للحظرد لابد وأن يحكم سيبتيما!!

***

- كيف حالك يا راسل؟ لقد مرت فترة ليست باليسيرة لم تشاورني بالأمر!

تنهد حامي الحمى فأطرق رأسه في خنوع ثم قال:

- مولاي، أستشعر غير ذلك، أستشعر استغناءك عن خدماتي، ولكن وقتما تحتاجني ستجدني سامع طائع.

ابتسم الأمير بحنكة ثم أضاف وهو على ذات الابتسامة:

- أنا لا أطيق الاستغناء عن خدماتك ومشورتك يا حامي الحمى، صدقني مكانك محفوظ دائما!

- لا يهم مكاني يا مولاي، لا أهتم لحفظ مكاني، المهم سيبتيما ومكانتها أن تكون كذلك سيدي.

ابتسم الأمير ثانية ثم نزل متهدجا عن كرسيه فقال مسرعا وكأنه قد أصاب وأحرز ما يرومه من هذا الحديث:

- بالضبط يا حامي الحمى، سيبتيما هي الأهم!

- قطعا يا مولاي!

اختلس الأمير تلك الابتسامة الصفراء الفاقع لونها في غبطة ثم تحدث هادئا:

- ومن يخون سيبتيما يا راسل؟ ما يكون جزاءه؟

صمت راسل بعضا من الوقت يفكر مليا حتى رد مستفسرا:

- يخون؟! وهل هناك من يجسر، لقد نسينا تلك الكلمة وأزلناها من مصطلحاتنا، إن معظم المسالمين حتى لا يعلمون ماذا تعني؟! من ذا الذي يجسر على الإتيان بمثل تلك الفعلة المحرمة هنا؟! إن جزاءها لهو الرحلة الملعونة التي لا عودة منها!

رد الأمير بأسى مصطنع:

- هناك من يساعد شخصا من خارج سيبتيما ليوقع بالوادي، هل تلك ليست خيانة من وجهة نظرك يا راسل؟!

أجاب راسل مدافعا:

- لم يسبق أن تقدم أحد المسالمين بمثل تلك الفعلة الشنعاء ولا أعتقد أن أحدهم يمكن أن يفعل! بالتأكيد هناك خطأ ما!

- وما قولك إن ثبت أن أحدهم قد فعل؟!

- لا توجد تقصيرة للخيانة في دستورنا يا مولاي تلك سابقة لم تحدث! ولكن ما يسري على الكذب والتزييف يسري عليها، الحل هو النفي إلى رحلة ساحات المعارك الملعونة بين الجبال الوعرة!

ابتسم الأمير فرد مباغتا:

- هل تيقنت الآن أنني كنت محقا حين أضفت الجرائم والعقوبات، هل علمت الآن أن الوادي لن يظل كثيرا وادي الفضيلة وأن التوبيخ وحده لا يكفي؟! هل

فطنت إلى أن كل ذلك كان لأحمى الوادي وأحافظ له على فضيلته؟! لقد ظلمتني كما فعل معظم المسالمين يا راسل.

تنحنح راسل سائلا:

- من الخائن يا مولاي؟!

اصطنع الأمير الأسى ببراعة ثم ألقمه بابتسامة ملتاعة ناجحة فقال مباغتا:

- دهب!

***

- لابد أن تحكم سيبتيما يا أمجد!

صمت الاثنان قليلا يحاولان تدبر الأمر حتى استطردت دهب:

- أنت الحاكم الفعلي لسيبتيما يا أمجد، ولابد وأن تسترد حكمك، ذلك لمصلحتك ومصلحة الوادي!

هنا تذكر حديث والده عند الخزانة:

(كل ما أعرفه أنك الحفيد الخامس والعشرون للحظرد.. أنت روح شريرة أراد الله لها الصلاح.. احكم سيبتيما.. احكم لتعود أمجادها وتبدأ أمجادك.. ليتم تخليص روحك.. احكم يا أمجد!)

أرجأ رأسه للخلف غير مصدق، يحاول لملمة شتات أمره ثم سرعان ما اعتدل في جلسته وتنهد قائلا:

- لا لا، لا يا دهب، ذلك الأمر أكبر مني؟!

أضافت مقاطعة:

- صدقني يا أمجد لابد لك أن..

قاطعها بصرامة وحزم بدوره:

- لا يا دهب، أنتِ لا تعرفينني بعد، أنا أسوأ من أن أحكم نفسي حتى، لقد كنت مسئولا عن والدي و..

قاطع حديثه عبرتان تلألأتا في مقلتيه مسحهما سريعا ثم استأنف بنبرة باكية:

- ومات من إهمالي له، كان لا ينفك أن يتألم، وكل ما كان يشغلني هو صوت أنّاته وآهاته الصاخبة، كان يكبح آهاته لأجل ألا يسمعني ما أبغض، كانت نزواتي وحياتي الشخصية التعسة البائسة هي كل ما يشغل خلدي المريض، لم أنظر يوما إلا لحالي، إلى أن مات وحيدا ساجدا، لم يجد حتى من يسقيه شربة ماء ليبدد ظمأ موته، لكن على كلٍ فالله أحن عليه مني.

انتحب جهرا، حتى أنه لم يستطع إنهاء حديثه إلا بعد أن هدأ قليلا فتابع قائلا:

- لقد أخذه الله من بين براثن جحودي وقلة عقلي ونفسي المريضة، هل بعد أن قمت بذلك مع من هو أقرب الناس إلي، برأيك ماذا سأفعل مع شعب كامل لا تربطني به أية علاقة ولا حتى عن طريق الجِلدة؟! لا يا دهب.. حقا لا!

هنا انفطرت دهب باكية حتى سُمع صدى انتحابها في الآفاق محلقا، فاحتضنته قائلة بصوت متهدج وسط عبراتها:

- الله يسامح الجميع يا أمجد، لقد اعترفت بذنوبك، وما دمت أخطأت مرة فلن تعيد الكرّة وسوف تراعي الله فينا، و....

قاطعها محتدا:

- لا يا دهب، أنا لن أحكم سيبتيما.

قاطعته برفق وحاولت أن تحنو عليه في القول بنبرة صوتها الأخاذة بعد أن قطفت زهرة من جوارها فوضعتها بين كفيها لتستحيل من لونها القرمزي إلى الزهري مرة أخرى، حيث قالت بلين:

- أمجد، صدقني أنت لست مُخيَّرًا في الأمر، أتتذكر يوم أن قصصت لك عن أميرة حين سألت بعفوية هل أن الحاكم عمّر قلبي؟! الأمر ليس بصدفة، سلالة القرم لا تخيب في تنبؤاتها أبدا يا أمجد، صدقني ليست لك مطلق الحرية كما تعتقد.. تلك نبوءة لابد أن تتمها، أنت المنتظر!

سكن أمجد فترة لا يحصي لها قدرا يحاول أن يحصف في تفكيره ويضحى سديدا إلا أنه سرعان ما تحدث ناهرا:

- لا يا دهب، سامحيني.. لا.

***

- ناجم!

نادت بها في خيبة تجلت في زوج من الخيوط السائلة المتلاحقة، قد جفا بعد أن انحل وثاقهما منسابَيْن عن مقلتين دقيقتين فرد بابتسامة صفراء قاحلة قد محقت خبثه في ناظريها أو هكذا توهم هو:

- رهن إشارتك يا عامرتي!

ردت وقد فاض الكيل بها فأسبلت الدمع مجهشة:

- عامرتك؟!

أجاب بوله مصطنع:

- بالطبع عامرتي، لقد تمنيت اليوم الذي أتزين فيه بكِ يا أميرة، لقد شارف هذا اليوم بالمناسبة، أنا على وشك أخذ العفو الفرماني.

قالها باسما فاحتدت عليه في القول سائلة:

- بأي مقابل يا ناجم؟! سوف تأخذ هذا العفو نظير أي صنيع يا صانع الورود؟

سكت ملولا من حديثها ليترك لها المساحة لتخرج ما بداخلها فيفهم ما قد آلت إليه الأمور لتستطرد:

- ناجم!

- نعم يا أميرة؟

صمتت حينا ثم أكملت في حين ازدادت غزارة دموعها:

- أنا أُحلُّك من وثاق العامرية.

تساءل باستنكار:

- ماذا؟!

- كما سمعت.. أنا أحلّك من وثاق العامرية الغليظ يا صانع الورود!

سكت قليلا يقلب الأمر في رأسه ويبحث عن السبب ثم سأل بريبة:

- ماذا أفهم من حديثك هذا يا أميرة؟!

أخرجت من جيب إزارها سُرة سوداء اللون ففضتها ثم اغترفت مقدار كف من داخلها لتظهر حفنة من التراب أزرق اللون تملأ كفها.

شمرت عن كم ذراعها الآخر ليتجلى على باطن ساعدها خطان زهريان قد التفا في تناغم لينتهيا بحلقتين قد تداخلتا.

نظرت إلى الخطين قليلا ثم إلى ناجم الذي يقف مصعوقا لا يفهم تماما ما يرى، إلا أنها أخيرا قد نثرت حفنة من ذلك التراب الأزرق على هذين الخطين المنكوتين بباطن ساعدها، وما أن فعلت إذا بالخطين ينفلتا عن بعضيهما ليتبخرا ويعود ذراعها صافيا بغير شائبة وهي تقول بألم:

- افهم من هذا أنك لم تعد عامري يا ناجم.

***

- ألن تخبريني ما الوجهة التي نقصدها؟!

أدلى بها أمجد فالتقطتها دهب في دلو من الراحة مبتسمة لتردها إليه قائلة:

- إلى رفيق الأخلاق!

- ماذا؟!

ردت دهب بتلقائية مبتسمة:

- رفيق الأخلاق يا أمجد! سنزور ضعيفا في مَهْذَبة الشفاء.

فغر أمجد فاه ثم تساءل في بلاهة:

- مهذبة الشفاء؟!

- نعم يا أمجد.

رد ممتعضا:

- وهل فهمت رفيق الأخلاق لتلقميني بمهذبة الشفاء تلك؟!

- لحظات ونصل يا عامري، وسترى وتفهم بنفسك كل شيء.

***

بناءٌ من رقع لامعة لم يعرف لها أمجد اسما، قد تراصت بانتظام لتبرق ساطعة ويعكس كل حجر منها لونا غير لون رفيقه إلا أن زخم تلك الألوان لا يشتت رونقها بل تداخلها يصنع تناغما حميدا مريحا للعين إذ تنظر!

توقفت دهب وأمسكت بيد أمجد الذي جاراها وتوقف هو الآخر لتنظر إليه نظرة خاطفة فأتبعتها بأخرى للبناء ثم ابتسمت قائلة بزهو:

- مهذبة الشفاء.

انبهر أمجد بالبناء ثم طاف بعينيه غدوا ورواحا في تفاصيله مبتسما ثم قال:

- لا أدري ما هذا حقا يا دهب، هل تداخلت أبنيتكم في مسابقة لإبهاري؟!

ابتسمت دهب بدورها إلا أن أمجد قاطعها ممتعضا:

- لكني لم أعرف بعد ما هي مهذبة الشفاء هذه!

أجابت دهب بتلقائية:

- مهذبة الشفاء يا أمجد هي المكان الذي نتلقى به العلاج.

أرجأ أمجد رأسه للخلف متفهما حيث قال:

- اااه، المشفى! وما دامت المهذبة هي المشفى فمن الراجح أن يكون رفيق الأخلاق هو الطبيب!

أجابت دهب مصححة على عجل:

- أمجد، الطبيب هو الله، الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول لمن يقوم على العلاج أنت الرفيق والله هو الطبيب.

- عليه أفضل الصلاة والسلام، إذن قد عرفت الرفيق فلِمَ يكنى برفيق الأخلاق؟!

ردت معللة:

- لأنه يداوي الأخلاق يا أمجد.

- ماذا؟!

ابتسمت دهب ثم سحبت أمجد من يده برفق فقالت وهي على ذات الابتسامة:

- لندخل الآن وستعرف بالداخل كل شيء!

***

- دهب؟!

صدح بها حامي الحمى في عصبية واستهجان فرد الأمير صارما:

- نعم دهب يا راسل.

تحدث حامي الحمى ناكرا:

- مستحيل.. مستحيل أن تفعل دهب مثل تلك الفعلة الشنعاء! دهب لن تضر سيبتيما مهما كلفها الأمر!

ابتسم الأمير قائلا:

- ألن تسمع الحكاية أولا، أنصت، ثم كوّن رأيك الخاص فيما بعد! من الممكن أن تغير رأيك تماما!

تحدث بعصبية واهتياج:

- مستحيل، دون أن أسمع، دهب لا تفعل ذلك مطلقا.

***

توقف طائران ذاتا ألوان شفافة تعكس سطوع تلك الأحجار الكريمة البراقة، يمتلكان جناحين طويلين مفرودين دائما بهيبة، على إحدى الأحجار البارزة قد نقرا بمنقاريهما المدببين على أماكن عشوائية في الجدار حتى تغير ترتيب الأحجار لتكشف فجأة عن كوة فُتحت حلزونيا لتشع نورا بهيجا، ما جعل أمجد يطلق تلك الصافرة المعجبة فابتسمت دهب هي الأخرى، ثم دلفت ومن خلفها أمجد عبر تلك الكوة والتي سرعان ما انغلقت خلفهما من تلقاء نفسها وبمجرد عبورهما!

كان المنظر من الخارج يوحي بالهدوء التام والسكينة والخلاء غير أنهما بالداخل قد رأيا ازدحاما بغير ضوضاء ما جعل أمجد يتعجب سائلا:

- ما هذا السكون، هؤلاء الناس لا ينبسون، بل لا يتنفسون!

أشارت دهب بسبابتها طوليا على شفتيها تطلب منه السكوت تماما فعاود سؤاله تلك المرة بنبرة خافتة:

- تلك الناس صامتة بقدر غريب، هل هذا المكان يختص بالبكم؟!

تحدثت دهب بصوتها العذب في خفوت هي الأخرى لترد:

- أمجد، لا يجب علينا أن نتحدث هنا، وذلك من أجل راحة المرضى، نحن في مهذبة الشفاء يا عامري!

تذكر أمجد فلكز جبينه ثم سأل:

- مرضى؟! إذن عندكم مرضى! فماذا يعني رفيق الأخلاق هذا؟!لماذا الأخلاق فقط؟ لِمَ لا تكتفون بالرفيق وحسب؟ ما حكاية علاج الأخلاق التي أشرتِ إليها بالخارج؟

تنحّت دهب بأمجد جانبا أمام إحدى الغرف الزجاجية المعزولة الشفافة ليظهر من داخل تلك الغرفة كهل طاعن إلا أنه مازال متماسكا تظهر أعراض الصحة عليه برغم تجاعيده المحببة، قد اضطجع على سرير وثير أمام رجل جميل الملامح معسول الوجه حلو الابتسامة يرتدي معطفا أخضر وقد كُتب على كتفه الرفيق صاقر.

وقفت دهب يحذوها أمجد حيث يشاهدان عن كثب ما يجري بتلك الغرفة!

حيث اكتنز الرفيق "صاقر" بكفه حفنة من الأحجار داكنة اللون قاتمة إلا أنها وبمجرد أن تعرضت لإضاءة الغرفة الهادئة قد التمعت في بعض مناطق ضئيلة منها.

ابتسم الرفيق ببشاشة ثم وزع تلك الأحجار برفق على موضع قلب الكهل وصدره بالكامل، فطفق يدلك بها تلك المنطقة رويدا!

عند هذه اللحظة بالذات شبكت دهب كفيها بشدة ثم أطرقت رأسها أرضا بقلق وكأنها تنتظر شيئا ما!

مازال الرفيق يدلك موضع وضع الأحجار على قلب وصدر الطاعن ويراقب عينيه اللتين شرعتا تنغلقان تلقائيا، ما جعل الأول يحملق محدقا بلهفة واضطراب.

ران القلق على وجهه وتسرب اليأس إلى مضغة قلبه إلا أنه مازال يدلك ويدلك ولم تنقطع سبله حتى مع اتساع عيني الكهل فجأة وجحوظهما أكثر، عند ذلك قد تشبثت دهب بكفيها بقوة ومن بين ثلاثتهم وقف أمجد فارغا خاويا، لا يفقه ماذا يجري حتى بلغ الترقب أوجه إلى أن أغمض الكهل عينيه تماما فنظر الرفيق بارتياب وحذر فيما شارفت دهب على البكاء!

توقف كل شيء من حولهم إلا الزمن يبدو أنه يداهم الجميع ليفوز بهذا الكهل!

توقف الطبيب عن التدليك ثم أمسك برأسه يائسا يكاد أن يبكي لا يعرف كيف يتصرف حتى انتبه إلى دهب وأمجد اللذين يقفان بالخارج، فسرعان ما اقتحمت دهب الغرفة ثم ومن دون حديث أو تفكير مطلقا التقطت من على منضدة بزاوية الغرفة قطعة تتكون من حجرين صغيرين تم ربطهما إلى بعضيهما بخيط دقيق كالشعرة أسود قاتم، ودون كلام أيضا وضعت دهب حجرا منهما على صدرها حتى توهج لونه إلى القرمزي الناري!

نظر إليها الرفيق مترددا فهزت رأسها بإيجاب حتى تشجع فوضع قطعة الحجر الأخرى على صدر الطاعن المغمض وانتظر قليلا وهو يراعي دهب التي بدأ الألم يعتصرها إلى أن توهج الحجر الآخر على صدر العجوز فجأة بلون أخضر، لينتظرا محملقَيْن إلى بعضيهما حتى تنفس الرجل الطاعن مرة أخرى بتؤدة فاتحا عينيه فجأة لتبدأ ملامحه في التبدل إلى شكل أصغر سنا، فتتبخر التجاعيد رويدا كالرذاذ

ليعود وكأنه شاب في الريعان ليزيل الرفيق عنه الحجر فتفعل دهب المثل مع ابتسامة براقة حتى ابتسم الرفيق هو الآخر قائلا بعد أن تنهد:

- مبارك يا عم شامس، لم تعد ضعيفا.. الآن فقط قد أصبحت مسالما من سيبتيما.

***

- الآن أريد أن أفهم كل شيء، أريد أن أتفطن إلى ما جرى بالغرفة حالا، ثم أنكِ لم تردي علي، ألا توجد لديكم أمراض هاهنا؟!

سأل أمجد وهو ينجرف بدهب صوب كوة الخروج إلا أنها استوقفته لترد على ما يعتمر بقلبه ويشغل باله مجيبة:

- أمجد، من بالغرفة هو العم شامس، كان ضعيفا من وادي كوينتوس، و...

قاطعها مستفسرا:

- ضعيف؟!

- ضعاف النفوس يا أمجد، قد أخبرتك بذلك من قبل، يسمى القادمون من وديان أخرى ضعافا!

قاطعها مرة أخرى مكملا:

- ضعاف النفوس، نعم لقد تذكرت، آسف.

ابتسمت تلك الابتسامة الساحرة لتؤكد:

- المهم أن الضعيف يمكث حينا في كهف الضعاف، إلى أن يشعر بأن أخلاقه قد تحسنت ويمكنه مجاراة مسالمي سيبتيما في حُسنهم وقوة نفوسهم، وأن قلبه لم يعد يحمل أية مشاعر سلبية حانقة، إلا أنه ومهما طالت تلك المدة في كهف الضعاف، سيظل قلبه يحمل بعضا من تلك المشاعر المخزية وضيق النفس، وعندها يزور رفيق الأخلاق لكي يستأصل تلك المشاعر السلبية!

تساءل في بلاهة:

- يستأصل؟! ماذا يستأصل يا دهب؟!

- يستأصل المشاعر السلبية يا أمجد، وهذا الأمر مؤلم إلى درجة كبيرة.

ظل صامتا لهنيهة ثم نظر إليها يتفرسها فسأل مبهما:

- لنفترض أن كلامك هذا منطقيا، لِمَ إذن تلك المدة بكهف الضعاف؟! لماذا لا يستأصل تلك المشاعر والأخلاق مباشرة بعد قدومه من وديان أخرى؟!

ابتسمت ملطفة لأجواء ذلك الجدال ثم أجابت برقتها المعهودة:

- أمجد، الموضوع ليس كما تتخيل، إنه جد خطير، ليس سهلا بالمرة، استئصال تلك المشاعر وهي مسيطرة، يمكن أن يتسبب في أزمات قلبية واضطرابات وحالات صدمة للقلب من الجائز جدا أن تودي بحياته في الحال، لأن تلك المشاعر تكون هي المسيطرة على القلب والنفس معا ونزعها بمثابة نزع القلب ذاته أو نزع الروح من الجسد، هذا بالإضافة إلى أن استئصالها دون تهذيب يكون ذلك عرضة لنموها بعد حين بشكل أسرع وأكثر شراسة وأصعب في الترويض من سابقتها، هل فهمت لماذا إذن يسمى رفيق الأخلاق؟!

لم يرد أمجد بل اكتفى بتحريك رأسه إيجابا فما لبثت أن استطردت مفصلة:

- وبالنسبة للأمراض.. نعم عندنا أمراض، إلا أن جميع أمراضنا تصيب المشاعر والقلب والنفس.

- كيف ذلك؟! وما تلك الأمراض؟!

أجابت معددة:

- تبلد المشاعر والحزن والندم والأورام الحقدية وفجوات الحنين والـ..

قاطعها مندهشا:

- فجوات الحنين؟! هل الحنين مرض؟!

- بالطبع يا أمجد، الحنين مرض، الحنين من أصعب أمراضنا هنا وأشرسها، إن الحنين يمكنه أن يقتل قلوبا عاشت بالعشق عامرة، يكفي أن تفكر بأن الشيء الذي طالما تمنيته بل وعشته وأصبح لك، لم يعد لك الحق في تملّكه أو رؤيته إما لأنه آل إلى غيرك أو لأنه لم يعد موجودا من الأساس!

- وما العلاج عندكم للحنين، فما مريض بالحنين هاهنا يناهضني!

أجابت دهب وهي تربت على كتفه برفق:

- ذلك يكون حسب رؤية الرفيق، توجد أمراض تحتاج إلى المواساة وأخرى علاجها الاحتواء، وهناك أمراض يعالجها الإفضاء والإفصاح، ويوجد أيضا دواء النسيان والذي يعالج أمراضا شتى ثم العناق والذي هو دواء مشترك لكل الأمراض تقريبا.

انبهر أمجد بالحديث الذي تلقيه دهب على مسامعه وإن كان لا يتخيله حقيقة واقعة إلا أنه سرعان ما تساءل مرة أخرى:

- ماذا حدث إذن وماذا فعلتِ بذلكما الحجرين عندما أغمض عينيه؟

تحدثت بضيق:

- كاد العم شامس أن يموت، وعندها لم أجد بدا غير نقل شحنات الأخلاق إليه من قلبي!

- شحنات الأخلاق؟

- نعم يا أمجد، تلك القطعة تستشرب بعضا من شحنات القلب لتنقلها لأي قلب كاد أن ينتهي وبذلك تنعشه قليلا إلى أن يسارع بالتخلص من شحناته السلبية، وهذا ما حدث مع العم شامس عند توقف قلبه تقريبا وقت تفريغ شحناته السلبية.

تذكر فتساءل:

- كنتِ تتأملين.. لماذا؟

- الشحنات التي تخرج من قلبك سلبية كانت أم إيجابية تكون مؤلمة جدا.. لكن لا يوجد وقت لخشية ذلك أو للتفكير به.. كاد قلب العم شامس أن يتوقف.

ابتسم ليها ثم تذكر فسأل مبتسما مرة أخرى:

- العم شامس هذا، كانت ملامحه ككهل طاعن عجوز، وقد ملأت التجاعيد وجهه، إلا أنه بمجرد انتهاء الرفيق أصبح شكله كرجل يافع قوي، واختفت تجاعيده في الحال، كيف ذلك؟!

رمقته بابتسامة ثم أطلقت تنهيدة ناعمة فردت:

- الأمراض هنا يا أمجد تجعلك طاعنا حتى وإن كنت حديث عهد بالميلاد، الحزن والكدر يربيان التجاعيد كما لم تفعل السنون في سيبتيما يا أمجد، كلما قلت أخلاقك وانحط تصرفك زاد عمرك.

ابتسم أمجد ابتسامة عريضة لهاجس قد خطر بباله فاسترعى ذلك انتباه دهب التي سألته ملاطفة:

- لماذا تضحك يا أمجد؟!

- لقد تذكرت شيئا خطر ببالي فأضحكني حين قلت أنه بسيبتيما كلما انحطت أخلاقك زاد عمرك!

ابتسمت فسألت:

- وما هذا الشيء الذي أضحكك؟!

أجابها ممازحا:

- كنت أفكر أنه إن تم نقل سيادة المستشار مرتضى إلى هنا بسيبتيما، برأيك

ماذا سيكون عمره؟! أظنه لن يقل عن خمسمائة عام، ستحتاج تجاعيد وجهه لمن يحملها عنه!

قالها فانفجر ضاحكا حتى أدمعت عيناه فتساءلت دهب ببراءة:

- المستشار؟!

- لا عليكِ يا دهب.. لا عليك.

أفرجت عن ثغرها باسمة ثم قالت متذكرة:

- هل يمكن أن تأتي الليلة معي لزينة إحدى صديقاتي؟!

ابتسم لما رأى تلك الابتسامة أعلي شفتيها ثم رد بشغف:

- يمكن؟! إنه لمن دواعي سروري يا عامرتي! سأكون هناك قبلك!

ابتسمت هي الأخرى فتبادلا النظرات العاشقة حينا حتى أطرقت رأسها في خجل إلى أن قطع أمجد حالة الوله تلك مستفسرا:

- عذرا.. هل لي بسؤال آخر؟!

التحفت بذراعه ثم حثته على المسير مجيبة:

- اسأل يا عامري!

ابتسم مرتاحا ثم سألها:

- بما أن الأمراض عندكم حزن وفراق وحقد وأشياء نفسية فقط من هذا القبيل، ألا تموتون إذن؟!

قالها فهمّت بالإجابة إلا أن ما حدث في حضورهما قاطع كلامها فقد مر من أمامهما أربعة رجال يحملون كفنا قد التفت فيه جثة بثوب أبيض ناصع وما أن راعتها دهب حتى انحنت فارتكزت على إحدى ركبتيها ثم أطرقت رأسها في أسى وفردت يمناها إلى الأمام!

قلّب أمجد ناظريه في الحضور فقد فعلوا جميعا ما قامت به دهب انحنوا جميعا فارتكزوا على إحدى الركبتين فأطرقوا رؤوسهم ثم فردوا أيامنهم!

ظل أمجد واقفا ينظر باندهاش حتى لكزت دهب قدمه برفق ففعل مثل الجميع حتى مر الكفن فتوقف المرتكزون ثم انطلقوا في سبيلهم وآثار الحزن تغشى وجوههم!

نظرت دهب إلى أمجد ثم قالت:

- عرفت الآن يا أمجد هل نموت أم لا؟! مثلما قلت لك يا أمجد، الأمراض الأخلاقية والضغط النفسي أو العصبي هن أم الأمراض القاتلة، فتلك الأمراض تسبب أوراما وفجوات بالقلب كفيلة بقتل الإنسان حيث اعتلال القلب الخبيث، وهي الأصعب على الإطلاق صدقني!

- لذلك كنتما قلقين أنت والرفيق على العم شامس؟

أومأت براسها إيجابا فردت مؤكدة:

- نعم يا أمجد، بالطبع.

***

- راسل!

جهر بها الأمير بصبر نافد ناهرا، ما أسكت حامي الحمى حيث استطرد الأول:

- أنت لست هنا لأستشيرك فيما أود فعله، أنت هنا لأُشهدك بأن ما يحدث في سيبتيما هو ما قد حذرت منه، وكنت أخشى حدوثه، إلا أنه حدث بسرعة لم أتوقعها، لذلك قد أعطيت أوامري فورا بإنشاء قوات نظامية مسلحة، وبدء طباعة عملات نقدية لتحل محل العملات الودية و...

قاطعهما ولوج المخزنجي حيث توقف أمام باب البهو فلكز موضع قلبه بيمناه ثم قال:

- مولاي!

أشار له الأمير فتحرك المخزنجي صوبه حيث همس في أذنه ببضع كلمات فابتسم الأمير تلك الابتسامة العريضة ثم قال ببشاشة:

- ودهب هل ستكون معه؟

أومأ المخزنجي برأسه إيجابا فاتسعت ابتسامة الأمير ثم قال بخفوت:

- أعدّ نفسك إذن وخذ اثنين من الحرس وأحضروهما لي هاهنا، أريدهما قابعيَن في بلاطي هنا بأسرع وقت ممكن!

تحدث راسل مستأذنا:

- هل تسمح لي سموك في الانصراف!

ابتسم الأمير بخبث ثم قال:

- تريد اللحاق بدهب لتحذرها يا حامي الحمى؟! هل تريد المشاركة في جريمة الخيانة؟ لا يا راسل، ستظل هنا إلى أن يأتيان وتتابع نزاهة وحسن سير التحقيق بنفسك!

حملق راسل ثم أردف مندفعا:

- تحقيق؟!

***

وقف أمجد في غير رزانة، يتفقد من يدخلون حفل الزينة فلم يعثر على ضالته بعد، حيث واسطة العقد مفقودة حتى الآن، دهب!!

ظل هكذا حتى أطلّت من فوق ربوة تتهدج كحبة المطر حين تطوي الزجاج زلقا!

هو لم يقتنع يوما بإطلاق لفظة ملاك على صنف البشر، فنحن لم نر الملاك لنشبه إحداهن به، إلا أن دهب التي يراها تتثاقل في خطاها الآن هي مجرد ملاك!

وجهها البراق يضيء وسط وجنتيها وما بين منبت شعرها حتى أسفل ذقنها، ثيابها البسيطة الفضفاضة والتي تحمل ألوانا متداخلة مريحة غير متكلفة أو مبهرجة، تعقد على رأسها نصف غطاء للرأس قد كشف عن بعض شعرها المنسدل الذي يتطاير يمنة ويسرة مع تلاعب النسيم به! فعينيها اللتان تتبدل ألوانهما كل بضع دقائق!

اقتربت منه دهب ولم يعرف سبيلا لتهدئة خفوق قلبه الذي يسابق "لفات الموتور" في سرعته، خفق أكثر ثم أكثر، كلما اقتربت، فظهر مفتونا من مفاتنها بعد أن بددت الأنوار ستره، ازداد قلبه خفقانا، فتارة قد رأى احمرار وجنتيها وأخرى بريق عينيها الذي قد غرق في بحريهما الأبيض، بجانب تبلور شفتيها واصطفاف أسنانها المعقودة ودقة قسماتها، لم يعد يحتمل، لا لا إنها أعظم من مجرد ملاك!

توقفت أمامه باسمة حتى قالت برقة في نغمة اعتذار:

- معذرة، تأخرت عليك.

لم يرد بل اكتفى بالتدقيق والشرود في وجهها، لم يخلق الله هذا الوجه عبثا، هذا الوجه قد خلق للتأمل، للتدبر، خلق لكي يتعلموا منه أن هذا هو الوجه المثالي الثائر للمرأة وما دونه هن مجرد صور مهتزة مهترئة، صور ضوئية سلويتية سوداء، في حين أنها صورة زيتية مضيئة!

- أمجد!

استفاق من شروده على صوتها فلكزة رقيقة من يمناها حيث استطردت:

- ما بك، لماذا أنت صامت بمثل ما أرى؟!

لم يجبها مرة أخرى بل اختطف كفيها الرقيقتين فوضعهما بين كفيه ثم نظر في عينيها مباشرة وقال بغير ترتيب:

- دهب لقد عمرتِ قلبي وروحي وعقلي كما لم يفعل ولن يفعل أحد، لقد أصبحت خائفا وجلا، قلبي يعتمرك ويلتحف بروحك، أما عقلي فيرفض ذلك تماما، يدّعي أنك لست ببشر ومهما طال الوقت فمكانك في السماء بعيدا عني، يداهمني عقلي بفكرِه حيث يراودني بأنني ما عملت خيرا يستوجب رزقي بحوراء مثلك، لم أدعُ هذا الكم من الدعوات والذي يجعل مني عامرا لقلبك، ولم أسمع يوما عن سبع أحبه غزال بريء، أنتِ بالفعل أكثر مما أتخيل وأعلى مما أستحق، أنتِ أجمل من أفضل صورة رسمها خيال إنسان للحور في الجنة، أنتِ كياقوتة على سطح البحر قد اشرأبت لفقير يخشى أن يلامسها فتغرقه أو يتركها فتمنع عنه الغنى ورغد العيش لتتركه في وحل الفقر المدقع.. لا أنت لست الياقوتة.. أنت البحر الثائر بياقوته.

اختلست دهب كفيها من بين كفي أمجد ثم درأت وجهها بينهما فأطرقت رأسها خجلا رادّة باستحياء:

- أنت عامري يا أمجد، وأتمنى اليوم الذي سأتزين بك فيه!

قاطعهما أصوات الحاضرين حين طفقوا يصفقون فيغنون بمقاطع مبهجة بثت الفرح في قلب أمجد ذاته وهو الذي لا يفهم أصلا ما يصدحون به إلا أنه ودون سابق إعداد وجد نفسه يصفق معهم حتى استدار أمامهم المزينان يقفان إلى جوار بعضهما على مصطبة مضاءة من تلقاء نفسها بأنوار مبهرة!

سكت الجميع بغتة حين استدارا، ثم همس أمجد في أذن دهب وهو يشير إلى شاب وسيم يلتحف عباءة زرقاء وعمة سوداء وامرأة آية في الجمال ترتدي عباءة فضفاضة متداخلة الألوان:

- هل هما من سيتزوجان؟!

تساءلت دهب في غير فهم:

- ماذا؟!

- حسنا، هل هما من سيتزينان؟!

- نعم إنهما المَزِينان، انظر إلى بهائهما، ما أجملهما حقا؟!

قالتها وقد تلألأ في عينيها بريق هائل، إلا أنه قد رأى التحفز في وجوه الجميع ودهب من بينهم بالطبع!

نظر إلى المزينان مرة أخرى حيث وجد امرأة حلوة الملامح طيبة الطباع تمسك بسرة زهرية اللون وتصعد إلى تلك المصطبة التي يقفان عليها!

اغترف الشاب من السرة حفنة من التراب المضيء المتحرك قد اصطبغ بلون بنفسجي مشرق، وبالمثل قد فعلت الشابة، فما لبثا أن ألقيا التراب فوقهما بمرح فصرخ الجميع ثم تشابكت الأيادي جميعها وتشابكت دهب بيدها مع أمجد حين نظرت إليه مبتسمة ثم إلى الأرض خجلا!

نزل التراب على المزينان فسلك طريقه إلى يمناهما، فانحنى الجميع مترقبين حتى تدفق التراب من تلقاء ذاته ليصنع سوارين حول معصميهما قد تلونا بلون قرمزي مضيء، فصرخ الجميع طربا مرة أخرى ليتحول السواران إلى اللون الأخضر، وبلا وعي قد تنهد أمجد فاحتضن دهب والتي طوقته هي الأخرى بذراعيها!

***

- مولاي الأمير، أريد أن أفهم؟!

ابتسم الأمير بهدوء ولم يرد حيث أدار وجهه إلى الجهة المقابلة، فأعاد راسل طلبه:

- مولاي، من حقي أن أعرف لِمَ أنا محتجز هاهنا، أريد أن أفهم!

أجاب الأمير وهو على ذات الهدوء ونفس الابتسامة:

- قد طلبت أن أفهمك من قبل، إلا أنك رفضت وقلت أنها بريئة دون أن تستمع!

- نعم بكل تأكيد، ولن أصدق أي رأي خلاف ذلك.

ازدادت ابتسامته اتساعا ثم قال بثقة:

- لهذا احتجزتك يا راسل، حتى ترى بعينيك وتستمع إلى اعترافها بالخيانة وترى الدليل على ذلك أيضا.

***

نزلت دهب عن جسد أمجد بعد أن انتبها إلى ذلك العناق الأسطوري غير المرتب، فأطرقت رأسها خجلا بضع ثواني حتى سأل أمجد آسفا:

- دهب، هل ضايقتك؟!

لم ترد دهب بل اكتفت بإشاحة وجهها بعيدا فاستطرد أمجد متلعثما:

- دهب، أنا آسف، لم أكن أقصد مطلقا، لقد حدث ذلك تلقائيا، لم أقصد صدقيني!

ظلت دهب على تلك الحالة من السكون ليستأنف أمجد مرة أخرى:

- أنا آسف ثانية لا تغضبي، لكني أريد للحق أن أقول أنه وإن تم ذلك دون عمد إلا أنني تمنيته كثيرا.

نظرت إليه دهب بخواء فراغاها بخجل ثم أكمل مؤكدا:

- نعم تمنيته، مذ أن قابلتك يومها، حيث أول يوم وطأت قدمي سيبتيما، تمنيته أول يوم مست يدي يدك، تلك اللمسة التي أججت مشاعري، تمنيته حين تلمست البراءة والجمال في عينيكِ، كنت أستشعركِ قديسة غير قابلة للمس، كنت في نظري مجرد حوراء حتى إن أردت الوصول إليها فلن أبلغ إلا بحسن العمل فالموت دونها!

ابتسمت دهب تلك الابتسامة الهادئة المطمئنة، فأمسكت يمناه وقبضت عليها ثم شرعت تركض وتسحبه خلفها ما دعاه هو الآخر للركض لحاقا بها ولم يمنعه ذلك من السؤال:

- لِمَ تركضين؟!

ردت لاهثة:

- فقط اتبعني!

- إلى أين؟!

- ستعرف الآن!

ظلا هكذا يركضان حتى توقفت دهب فجأة تلتقط أنفاسها اللاهثة وأمجد كذلك الذي انحنى محاولا استجماع شتات نفسه وما أن اعتدل حتى فغر فاه وانفرج حاجباه رقيا حتى كادا يلامسا منبت شعره من الدهشة ثم نظر إلى دهب التي ابتسمت له في تودد فعاود النظر أمامه ثم قال وقد تحشرج صوته من فرط الانبهار:

- ما هذا؟!

لم ترد دهب بل أطبقت كفها على كفه مرة أخرى فركضت وهو معها ثانية، ليقفا مباشرة أمام فجوة دائرية تتخذ ألوان قوس قزح إلا أن تلك الألوان أكثر بريقا ولمعانا، ينزل من أعلى تلك الفجوة أو الطاقة شلال منحدر يدلي بمائه نزولا!

مهلا إنه شلال، بصوته الهادر إلا أن النازحة تلك ليست مياه.. إنها....

إنها حشرات تشبه الفراشات إلى حد كبير إلا أنها أكثر منها جمالا ورونقا ذات ألوان خلابة!

تنزل من الشلال بيضاء شفافة ساكنة كرذاذ المياه غير أنها عند السقوط أمام الفجوة تستحيل الى تلك الفراشات المزينة لتعاود التحليق باعثة أصوات تلك الزقزقات الطبيعية متراصة أمام الفجوة جنبا إلى جنب حتى تسدها!

- معبر العامرين!

قالتها دهب وهي تشد على كف أمجد ببراءة والذي كان مسلوب اللُب تماما لم يسعه إلا أن حرك رقبته استفهاما فعادت دهب لتقول:

- ما تراه أمامك اسمه معبر العامرين يا أمجد، الفجوة أو البوابة التي تراها الآن مغلقة بإحكام ومسدودة عن طريق الثاليونات، وهي ما تنزل من ذلك الشلال حيث يجتمعون إلى بعضهم ويتراصّوا بدقة ليسدوا المعبر تماما.،

سألها مبهما:

- ثم؟!

- ذلك المعبر للعامرين فقط يا أمجد، لا يستطيع أي اثنين أن يعبراه إلا إن كانا يعتمران قلبي بعضيهما!

- وكيف يتأتى ذلك؟!

ابتسمت ثم سردت مفصحة:

- العامرون يأتون هنا ثم يقفون في هذا المكان بالتحديد!

قالتها وأشارت إلى دائرتين متداخلتين منكوتتين على الأرض بصبغة خضراء ثم استكملت حديثها:

- ومن ثم يمسكون بأيادي بعضيهما البعض، وإن كانوا بالفعل قد عمروا قلوب ذويهم ستترك الڤاليونات أماكنها، ليعبر العامرون، أما إن لم يعمر أحدهما قلب الآخر فلن تتتعتع تلك الفاليونات عن أماكنها ولن يمر العامرون إلى شاطئ الخيال.

- شاطئ ماذا؟!

- الخيال يا أمجد، شاطئ الخيال!

تحركا سويا بغير اتفاق حتى وقفا في المكان المخصص داخل الدائرتين حيث أمسكت دهب يده فابتسمت ثم أغمضت عينيها فأغمض عينيه هو الآخر!

انتظرت دهب فترة وجيزة ثم فتحت عينيها بيأس فتركت يد أمجد الذي فتح عينيه بدوره ثم سأل مستفسرا:

- ماذا هناك يا دهب؟!

أجابت دهب مبتئسة:

- من الواضح أنني لم أعمر قلبك يا أمجد، أو على الأقل بالقدر الكافي حيث...

وضع يسراه على شفتيها مقاطعا ثم أمسك يدها بيمناه فتنهد طويلا ثم أغمض عينيه فأغمضتهما هي الأخرى وشرع يفكر فيها حتى سمعا هدير المياه تنساب عليهما من كل صوب وتعالت زقزقة الڤاليونات فانبعثت نسمات صاخبة من الهواء تداعبهما وتعبث بأطراف ثيابهما وما أن فتحا عينيهما حتى وجدا الڤاليونات تحيط جسميهما وقد تركت الفجوة فارغة فارتعدت دهب باسمة ثم تقدمت وهي ما زالت ممسكة بيد أمجد والڤاليونات مازالت تحيطهما مقبلة معهما وكأنها تروم إيصالهما كحرس خاص، حتى عبرا المعبر سويا ليفاجأ أمجد بأن ما ينتظره من الانبهار لهو أضعاف ما قد رآه، إنه حقا شط الخيال!!

***

- مولاي!

نادى بها المخزنجي وهو يدخل مسرعا إلى الأمير فبش وجه الأخير قائلا بلهفة:

- هل قبضتم عليهما؟!

أسدل المخزنجي رأسه ثم قال:

- لا يا مولاي، ليسا موجودَين بحفل الزينة!

صرخ الأمير غاضبا:

- ماذا يعني ذلك يا مخزنجي؟! ألا أكلفك بأمر وتنجزه أبدا؟!

أراد المخزنجي أن يجيب إلا أن أحد حراس الأمير دخل قائلا:

- مولاي؟!

أجاب الأمير غير عابئ:

- هات ما عندك!

- الطبقچي يريد أن يقابل سموك!

- ماذا يريد؟! أرجئه الآن.

تحدث الحارس بلطف وهدوء:

- مولاي اسمح لي، الأمر على درجة من الخطورة، هذا ما فهمته منه، يتضح ذلك من هيئته أيضا!

تنهد بامتعاض ثم أمر:

- أدخله!

صفق الحارس حيث دخل رجلٌ يحمل لوحا حجريا تتغير الألوان فيه بجنون ويحدث أصواتا متداخلة وقوية فانحنى ثم قال:

- مولاي.

- قل ما عندك يا طبقچي!

- مولاي هناك تغيرات في ألوان اللوح وأصوات لترددات غريبة تدل على أن ضعيفا قد اقتحم مكانا لا يجوز أن يدخله غير مسالمي سيبتيما!

اهتم الأمير فنظر إليه مليا ثم نظر إلى المخزنجي وقال:

- ضعيف؟! هل تعرف كم شخصا دخل هذا المكان؟!

- اثنان يا مولاي!

- والاثنان..

قاطعه الطبقچي قائلا بلطف:

- لا يا مولاي، واحد منهما من مسالمي سيبتيما والآخر ضعيف من خارج الوادي!

نظر الأمير صوب راسل فالمخزنجي حتى وصل بعينيه إلى الطبقچي مرة أخرى فالتمعت عيناه ثم قال:

- دهب!!

سكت الجميع ثم سأل مرة أخرى:

- وأين هذا المكان الذي دخلاه وتغيرت ألوانه في اللوح؟!

أجاب بثبات:

- شط الخيال يا مولاي!

ابتسم الأمير بنصر ثم أمر المخزنجي في الحال:

- تذهب الآن على رأس بعض من حراسي لتحضرهما من شط الخيال، انتظرهما أمام المعبر.

أجاب المخزنجي مترددا:

- أمر مولاي ولكن..

- لكن ماذا؟!

- هناك أمر آخر مفرح لجلالتك يا مولاي.

تحدث الأمير بغبطة:

- تحدث مسرعا، لِمَ لم تخبرني منذ جئت!

- كنت أنتظر سموك لتنتهي من الطبقچي.

- قل يا مخزنجي، أي أمر سيفرحني؟!

- قبضت عليهم!

أجاب بلهفة:

- من هم؟

رفع المخزنجي رأسه ثم قال مبتسما:

- وفد سيكستوس يا مولاي!

تبسم الأمير بكبرياء ثم هدر بقوة قائلا:

- ماذا تنتظر يا مخزنجي؟! أدخلهم على عجل واذهب أنت لتقبض على دهب وضعيفها ذاك!

- أمر مولاي!

قالها المخزنجي مهتابا ثم صفق مرتين فدخل الوفد المكون من ثلاثة رجال محاطين بحراس الأمير الذي ابتسم بزهو وهو يراعي الأول فالثاني والثالث.... لا.. لا يمكن أن يكون ما يراه صحيحا...!!

ما أن رأى الثالث حتى فزع وارتقى حاجباه دهشة، فقال في صدمة:

- أنت؟! مستحيل!!

***

توقف أمجد مسحورا يتحرك برأسه كالمجذوب!

لم تحمله قدماه في المسير ولم تسعفه الكلمات للتعبير، لقد رأى جمالا من قبل، تصفح صفحات الإنترنت أياما وليالٍ طوال، وها هو ذا قد رأى في سيبتيما ما يشيب لهوله الولدان، رأى ما عجزت عن تقديمه أفلام السحر وروايات الخيال!

إلا أن ما قد رآه أمر وهذا الذي يقبع أمامه الآن أمر آخر!

ابتسمت دهب حين رأت أمارات الصدمة على وجهه فقالت بمرح وهي تشير إلى هذا الجمال المترامي أمامها:

- شاطئ الخيال!

أراد أمجد أن يحفظ كل هذا في مخيلته، لم يرد أن ينسى ولو تفصيلة واحدة من بين ذلك السحر الخلاب!

فلا يريد أن يتغافل عن تلك الرمال البنفسجية ولا ذلك البحر الطبقي، فلا لون ثابت له تترتب ألوانه من أول المياه المتاخمة للشاطئ وحتى الداخل عمقا!

إنها ألوان قوس قزح مرة أخرى، أكثر لمعانا وزهوا، فقد انقسمت مياه البحر في ألوانها حيث أضحت مقدمتها مياها حمراء قرمزية، فمياها برتقالية فصفراء ثم تظهر في المنتصف تلك المياه الخضراء النقية فبعدها ذلك الجزء من الماء الأزرق شديد الزرقة، فمقطع من المياه العميقة النيلية فالبنفسجية في أعمق ما يمكن أن تراه عند الأفق وما ورائه!

ناهيك عن تلك الحوريات التي تتقافز في المياه، أجساد أسماك ورؤوس بشر تتعدى من الوسامة آخرها، تقفز خارجة فتدخل إلى الماء بمرح مرة أخرى!

هذا إلى جانب تلك الأشجار التي تطرح فروعها ثمارا لامعة.. مهلا إن ثمراتها عبارة عن أحجار كريمة لامعة، وأوراقا ثلجية اللون تنثر مياها ملونة حولها!

وهذا الفطر العملاق المنتشر على الشاطئ بشكل متسع، يصنع مظلة لن يصلك الحرور أبدا إن اتكأت تحتها، ولا حرج إن تحدثت عن المحار العملاق أيضا والتي تتناوب صدفته العلوية الانفتاح والانغلاق من تلقاء ذاتها، ثم هذه الأنواع من النباتات اللينة الهينة والتي تنبت داخله فتتمهد وتنبسط لتظهر وكأنها وسائد وسرر!!

السماء.. السماء هي قصة أخرى!

لم يسع أمجد التدقيق في السماء حيث داعب عقله وأظمأ خياله ذلك الذي خرج إلى الشاطئ فجأة من داخل الماء، هذا المخلوق العملاق إلا أنه بالرغم من عملقته تلك فهيئته توحي بالطيبة والألفة!

انفتح ظهر المخلوق ذاك ليكشف عن مقاعد من لحمه وعظامه مزدانة بألوان زهرية، فنظر أمجد وقتها إلى دهب التي شجعته بدورها حين أومأت برأسها إيجابا فتقدما سويا تجاه ظهره حيث امتطياه لينزل مرة أخرى إلى أسفل أعماق المياه، وبمجرد نزوله إلى عمق معين انكشف ظهره فراعى أمجد عامرته دهب تجفل خارجة وهي تسبح فما فعل إلا أن تبعها!!

ما هذا؟ إنه يتنفس!!

هاله ما قد اكتشفه لتوه!!

إنه يتنفس بصورة طبيعية أسفل تلك المياه العميقة، مهلا إنه يسبح أيضا؟!

لطالما كان لا يعرف للسباحة سبيلا!

لا يهم الآن، فتلك الكهوف المضيئة وهذه الأسماك المتحدثة كانت أحق بالاهتمام من التنفس تحت المياه!

تتبع أمجد عامرته مرة أخرى إلى أن توقفت فجأة فتوقف هو الآخر، وجدها تمد يدها إليه فمد يده إليها بدوره، حيث ضمته إليها فطوق وسطها بيده الأخرى ثم أطلقت يدها الأخرى فوقها ليظهر من العدم ذلك السرطان البحري والذي أخذ يدها برفق صاعدا!

نظرا إلى بعضيهما مليا وهما يصعدان إلى أن دفنت دهب رأسها في صدره حيث تلقف رأسها بين ذراعه مطمئنا وضاما إياها أكثر إليه!

صعدا أخيرا إلى الشاطئ مرة أخرى؟!

دلف أمجد وهو يعتضد دهب إلى الشاطئ مرة أخرى ويتحسس ملابسه!

أبعد كل ما فات سيتعجب أن ملابسه لم تبتل؟! بالطبع لا!

توجهت دهب صوب إحدى تلك المحارات العملاقة لتقف أمامها وبجوارها أمجد فانفتحت صدفتها ببطء ثم دلفت إليها وتبعها أمجد فافترشا تلك النباتات اللينة بداخلها والتي هي أنعم وأفضل سلاسة من أكثر أسرة العالم راحة!

نظر أمجد إلى السماء الخضراء وهو مستلقي حيث رأى أقمارا كثيرة بألوان مختلفة قد ارتسمت على صفحتها وجوه تبتسم وبينها نجوم تأخذ أشكالا..و...

مهلا؟! هل جن أمجد أم أنه يرى فعلا تلك الأقمار تفرد أجنحتها لتطير مبتسمة حيث تغمز إليه ثم تتداخل سويا!

نعم هو متأكد.. لقد لاحظ أيضا أنه كلما طارت الأقمار وتداخلت تغيرت الأشكال التي كونتها النجوم بينها!

فتارة تكون النجوم جيوشا متراصة وأخرى سبعة أماكن مختلفة يدلف إليها الناس، وأخرى سعي الناس في تلك الأماكن ثم... ما هذا؟! ماذا يجري؟!

لقد ترقرقت عبرة في مقلته ثم انحدرت على وجنته فسارع بمسحها، لقد بكى من فرط ثورة مشاعره بالداخل.. لم تحتمل نفسه خفقان قلبه بمثل هذا القدر!

نظر إلى دهب التي تستلقي جواره بداخل المحارة وهي مستمتعة حيث تنظر هي الأخرى إلى السماء فسألها وهو يقبض على يدها ويضطجع على شقه الأيمن ناظرا إليها تارة وإلى السماء تارة:

- ما هذا الذي بالسماء يا دهب؟

نظرت إليه دهب ثم أجابت بزهو:

- تلك أقمار سيبتيما يا أمجد، تطير فتتلامس وحينئذ تقوم بتغيير تركيب وترتيب النجوم وتكوّن أشكالا جديدة.

- وما أصلا تلك الأشكال التي تتكون؟!

ابتسمت دهب ثم أجابت وهي تشير إلى السماء بفخر:

- هذا هو تاريخ سيبتيما يا عامري.

تساءل أمجد بدهشة:

- تاريخ سيبتيما؟!

رددها منبهرا فأجابت مرة أخرى:

- نعم يا أمجد، هذا هو تاريخ سيبتيما من أول تكوين مملكة لاتيوم!

أشار أمجد إلى شكلٍ قد كوّنته النجوم ثم سأل:

- وما هذا الشكل؟!

- تلك هي العنقاء المخلبية يا أمجد!

- وهل تلك العنقاء تسكن سيبتيما؟

أجابت بخواء:

- لا يا أمجد، العنقاء تتواجد بين الجبال لتحمي سيبتيما من أي عدوان محتمل أو طغيان من أي وادٍ آخر!

- وماذا أتى بها هاهنا؟! أليست تلك النجوم تكوّن فقط تاريخ وادي سيبتيما؟

صمتت دهب تفكر مليا إلا أنها أجابت مستنكرة:

- صراحة لا أعلم يا أمجد، غريب هذا الأمر حقا!

ظلت دهب تنظر إلى مجموعة النجوم التي تكوّن شكل العنقاء حتى طارت الأقمار فتلامست وتحور شكل العنقاء معيدا لتاريخ سيبتيما من أوله؟!

تساءلت دهب في نفسها بدهشة:

(إذن هذه هي نهاية سيبتيما؟! ما دخل العنقاء بنهايتها؟!)

- لنذهب يا أمجد؟!

قالتها دهب وهي مازالت تنظر إلى صفحة السماء الرائقة وتحاول تحويل دفة تفكيرها لشيء آخر إلا أن أمجد رد قائلا وهو يبتسم متلفتا حوله:

- لنستمتع قليلا يا دهب بذلك الجمال!

ردت باسمة وهي تنظر إليه بشغف:

- عذرا يا عامري، وجودك هنا معي خطأ كبير، من المفترض ألا يدخل ضعيفٌ إلى شاطئ الخيال!

نظر إليها مليا ثم ما لبث أن احتضنها فابتسمت ثم قاما متوجهين مرة أخرى إلى معبر العامرين!

عبرت دهب ومعها أمجد وهما يتغامزان تغمرهما لهفة الهيام.. وما أن عبرا إلى الجانب الآخر حتى استحالت تلك الهمسات العاشقة إلى تجهمٍ!

حيث ألفيا المخزنجي وبعض الحرس يقفون أمامهما مباشرة ويُظهر المخزنجي فرمانا ليفضه بيمناه مشيرا إليه ثم أعقب ذلك بإشارة إلى حراسه المرافقين بإيماءة هم يعلمون مفادها جيدا!

***

- مولاي الأمير!

نادى بها المخزنجي جهرا، فنهض الأمير عن عرشه بلهفة ثم قطع البهو مهرولا تكاد ألا تحمله قدماه من فرط الإثارة حيث قال ردا على نداء الأول قبل حتى أن يصل إلى باب البهو:

- ماذا هناك يا مخزنجي؟! ماذا صنعت؟!

توقف المخزنجي أمام الأمير في تواضع قائلا بنشوة:

- المقبوض عليه يا مولاي.

سأل بلهفة متأججة:

- أين؟!

- خارج باب البلاط يا مولاي مع الحرس!

- ودهب؟!

- معه يا مولاي!

غزت تلك الكلمات قلب حامي الحمى كغصة شقت طريقها في حلقومه لاسيما نظرة الأمير المتشفية حين قال:

- أدخلهما على عجل!

صفق المخزنجي فأدخل الحراس دهب وتبعوها بأمجد، وما أن رأى الأمير أمجد حتى انفرج ثغره كأنما انشق وكاد حاجباه أن يرتقيا محلقَين أعلى رأسه من أثر الدهشة فازدرد لعابه قائلا باستنكار:

- أمجد!

هم أمجد أن يتحدث إلا أن الأمير قد استفاق سريعا من شروده واستنكاره مشيرا إلى الجميع بالخروج حيث قال آمرا:

- الجميع إلى الخارج!

سأل المخزنجي:

- والحرس يا مولاي؟!

صخب الأمير آمرا:

- ليخرج الجميع!

تنحنح راسل متحدثا:

- مولاي، وأنا؟!

صمت قليلا ثم استطرد:

- ودهب؟!

راعاه الأمير ثم نظر إلى دهب برهة قد استطالت في حساباته فقال موجها حديثه إلى حامي الحمى:

- خذ دهب وغادر يا راسل!

سأل راسل مشدوها:

- حقا؟!

- لماذا هذا الاستغراب يا راسل؟! خذها وغادر لقد طلبت التشفع لها، وأنا الآن أشفعك فيها يا حامي الحمى، أنا لا أريدها، إنها لم تكن سوى أداة فقط.

قالها بصرامة ثم أدار وجهه مقابلا أمجد فابتسم بنشوة وقال:

- أنا أريده هو!

صفق بيديه فأمر المخزنجي الجميع بالخروج، وبالفعل قد فعلوا جميعا على عجل إلا أن دهب توقفت قائلة:

- لن أترك أمجد!

استفاق أمجد أخيرا من شبه غيبوبته ثم نظر بارتياب إلى الأمير المبتسم قائلا وهو يوجه كلامه إلى دهب:

- غادري أنتِ يا دهب، الأمير يريدني وحدي وأنا متأكد أنه لن يؤذيني!

قالها فابتسم بخبث ثم استدرك:

- أليس كذلك يا مولاي؟

اكتفى الأمير بتلك الابتسامة الصفراء فأكمل أمجد:

- اخرجي يا دهب!

أمسك راسل بيد دهب ثم أخرجها في حين سالمته مترددة وهي تنظر إلى أمجد باكية حتى غابت عن الأنظار وانغلق الباب خلف الجميع فتساءل الأمير مرة أخرى في غير تصديق:

- أمجد؟!

رد أمجد بابتسامة مقتضبة قائلا:

- خالد!

***

(المحفل الماســـوني)

- سيدي لقد وصلنا!

- إلى من؟!

- رجلنا هناك.

رد ذلك الكهل المهندم متلهفا:

- وماذا هناك إذن؟! هل الأمور على ما يرام؟!

- بل أكثر مما يفرحنا، إن الأحداث في أوجها!

ابتسم بخواء ثم تدارك نفسه فسأل:

- والجيوش؟!

- المفاوضات الآن دائرة على قدم وساق بين الواديين وقريبا جدا سيتحركان!

- لا وقت أمامنا لمفاوضات، العنقاء ستقوم قريبا من رمادها، كم تبقى لها؟!

فكر قليلا ثم أجاب:

- أسبوعان!

- لا وقت لدينا إذن، حتى قبائل الميامين في طريقها للعودة من ساحات الجبال والتي أججنا معاركها وشغلناهم بها عن الدفاع عن سيبتيما!

- أعلم ذلك سيدي، بعد أسبوع على الأكثر سيكون الجيشان في طريقهما إلى وادي الفضيلة وعند عودة الميامين وبعث العنقاء المخلبية من آخر ثرى ريشة برمادها سيكون الجيشان قد مرا ولن يشعروا بذلك!

- وملك لاتيوم؟!

- لن يعرف سيدي، من سينقل له الصورة؟ فكما أسلفت، الميامين والعنقاء سيتواجدون بعد مرور الجيشين، سيضحى احتلالا صامتا!

تنهد الكهل في جفاء ثم قال:

- آمل ذلك حقا!

***

أضحى الأمير يطوف بأمجد وهو يبتسم في محاولة لتثبيط عزمه وكسر بأسه حتى توقف أخيرا فقال:

- لم يكن علي أن أشك أو أستنكر، بالعكس بعدما رأيتهم كان لزاما علي أن أتأكد أنك أنت الغريب مع دهب!

تحدث أمجد باستنكار سائلا:

- رأيتهم؟ من هؤلاء؟!

ابتسم الأمير ابتسامته الصفراء فأجاب:

- رجالك يا أمجد!

أطرق أمجد رأسه يخشى مجابهة عيني صديقه خالد "الأمير" ثم قال بتردد:

- لا أفهم مقصدك، من تقصد؟!

طاف به مرة أخرى بعد أن ثبت فتوقف أمام وجهه مباشرة ورفع يديه عاليا ثم صفق ثلاثا فدخل المخزنجي مسرعا، حيث قال:

- أدخل الوفد!

تبدلت ملامح أمجد إلى العبوس والاستنكار فقد لاحظه الأمير خالد الذي ابتسم وهم يدلفون واحدا تلو الآخر ويخرج بعدها المخزنجي إلى حيث أتى فقال مقدما إياهم وهم يتراصّون تباعا:

- وائل، مختار، جمال!!

انتظره حتى يرد إلا أنه رام السكوت فاستأنف خالد:

- أليسوا هم أصدقاؤك؟! ورجالك في سيبتيما؟

قلب أمجد ناظريه بين ثلاثتهم بحسرة ولم يزد حالهم عن حاله، فقد غزى الأسى ملامحهم في حين صفق الأمير مرة أخرى فدخل المخزنجي حيث أشار إليهم فأخذهم إلى الخارج مرة أخرى!

نظر خالد إلى أمجد الذي يطرق رأسه أرضا فقال معاتبا:

- الله عليك يا أمجد، لقد كنت أذكى مما تخيلت، جعلتهم يقرأون المخطوطة معك، لكن ما أستغربه حقا، كيف أرسلتهم إلى سيكستوس بل ورتبت لهم زيارة معي تحت عنوان وفد من سيكستوس! يا لك من ماكر ماهر، حقيقة أنا معجب بك!

ازدرد أمجد لعابه فساد صمته إلا أن خالد زجره قائلا:

- وكيف أصلا وجدت المخطوطة؟! لقد أخذتها معي عند سفري!

تحدث أمجد شارحا:

- وجدتها عندي بالبيت بعدما تركتني، وجعلتهم يقرأونها معي لأنني كنت أخشى الانتقال وحدي!

قالها فراعى خالد لوهلة ثم استكمل مباغتا:

- ولكن لماذا كنت تريدني أنت أن أقرأها معك؟!

ابتسم خالد ثم أجاب ناظرا إلى عيني أمجد مباشرة:

- نفس السبب الذي جعلك تتشاطرها معهم، كنت أخشى الانتقال وحدي!

تفحصه أمجد بشك ثم ابتلع ريقه ثانية فقال:

- وكيف أصبحت الأمير؟!

استبشر ضاحكا من سؤاله فنظر إليه مليا ثم أخذ شهيقا طويلا فزفره استعدادا لسرد طويل:

- سأكون كاذبا إن قلت أن ذلك كله كان من حسن تدبيري، كل شيء كان مُعَد مسبقا، لا تتخيل أنني بمجرد قراءة المخطوطة طرت إلى هنا؟ المخطوطة هي مجرد وهم يا صديقي، لذلك قد استغربت حين وجدتك هنا، ما قادني إلى هنا هو المحفل الماسوني يا أمجد.

أرسل إليه أمجد نظرة لوذعية نارية فتلقاها خالد هادئا ثم أكمل:

- تلك هي الحقيقة يا أمجد، المحفل الماسوني الأكبر هو من أحضرني إلى هنا عن طريق فجوة في مثلث برمودا هم يعلمون أبعادها جيدا، ولعلمك فإن كل الطائرات والسفن التي اختفت في برمودا قد تم حشدها في مملكة لاتيوم بأشخاصها وطواقمها.

تساءل أمجد ثانية:

- لكني لازلت لا أفهم كيف أصبحت الأمير؟!

- المحفل لم يختر توقيت وصولي سيبتيما بالمصادفة، الأمير القديم توفي نتيجة اعتلال قلبي مزمن ناتج عن ألم فقد، فقد ابنه، المهم بعد أن مات تقدم عدد من مسالمي سيبتيما للإمارة، حينئذ قلت أنني أحق بالإمارة فأصبحت الأمير!

- بتلك السهولة؟!

رد خالد بذات الابتسامة:

- أنت لست على دراية بسيبتيما يا صاحبي، الناس هاهنا أسهل مراسا مما قد

تتخيل، من يرى هنا أنه أحق بالإمارة سيأخذها، لأن هموم الإمارة قد تكسبهم اعتلالات القلب وضيق النفس وثانيا لأنهم لا يعرفون كيف يزيفون مشاعرهم أو يكذبون، أول من يطلب الإمارة والأشجع في طلبه هو من يأخذها، وأنا كنت كذلك!

تحدث أمجد سائلا باشمئزاز:

- وهل ترى أن أناسا مثل هؤلاء يجب أن تفعل معهم ذلك ردا لطيبتهم وحسن ظنونهم بك يا خالد؟

- لن أرد على هذا السؤال لأنه عاطفي جدا مقارنة برجل قتل والده من فرط الإهمال!

ازدرد أمجد لعابه ثم خفق قلبه مرارا فارتعد قليلا حين نبتت تلك العبرات بمقلتيه حيث سارع بمسحها ثم هدأ من روعه استعدادا لما سيلقيه على مسامع خالد فتردد مليا إلا أنه تشجع أخيرا فقال بصخب:

- أنا أحق بالإمارة منك!

نظر إليه خالد مليا قبل أن ينفجر ضاحكا حتى دمعت عيناه فقال أثناء سعاله:

- ولماذا أحق مني بها؟!

جز أمجد على أسنانه فأجاب صارما:

- لأنني الحفيد الخامس والعشرون لجدي الحظرد الأكبر!

تبدلت ملامح الغبطة في صفحة وجه الأمير لتستحيل إلى العبوس فسكن قليلا من هول المفاجأة ثم هدر مقطبا:

- ماذا؟!

- أنا الحفيد الخامس والعشرون للحظرد يا خالد!

نهره خالد حين اتهمه صائحا:

- انت كاذب، تقول ذلك لتحكم فقط.

- أنا لا أريد أن أحكم يا خالد، لو كنت أريد الحكم لذعت الخبر بمجرد معرفتي به في تل العطايا، ووقتها كنت سأطالب بتحقيق النبوءة ولست أنا فقط بل مسالمو سيبتيما بالكامل!

احتد خالد عليه فأمسكه من كتفه ناهرا:

- أنت كاذب.

أجاب مبرهنا:

- هب أنني كاذب، كيف رأيت المخطوطة إذن دون كشف الستر من المحفل إذا لم أكن أنا حفيد الحظرد؟!

- ماذا؟!

رد بها خالد مشدوها فابتسم أمجد مجيبا:

- نعم يا خالد أعرف كل شيء، كيف رأيتها أنت!

أجاب الأمير مكبوتا مدحورا:

- مثلما رآها أصدقاؤك يا أمجد!

أجاب أمجد نافيا:

- أصدقائي لم يروها يا خالد بل رددوا خلفي، والدليل أن وائل لم يرها يوم أن كنا بالجامعة!

تذكر الأمير ممتعضا فتنهد بتأفف ثم قال:

- حتى وإن كنت بالفعل حفيد الحظرد المنتظر لتحقيق النبوءة.. لن تتقلد الحكم، سأسجنك ولن يعرف أحدهم طريقك، وسرك هذا سيدفن معك بسجنك.

- أتعتقد أنه بذلك سيندثر سري؟! حتى وإن قتلتني؟! موتي أو سجني سيكونان لعنة عليك إلى يوم الدين أو ليؤذن لك بعذاب أليم، أليست النبوءة هي ما تقول ذلك يا أمير؟!

راعاه بغيظ ثم أجاب والشرر يتطاير من ناظريه قائلا:

- اترك سيبتيما يا أمجد.

أجابه بامتعاض:

- هل تقصد أن أتركك تحل عليها بالخراب يا خالد؟!

- أنت لا تفهم أي شيء صدقني.

- اشرح لي إذن!

نظر خالد إليه مليا ومازال شرره وغضبه يتصاعدان فقال:

- الناس هنا لن تثور، وإن أرادوا ذلك حتى فلن يعرفوا كيف يثورون، هم أجبن من ذلك، لا يعرفون إلا السمع والطاعة فقط.

ابتسم أمجد تلك الابتسامة العريضة بهذه النظرة المارقة فاهتز الأمير من داخله حيث سرعان ما صفق صادحا بغضب ورهبة:

- يا مخزنجي!

كان بالخارج راسل قد وقف يسترق السمع ويرهفه حيث استمع إلى ما دار وبمجرد أن نادى الأمير المخزنجي جنّ راسل وجهه بغطاء غليظ ثم غادر مسرعا قبل أن يأتي المخزنجي داخلا بسرعة ملبيا نداء الأمير!!

***

- جاسر!

نادى بها راسل فرد بإجلال حيث قال:

- نعم يا حامي الحمى؟!

نظر راسل في جميع الاتجاهات قلقا حيث قال:

- لابد لنا أن نثور على الأمير!

فغر جاسر فمه مصعوقا ثم سأل مستنكرا:

- ماذا تقول يا راسل؟ نحن مسالمو سيبتيما نثور على حاكمنا؟! أأنت مدرك لما تقول؟!

- نعم.. مدرك لأقصى حد، أنت الذي لا تفهم صدقني!

قال ملتمسا بلطف:

- اشرح لي يا راسل لأفهم إذن!

- سأفعل، وسأحكي لك عن كل شيء بعد أن تصل دهب!

ران عليه بعض من الطمأنينة ثم قال:

- حسنا.

انتظر حامي الحمى قليلا حتى لمحها تتهدج من بعيد فسارع قائلا وهو يشير إليها:

- ها قد وصلت!

***

- مخزنجي، أريدك أن تتحفظ عليه وتودعه في أكثر السجون غلظة وأمانا في القصر هنا.

تسمر المخزنجي مكانه فتنحنح ثم قال مترددا:

- مولاي، نحن لا نملك سجونا بالقصر أو في الوادي كله!

استشاط الأمير غضبا فقال:

- ليكن يا مخزنجي، ضعه بغرفة معزولة وأحكم غلقها جيدا، لا أريد للشمس أن تشق طريقها إليه، هل فهمت؟

انحنى المخزنجي ثم أمسك أمجد برفق وتقهقرا سويا حين قال:

- أمر سموك يا مولاي!

***

- أأنت جاد بما سردته يا راسل؟!

- هذا ما حدث يا جاسر للأسف!

قاطعتهما دهب مضيفة:

- ليس أمامنا متسع من الوقت، لابد أن نثور عليه، لابد له أن يفطن إلى أننا وادي الفضيلة ولسنا وادي الجبن والتخاذل كما يتخيل!

رد جاسر معارضا:

- النظرة التي أراها بعينيكِ الآن يا دهب لم أعهدها أبدا، لا أريدك أن تنسين أصلنا نحن مسالمو سيبتيما.

سكن هنيهة ثم أردف:

- لا أريد عمران قلبك بأمجد أن يدفعك لأشياء ستندمين عليها لاحقا، لم أعهد قلبك النقي بمثل ذلك!

نظرت إليه باندهاش جافية في حين نظر إليها ثم إلى راسل فأجاب:

- نعم يا دهب أعلم كل شيء، أعلم أنه يعمر قلبك كما لم أفعل أنا!

ابتلعت ريقها في صعوبة ثم قالت ناكرة:

- هل تظن أن ما أفعله ذلك من أجل أمجد؟ ولائي الأول والأخير دائما لسيبتيما وأنت تعلم ذلك جيدا.

أضاف مخالفا إياها في سرعة:

- كنتِ!

ردت مستنكرة:

- ومازلت يا جاسر!

ألقمها حجرا من الجدل في منتصف رأس منطقها فشجه حين قال:

- وهل من تفضّل مصلحة سيبتيما دائما تدخل مع ضعيف من خارج المملكة كلها إلى شاطئ الخيال مارة بمعبر العامرين حيث يُعرض تاريخ سيبتيما كاملا؟!

نزلت تلك الكلمات كوقع الصاعقة على أذنيها فنظر إليها راسل معاتبا ثم تحدث رافعا يمناه:

- انتهينا، لا داعي لهذا الكلام الفارغ، سنثور على الأمير، وسنبلغ الشعب المسالم، في الخفاء دون أن يشعر بنا الحرس وذائعو الفرمانات والجساسون، لابد له أن يعلم أننا لسنا بجبناء نحن فقط فاضلون، إذا لم يكن يعي الفرق فسيعرفه على أيدينا!

ابتسمت دهب بحماس إلا أنها سرعان ما تحدثت متذكرة:

- صحيح، بمناسبة شاطئ الخيال، عندما تطايرت الأقمار وتلامست وأثناء حركة النجوم كوّنت شكلا غريبا جدا لم أقدر على فهمه؟

نظرا إليها باستغراب فاستكملت قائلة:

- العنقاء، لقد رأيت العنقاء المخلبية في نهاية تاريخ سيبتيما!

***

انتشرت وشاية ثلاثتهم كالنار في الهشيم، فما بقي سكن في الوادي إلا ويعرف بأمر أمجد الحفيد الخامس والعشرين للحظرد والذي قد حل أخيرا!

تم تلقينهم وتوعيتهم ببنود المخطوطة ونبوءاتها والتي ويعلمون جيدا بإلزامية تحقيقها وإلا ستندثر سيبتيما، هذا ما قالته المخطوطة وما أقرته بنودها!

استجاب مسالمو سيبتيما بل اتفقوا على يوم للخروج جميعا على الأمير خالد ومطالبته بالنزول عن الإمارة!

وقد كان!

أشرق صبح ذاك اليوم على خالد كأسوأ شمس قد حجبها الخسوف!

تفاجأ بهم الأمير علو رأسه ومعهم أمجد الذي قضّوا قيده فحرروه!

لم يكن للأمير مزيد من الخيارات، لم يكن له أن يتجاهل من يحاوطون قصره الآن فالمسالمون جميعا يقفون نصبه، لا سبيل للمماطلة أو حتى المقاومة فهو أصلا لا يمتلك من القوات ما يكفي للزود عنه!

ناهيك عن المباغتة في الأمر، إنهم لم يتركوا له الفرصة للتحري عمّن سيعارضه أو يتخذ صفه من حاشيته!

لم يجادلهم كثيرا بل طلب الإذن في كلمة موجزة قبل النزول عن الإمارة وتسليم القصر وكان له ما طلب!

خرج الأمير المعفى إلى شرفة قصره المطلة على مسالمي سيبتيما الذين تراصوا بالخارج فبدأ حديثه قائلا:

- أهل سيبتيما الكرام، أشهد الله فيكم أنني لم أروم حكما ولن أبتئس للنزول عنه، سأبتئس بكم فقط وستعون ذلك فيما يأتي، قد فعلت أشياء ظننتم أنتم أنها تسوؤكم، والله يشهد أنها ما كانت كذلك، ستبغضونني الآن، لكني أعدكم، سيأتي وقت تتذكرونني فيه بكل خير وكم أنني أردت الحفاظ عليكم، شكرا لكم مسالمو سيبتيما، تذكروننني بالخير دائما واعلموا أنني قد نزلت لكم عن الإمارة طوعا، وتذكروا هذا الوقت فسيأتي وقت لن يتنازل الأمير عن إمارته إلا برؤوسكم!

ألقى خالد تلك الكلمات اللاذعة المقتضبة ثم تقهقر طوعا ليدلف مكانه أمجد الذي وقف في الشرفة مخاطبا:

- لن أطيل عليكم أيها المسالمون، مرت سنون عجاف قد ارتبتم فيها من أمركم أما الآن فهناك أمير يقف على مآربكم، ويراعي الله في شئونكم ويحنو عليكم، أنا الحفيد الخامس والعشرون لجدي الحظرد الأكبر، أنا المنتظر الذي جئت ليزداد رخاء وادينا ووواديكم تحت لوائي، انصرفوا الآن إلى سكنكم ولتحضروا غدا لجلسة حكم وتصريف للأمير المتنازل وجميع من خانوا سيبتيما!

سينتظرهم مني ما لا تحمد عقباه، كل من يتهاون في حق ذلك الوادي الفاضل لن يلقى إلا الهلاك كما أراد لوادينا الخراب!

ألقى تلك الكلمات الرنانة على مسامع المسالمين فانبهر الجميع ومن ضمنهم كانت دهب التي نظرت إليه بفخر فنظر إليها نظرة خاطفة مبتسما، ثم غمز لها قبل أن ينصرف الحضور جميعا ليعود إلى داخل القصر!

***

- هناك ما يقلقني في كلام الأمير أمجد يا دهب!

نظرت إليه دهب معاتبة ثم قالت:

- لماذا يا راسل؟! إنه..

قاطعها جاسر مؤيدا:

- أنا الآخر قلق جدا يا دهب!

أردفت دهب نافية:

- لا تتحاملوا عليه لهذه الدرجة، أنا التي أعرف أمجد جيدا، إنه من الداخل إنسان نبيل جدا لأبعد حد، لقد عرضت عليه الإمارة أكثر من مرة حين علمت أنه حفيد الحظرد المنتظر وقد رفض بشدة، أمجد لا يريد الإمارة، وأفضل من يحكم هو أكثر من يترفع عن الحكم!

أفصح جاسر مطرقا رأسه:

- سأقول لكم أمرا ليس من الضروري أن تعلقوا عليه، أو تتهمونني بالطفولية، إلا أن الأمير خالد حين تنازل عن الإمارة بتلك السهولة، وخطب في الشعب بتلك الكلمات الرنانة، وقتها فقط قد أحسست أننا ظلمناه!

نظرت إليه دهب مستنكرة فقالت:

- جاسر، الأمير خالد كان حذقا فطنا وظيفته الكلام المعسول، لقد أقنع الناس أياما أن مصلحة سيبتيما في سن القوانين والعقوبات الجسدية وسالبة الحرية!

تحدث راسل أخيرا فأضاف حاسما:

- لم يعد هذا الكلام مجديا، نعم قد يُحسب له تنازله بتلك السهولة وتسليم الإمارة إلا أننا لن نتناسى أنه وإن كان استمر عهده بتلك القوانين والعقوبات فإلى أي مدى سيصل الخراب والفوضى بالوادي!

***

تجمهر مسالمو سيبتيما أمام القصر في اليوم التالي وفي الساعة التي حددها الأمير أمجد، حيث وقفوا صامتين يترقبون ويهمسون!

بعضهم ينتظر فقط ليعرف والآخر يشارك لتقرير مصير الأمير المتنازل والبعض يتابع من زاوية الرؤية البحتة غير عابئ بما ستؤول إليه الأحداث أصلا!

وقف في منتصف الردهة الفسيحة المتاخمة للقصر، الأمير المتنازل خالد قائما منتصبا في عزة جلية وهيبة ليست بالمصطنعة وحوله يقف بعض الموالين للأمير الجديد أمجد، حيث ينتصب وائل ومختار وجمال ودهب وراسل وجاسر وبعض الحرس قائمين!

قلّب خالد عينيه في المسالمين الذين اكتظت بهم الساحة فقد استشعر الاختلاج في أعينهم، فما بين مترقب ومشارك وآخرون آلفون والبعض الذي استشعر فيهم الشفقة والأسف لحاله غير متشفين.. توقفت عيناه على شخص قد اشرأبت له عنقه وانفرج له ثغره الدقيق!

إنه الشخص الذي قابله بالطائرة.. هو الآخر ينظر إليه ويبتسم تلك الابتسامة الصفراء!

تذكر خالد حديثه معه بالطائرة فأطرق رأسه أرضا ليستجمع هذا الحديث:

(ماجت الطائرة ومعها المستقلون كذلك، فبعضهم يلهث والآخرون يهرعون بفزع، يروحون ويجيئون في لوعة، اضطرب خالد يتابع كل ذلك، فوجد الجميع يهذي بعبارات الاستنجاد والتوبة فهناك من التقط مصحفا، وأفراد قد عانقوا صلبانهم.. إلا ذلك المتأنق، يجلس إلى كرسيه يقرأ في كتاب بمنتهى الهدوء لا ينظر حوله وسط هذا السوق الصاخب.. حتى حوّل ناظره عن الكتاب فجأة ناظرا إلى خالد فابتسم، حينها استجمع خالد كل شيء ثم تذكر فهمس المتأنق له:

- نحن معك في كل وقت.. نحن معك في كل مكان.

هدر بها خالد معه فازدادت ابتسامة ذاك الرجل، حتى ارتطمت الطائرة بفجوة مجهولة وسكن بعدها كل شيء!).

نعم لقد تذكر، إنه المتأنق الذي قابله بالطائرة.. إنه هو.. لماذا يقف هكذا ويبتسم؟! ألن ينقذه؟! إنه ممثل المحفل الماسوني، أسيتركهم لينكّلوا به؟!

ألم يدعُهُ إلى عدم القلق مرارا.. إنه من قال له كثيرا: نحن معك في كل وقت.. نحن معك في كل مكان، فأين هو وأين هم الآن؟!

رفع خالد رأسه مرة أخرى إلا أنه وجد هذا الشخص قد اختفى وكأنه ذهب إلى العدم.. تمنى أن يذهب إلى الجحيم أيضا بنفس تلك المهارة والسرعة!

أطل الأمير أمجد من الشرفة فسكن الشعب وانحنى الجميع في هيبة حيث تحدث أمجد ببأس وقوة:

- ارفعوا رؤوسكم أيها المسالمون، أنا أميركم وقوتي أستمدها من قوتكم، وهيبتي في التزامكم لا في انحنائكم لي، ارفعوا رؤوسكم فلن نرى العدو الحقيقي طالما انحنينا، لابد لرؤوسنا وهممنا أن تناطح السحاب، فارفعوا رؤوسكم أيها المسالمون!

ألقى أمجد تلك الكلمات الرنانة على المسامع فتفاعل معها الجميع بالتصفيق في حين ابتسمت دهب ناظرة إليه ثم إلى جاسر فراسل الذي ابتسم مطمئنا بدوره، فاستأنف أمجد:

- لن أطيل عليكم ولي رجاء.. سأناشدكم به بعد معرفة التصريف النهائي للأمير المتنازل المتخاذل خالد، فقد قررت بعد مشاورة مع رجال البلاط أنه سيتم نفي الأمير المتنازل خالد إلى حيث يهيم المتخاذلون في ميادين البراري القاحلة، فإما تقتله قبائل الميامين أو تخمشه العنقاء أو يقنعهما فيرسلاه من البوابات النجمية إلى حيث مأواه الذي جاء منه!

صمت قليلا وهو ينظر إلى دهب مبتسما ثم قال بصرامة:

- كما أمرت أن يتم نفي حامي الحمى راسل وجاسر و...

صمت مرة أخرى مطرقا رأسه في خجل إلا أنه سرعان ما تدارك نفسه ليكمل:

- ودهب ومختار وجمال ووائل إلى ميادين وساحات الجبال والبادية أيضا ليرافقوا الأمير في رحلته التي لا عودة منها!

حيث أنهم وإن ساندوني لكي أصل حيث هاهنا، إلا أنهم قد خانوا الأمانة ومن يخن مرة يخن ألفا، ومن خان ليوصلني سيخونني ليوصل غيري، وينفذ حكم النفي من هذا التوقيت!

نظر إلى دهب بلفتة خاطفة حيث وجد الصدمة تخيم على جذوع وجهها وكذلك راسل وجاسر اللذين لم ينبسا من هول المفاجأة إلا أنه أكمل حديثه على كل حال قائلا:

- كما أمرت بتكوين جيش قوي من اليوم حيث سيتم الآن أثناء تواجدكم هنا فرز المسالمين وإبراز الأشداء منكم وسيتقلد رجال الجيش أولئك أرفع المناصب والأوسمة المهداة من الوادي، حفظ الله سيبتيما دائما!

أنهى الأمير كلامه ثم أشار إلى الحرس الذين انقضوا على من سيتم تنفيذ حكم النفي في حقهم ليخرجوهم من سيبتيما مساقين إلى بوابتها الرئيسية!

طفق باقي الحراس يفرزون المسالمين ويختارون أفراد الجيش كما أمرهم الأمير أمجد بالمواصفات التي قد حددها لهم!

نظر راسل إلى جاسر الذي نظر بدوره إلى دهب التي تنتحب كما لم تفعل من قبل ثم أطلقت تلك النظرة الأخيرة وسط دموعها تجاه أمجد الذي نظر إليها ثم أدار وجهه ليقابل الحراس مرة أخرى!

***

مر أقل من أسبوع وتحول بهو القصر وسراديبه وردهه إلى ساحات للقتال، وكان الأمير يحضر التدريبات بنفسه بعد أن دربهم هو ذاته في البداية!

كما ألغى العملات الودية واستبدلها بالنقدية الورقية، فانبرى الجميع يتحصلون عليها بكافة الطرق ليـطْعَموا، فارتُكبت الجرائم لأول مرة بسيبتيما في سبيل الحصول على تلك العملات.. نعم كان من ارتكبوا تلك الجرائم لا يتعدون في عددهم أصابع اليد الواحدة والباقي قرر العيش على خصال سيبتيما الفاضلة أو الموت دون ذلك.. وبالفعل هناك من قضوا جوعا مرجحين ذلك على ارتكاب المخالفات الأخلاقية ناهيك عن السرقة التي لا يعلمون ماهيتها أصلا!

ومع قلة عدد المخالفين إلا أنه كان لزاما عليه سن القوانين والعقوبات، وبناء السجون التي اكتظت بالمسالمين المظلومين!

كل ذلك قد تم في أسبوع أو أقل!

لقد جرى العمل على قدم وساق في سيبتيما لهدمها لا لبنائها!

الناس أضحوا جوعى واندثرت الفضيلة من القلوب تدريجيا حتى تقاتلوا!!

ترحم البعض على الأمير خالد واشتاق الآخرون إلى حيث عهدوا سيبتيما، لقد أصبح لا فرق بينه وبين وادي الضلال سيكستوس!!

امتطى أمجد عرشه الذي بدّله بأفخم من مثيله السابق ثم نادى المخزنجي الذي حضر مسرعا فدخل منحنيا حيث قال بجزع:

- أمر مولاي!

ابتسم أمجد قائلا:

- هل تعرف يا مخزنجي لماذا لم أنفِك معهم؟!

استفسر المخزنجي بقلق:

- لِمَ يا مولاي؟!

- لأنك لم تخن، هم خانوا، حتى إن خانوا من أجلي ولو بدافع الحب فغدا سيخونوني بدافع الملل!

قال ذلك فتلألأت في عينه عبرة قد التمعت فسارع بمسحها ثم استأنف مرددا:

- حتى لو كان ذلك بدافع الحب يا مخزنجي، الخيانة لا تنبت حبا أبدا مهما كانت الظروف والتأويلات، الخيانة هي الخيانة، ومن يخن يهن! اليوم خانوا لأجلي سيبتيما فغدا سيخونوني من أجلها!

ارتكن قليلا إلى الصمت ثم قال مستأنفا:

- أتدري سبب قوتي وقدرتي على الاستغناء بتلك الطريقة التي شهدها الجميع يا مخزنجي؟

طأطأ المخزنجي رأسه في هيبة دلالة على الاستماع والإنصات فتابع أمجد مفصحا:

- السبب أنني فارغ من الداخل.. لا يوجد من هو شجاع أو جبان.. جميعنا نخشى الخسارة.. إلا أن بعضا ممن ترونهم شجعانا لا يملكون أصلا ما يخشون خسارته، الجبن كله في التطلع والأمل.

قالها فسكت قليلا ليغالب شعوره بالبكاء ذاك ليستطرد:

- لذلك إن أردت كسر شوكة أحد الأقوياء الشجعان.. اربطه بأمل حقيقي، لا أمل زائف.. شيء يستحق بالفعل أن يحيا من أجله، وقتها فقط ستتحول تلك الضواري إلى غزلان وحملان وديعة!

نظر إليه المخزنجي مومئا رأسه بالإيجاب حيث قال:

- طبعا يا مولاي! طبعا!

ابتسم أمجد مرتاحا ثم قال:

- اكتب ما سأمليه عليك يا مخزنجي وذعه كفرمان يجوب سيبتيما بالكامل ويتم تنفيذه من وقت إذاعته.

سأل المخزنجي مستفسرا وهو يباشر الأرض لا يرفع عينيه في الأمير أمجد:

- وماذا سيقول هذا الفرمان يا مولاي؟

تنحنح أمجد ثم أفضى مبتسما بحماس:

- أمر فرماني أول بنزول الضعاف من الكهف إلى سيبتيما، يعيشون فيها ويتزوجون منها دون المرور برفيق الأخلاق ودون استئصال المشاعر.

سكت قليلا فقال متعللا:

- أرى أن الفترة التي قضوها بالكهف كافية جدا!

تجهم المخزنجي بغتة من هذا الفرمان إلا أنه أجاب الأمير بالموافقة فاستطرد الأخير:

- أمر فرماني ثانٍ بالإكثار من زراعة زهرة الخزامي، ومن يشرف على هذا الأمر إشراف كلي هو ناجم، صانع الورود، مفهوم؟!

- أمرك يا مولاي!

***

هام الجميع على وجوههم في الصحراء بعد أن طردوا شر طردة من سيبتيما وأغلقت أبوابها قدّام جباههم!

لم يجف دمع دهب من وقتها وها قد مر أسبوع ولا تدري بأي دمع تنتحب؟!

تنتحب على ذاك الحلم الذي ضاع في استعادة سيبتيما، أم على مستقبلها المفقود في تلك الضِياع الجرداء؟! أم تنتحب لحبها الجاهل الغبي، لقد خانت وطنها من أجله، من أجل عامر خائن كاذب!

لقد فضلته على واديها، لقد خانت الجميع من أجله وهو أول من خانها!

لقد كان جاسر على حق!

لن تسامح نفسها حتى تحرر سيبتيما من قبضته أو تهلك دون ذلك!

كانوا يعدونها سيدة سيبتيما الأولى في الوفاء والتضحية وحب الخير لمساليها، والآن ماذا تكون؟!

مجرد نذلة خائنة أوقعت الوادي بيد من لا يعتد إلا بنفسه، الآن شعرت بغصة قلب أميرة، لقد ظلمتها، لم تعلم أن شعور الخيانة بمثل تلك القسوة!

ستحررها حتما أو لتهلك دون ذلك!

***

توسط الأمير ميدان التدريب المتسع والذي يحوي چل الجيش تقريبا ثم بدأ حديثه بصرامة:

- أنتم جيشي، ولستم جيش سيبتيما، مجرد التفكير جريمة، الاعتراض كبيرة، تذكروا أيضا أن الخروج علي غير وارد في مختلف الأعراف والدساتير، الانتماء لأي شخص أو كيان غير الحاكم لهي خيانة، وجزاؤها الهيام في ساحات البراري الحارة في رحلة سوداء قاتلة!

اعرفوا جيدا أن الطاعة هي أساس بناء المجتمع، الطاعة.. والطاعة العمياء.

التمرد من صفات إبليس، فهو أول المتمردين على الله، وانظروا إلام وصل؟!

اللعن والطرد من رحمة الله والخلود في النار!

هذا جزاء المتمردين دوما!

تذكروا دائما أن الحاكم يفهم أفضل ويعرف أكثر ويرى ما لا تراه وهو بالتأكيد يريد المصلحة العامة.

افترض دائما سوء النية مع الغير، أما معي فلا تفترض من الأساس!

الأوامر تُنفَذ دون نقاش أو جدال، واعلموا جيدا أن الاستسلام أحيانا يكون أفضل الحلول لوقف نزيف الدماء!

***

أيام قلائل أخرى قد مرت وسيبتيما تنحدر إلى الحضيض أكثر فأكثر، لم يعد هناك ما يميز هذا الوادي الذي كان يوما ما فاضلا!

السجون قد امتلأت، والجريمة أضحت تُفْتعل لمجرد المقدرة بعد نزول الضعاف إلى الوادي، فقد عاث بعضهم في الأرض فسادا والبعض الآخر قد سئم حياة الضلال تلك في وديانهم فلزموا الكهف!

أشرف ناجم على زراعة الخزامي وتنامت كثيرا، رغم الوقت الذي تتطلبه زراعتها إلا أنه قد أضفى إليها تركيبة تسرع تماما من نموها!

كل ذلك قد تم ومن الواضح أن الوادي في طريقه إلى الهاوية، هذا إن لم يكن تخطاها بالفعل!

***

- ساعة الصفر قد حانت سيدي!

- حقا؟!

- نعم مولاي، الجيشان في طريقهما إلى الوادي!

- مرحى، إن رجلنا قد أوفى، لابد أن أبلغ الدابة، سيكون هذا هو يوم سعدنا، لقد اقترب، لقد اقترب، وحين يقوَّض قيده وتُهتَّك أغلاله سنغزو العالم في زمرته!

***

توقف الجيشان في حذا بعضهما، جيش وادي سيكستوس يرافقه جيش وادي كوينتوس، يقفان جنبا إلى جنب وكلهم أمل في الاستيلاء على سيبتيما!

تقدم قائدا الجيشين فاقتربا من بعضيهما حيث بدأ قائد سيكستوس الحديث فقال:

- مستعد؟!

رد عليه الآخر:

- تماما.

قالها فأشار الاثنان كل إلى جيشه ليتقدما خائضين تلك الصحراء بخيولهم تباعا مسرعين وكأنما يتسابقون ليدخلوها دون العبْء بأي من جيش سيبتيما أو حاكمها وكأن ما يفصلهما عن سيبتيما هو فقط الطريق!

حثوا الخطى متعجلين في مسيرتهم، مذعورين أن يقابلوا قبائل الميامين أو أن تكون العنقاء قد قامت من رمادها، إلا أن سبيل الغزو كان آمنا!

وصلوا إلى حيث أبواب وأسوار وادي سيبتيما، فأمسكوا الحراس المعينين بخدمة حراسة البوابة من الخارج، ثم فصلوا رؤوسهم عن أجسادهم بتلك البساطة وقد اخترقت سهامهم ورماحهم صدور حراس الأبراج التي تعلوا السور دون إرسال إنذار حتى أو انتظار انصياعهم أو التمرد!

ماجت سيبتيما بمن فيها حتى قُضّ مضجع الأمير وهرع يتابع ما يحدث من منظور معين بالداخل يطل على بوابته الرئيسية، إلا أنه حين أيقن الهزيمة لا محالة، آثر إحياء البعض على قتلهم وفي الحالتين الجيشان سيعبران بوابة سيبتيما وسيحتلان الوادي الذي كان يوما شامخا!

حينئذ وقف أمجد في منتصف بهو القصر ثم صرخ قائلا:

- افتحوا البوابة، ألقوا أسلحتكم، سلموا سيبتيما، انضموا إلى الجيشين.

ظل يكرر تلك الكلمات حتى استجاب بعض الجيش وألقوا أسلحتهم ثم فتحوا بوابة سيبتيما، إلا أن البعض أيضا قد تمسك بالكفاح ضد المعتدين وفضّل الفناء دون سيبتيما على العيش كأسرى محتلين من قبل وديان الضلال، ومن أولئك المكافحين بعض من أتوا من تلك الوديان الضالّة، إلا أن روح سيبتيما قد أرست فيهم الجمال والفضيلة فقرروا الموت كفاضلين على الحياة كجرذان خائنة!

***

تحجرت حلوقهم تقريبا فصارت كالرحى تصطك صخورها في بعضها بغير غاية، مازالت دهب تنتحب لا تمل ولا تكل!

أقدامهم لم تعد تحملهم، لقد شارفوا على قضاء نحبهم، إن تلك الفيافي القاحلة لهي آخر ما توقعوه، إلا أن ما ظهر أمامهم الآن لم يكن متوقعا أكثر

توقفوا فجأة مهتابين وقد علموا أن تلك اللحظات هي الأخيرة في حياتهم!

إنهم يقفون أمام ملك قبائل جان الميامين!!

لقد انتهى أمرهم!

***

وقف الأمير أمجد فجأة قائلا وسط بسماته:

- الآن سيبتيما أصبحت تحت حكم ممثلي وادي سيكستوس ووادي كوينتوس، كل الرجال الذين أُرسلوا إلى هنا منذ سنين ليكوّنوا جبهة قوية من الداخل مع جبهة الخارج المتمثلة في الجيشين، شكرا لكم، قد أديتم واجبكم بجدارة واستحقاق!

لم يخذلنا غير بعضكم والذين أثرت فيهم سيبتيما وفضّلوا حياة الفضيلة وقد خانوا وديانهم اللائي قد أتوا منها!

وهؤلاء عقابهم سيكون الإعدام بالمقصلة مثلهم مثل من رفض أن يلقي سلاحه ويسلم سيبتيما وألقى بأوامري عرض الحائط.

كل من تمرد سيُعدَم!

لقد حذرتكم من قبل!

سكت أمجد هنيهة يتابع مجريات ما قاله حتى تحدث مرة أخرى آمرا:

- ناجم.

ظهر ناجم من العدم فجأة لينحني أمام أمجد حيث قال باحترام:

- أمر مولاي!

- ابدأ الآن في إخراج جان "الباراث" من زهرات الخزامي!

***

(- لقد انتبهت إلى أمر مريب بعض الشيء، هل تتذكرين والدتك حين كانت تخبرنا عن زهرة الخزامي؟

ابتسمت أميرة متذكرة فقالت:

- طبعا أتذكر يا دهب، كانت أياما خوالي مبهجة، كنا محض أطفال.

نفضت دهب عن يديها بعض الغبار الملون الذي كانت تعبث به ثم استطردت سائلة:

- تتذكرين حين كانت تحكي عن استخدام بعض مارقي قبائل القرم لزهرة الخزامي؟! هل تتذكرين فيم كانوا يستخدمونها؟!

صمتت قليلا فصفقت فجأة ثم ابتسمت فردت:

- نعم نعم، لقد تذكرت، كانوا يستخدمونها في حـ...

قاطعتها دهب:

- لماذا لا يصنع ناجم سوى زهرة الخزامي؟! في حين أنها أكثر الزهور صعوبة في صنعها؟! وأطولها وقتا في التصنيع، وكذلك هي أقل الزهور أمانا وأسوأها سمعة من بين مئات الأنواع، ألا تتفقين معي في ذلك؟!

وجمت أميرة قليلا تتذكر حيث قطبت جبينها فجأة فسألت موتورة:

- ماذا تقصدين يا دهب؟!).

***

استقبل ناجم الأمر ثم أجاب الأمير مسرعا:

- أمرك مولاي، سأستخرج جن الباراث الذي يسكن زهور الخزامى!

ابتسم الأمير أمجد ثم أطرى قائلا:

- كانت فكرة رائعة منك حقا يا ناجم، صناعة ورود الخزامي التي تحمل زهورها عائلات جان الباراث، حتى إذا ما أتي اليوم المشهود أخرجناهم فساعدونا في حربنا ضد سيبتيما، إلا أن مسالمي سيبتيما كانوا أضعف مما تخيلت فلم يحتاجوا استخدام تلك القبائل لقد هزمتهم قلوبهم قبل أن يهزمهم حسامنا!

ابتسم مطولا ثم تنهد براحة فتابع:

- اذهب فاستخرج الباراث كما أسلفت ومرهم ليقفوا على البوابات والأبراج والأسوار للتأمين، وجهز المقاصل بسرعة، لابد أن يكون العقاب رادعا وبمنتهى السرعة،، واقبض بمساعدة المخزنجي على كل من لم يترك سلاحه وكل من رفضوا النزول من كهف الضعاف!

أجاب بتلك الانحناءة التي تحمل كل الهيبة فقال:

- أمرك يا مولاي!

أضاف الأمير آمرا:

- وبعد أن تقبض عليهم أعدمهم جميعا، واحشد سيبتيما بالكامل ليروهم أثناء تنفيذ الحكم، أريد للرادع العام أن يتحقق.

ابتسم ناجم تلك الابتسامة الخبيثة مجيبا:

- تعليمات جلالتك نافذة يا مولاي!

***

انبرى الحرس في القبض على كل معارض لحكم الأمير الجديد، تم العمل على إنهاء المقاصل التي وُضعت في كل مكان بالوادي لإرهاب الشعب!

شرع ناجم في استخرج قبائل الباراث التي كانت تسكن قلوب زهور الخزامي، ثم تسكينها لحماية الأسوار والأبراج وبوابات سيبتيما من الداخل والخارج وزرعهم في كل مكان داخل سيبتيما لإضفاء الرهبة بالنفوس!

إنها لم تعد سيبتيما كما عهدوها، لم تعد وادي الفضيلة ولا حتى وادي الضلال، إنها لم تعد واديا من الأساس، لقد أضحت أطلالا وشواخص مهدمة!

جمع الحرس بقيادة ناجم والمخزنجي عددا كبيرا من المعارضين ومن رفضوا الاستسلام يوم اقتحام سيبتيما وكان هناك عددٌ لا بأس به من الضعاف، ممن رفضوا خراب سيبتيما، غير أن هدف مجيئهم إليها كان الخراب أصلا!

اهتاج الجمع الغفير الذي تمت دعوته ليحضر أحكام الإعدام التي ستُنفَذ أمام قصر الأمير علّهم يتعظون!

ساد الصمت وانحنى الجميع حين طل الأمير من شرفة القصر!

كانت المقاصل القابعة أمامه تناهز العشر، ابتسم الأمير بانتشاء في حين جهر بصوته آذنا:

- قدّم المعاقبون!

تقدمت دفعة أولى من المعاقبين إلى المقصلة، ركنوا إلى الأرض في خنوع!

سلموا رؤوسهم لتبيت في مكانها المخصص بالمقصلة، تم تثبيت الرؤوس وتوثيق الأيادي والأقدام جيدا!

توقف شخص منهم حيث رفع يمناه قبل تكبيلها ملتمسا، فأذن له أمجد في الحديث حين استأذنه فرد عليه متغطرسا بمجرد إشارة للبدء في كلامه، حيث نهض والعبرات تتلألأ في عينيه قائلا وسط هذا الجمع الموتور:

- أنا مغارم، ضعيف من وادي سيكستوس، جئت إلى سيبتيما منذ زمن بعيد، كنت من بين الأشخاص الذين خدعوا سيبتيما ومساليها، ودخلوها على أنهم قد ملّوا حياة الضلال راغبين في العيش الحلال، والفضيلة العامرة، إلا أن سبب مجيئي أنا ومعظم أفراد سيكستوس كان واضحا محددا، وهو أن نساعد الجيش من الداخل على احتلال سيبتيما بتكوين جبهة داخلية مساعدة لجبهة الجيش الخارجية.

لقد جئت هنا من أجل الخراب وقد سكنت كهف الضعاف، وبعدها أيقنت أنني لم أدخل واديا، بل دخلت أجمل وأنقى وأطهر بقاع الأرض، دخلت مكانا لا كذب فيه ولا زيفا ولا بهتانا وتضليلا، فقط الحق والخير والجمال، دلفت إلى مكانا يتعامل فيه البشر أنهم بشر وليسوا حيوانات، جئت إلى مكان شعرت فيه أنني إنسان في النهاية!

(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) هذا ما قاله الله عز وجل في كتابه وتعلمته هنا، وعرفت أنه من الطبيعي ألا توجد أمراض وديانتنا المستعصية هنا فلا فساد هنا اكتسبته أيدي المسالمين، لذلك فالبر والبحر نظيفون كلية!

الآن سأموت لأنني لم أباشر تنفيذ مهمتي التي جئت هنا من أجلها، ولو تم عرض الأمر علي مئة مرة، فسأرفض، وسأختار ما اخترته الآن!

لقد تعلمت الحب هنا من أجل الحب لا المصلحة، تعلمت أن الحب كالهواء مجاني فلن أخسر ولن أدفع مقابلا باهظا أو حتى بخسا لقاء حب الجميع، تعلمت أنني إن أردت ابتياع شيء غالٍ بثمن زهيد فسأبتاع خواطر الناس، لأجل هذا سأموت اليوم غير عابئ أو نادم، الآن ولأول مرة سأعلم فيمَ سأموت كما علمت في سيبتيما مسبقا لِمَ قد حييت!

أجهشت الجموع الغفيرة بالبكاء حتى أن بعض أصوات النحيب قد تعاظمت لتغطي أصوات الحراس الغليظة، في حين تحدث الأمير بابتسامة متهكمة:

- أعده لمكانه، ونفذ حكم الإعدام يا مخزنجي!

أعاده المخزنجي مكانه وأحكم عقد يديه وقدميه، ثم توقف منتظرا، هو وباقي الحرس، حيث كان على رأس كل مقصلة حارسا هو المنوط بتنفيذ حكم الإعدام!

انتظر المخزنجي إشارة التنفيذ من الأمير، وبالفعل رفع الأخير يمناه ثم هوى بها فأشار المخزنجي إلى الحرس لكي يستعدوا ثم أشار لهم ببدء التنفيذ!

أمسك كل حارس بعصا المقصلة وهمّ بتحريكها إلا أنه قد تنامت جلبة إلى مسامع الجميع فتوقفوا ليرهفوا السمع، حتى بدد حيرتهم تلك ما رأوه يلج أمامهم.. إنه جيش!!

جيش جرار من...

ما هذا؟! هل ما يروه صحيحا؟! هل يمكن ذلك؟!

إنها قبائل الميامين الغفيرة، لا حصر لأعدادها، قبائل الميامين العملاقة، فالجان الواحد فيهم بطول أربعة أمتار ممتلئ جسده يملك أربعة أيادي وثلاثة رؤوس وساق واحدة تنقسم في الأخير إلى قدمين!

بكل رأس هناك قرن قرمزي واحد يتوسطها، يتخذون اللون النيلي كأن أجسادهم قد صبغت بنهر رائق لا كدر بمياهه!

عيونهم مستديرة واسعة ومشقوقة من المنتصف طوليا وبها بريق مخيف!

يمسكون بشعلات متقدة، لالا.. إنها أيديهم هي المتقدة من تلقاء ذاتها!

لا رادع لقوتهم.

وما هذا أيضا؟!

هذا ما كان ينقصهم، العنقاء المخلبية تمشي في المنتصف من جيش الجان الميامين!

طائر عملاق يتخطى حاجز السبعة أمتار له سبعة أجنحة عِظام!

فردت العنقاء أجنحتها العملاقة ثم سرعان ما نفضتها جميعا فخلف ذلك هواء كان كفيلا بإسقاط حراس الملك الذين وقفوا عند رأس كل مقصلة!

فغر الجميع فاه لما رأوه، ويروه الآن!

إن من يتقدمون جيوش الميامين هم دهب وراسل وجاسر فخالد ومختار ثم جمال ووائل!!

انقض الميامين يحررون المسالمين والضعاف من المقاصل ثم بضربة واحدة تم تقويض المقاصل لتستحيل إلى مجرد ذر صغير!

عاث الميامين في سيبتيما يقتلون قبائل جان الباراث سيئة السمعة، فبمجرد أن يشير عملاق الميامين بيده المتقدة إلى جان الباراث إذا ينبعث شهابٌ مارق حارق ليصطدم بهم فيحولهم إلى رماد في الحال!

أنهى الميامين تقريبا على الباراث في حين قتلت العنقاء كل من رفض من الحرس إلقاء سيفه إما بخمشها لصدورهم بتلك البراثن التي تزيد عن طول وحدة الرماح، أو سحقها لأجسادهم تحت أرجلها أو حتى قضما لرؤوسهم بمنقارها!

توقف جان من الميامين أمام ناجم الذي ضل به سعيه عن الهرب فاستسلم وأغمض عينيه استعدادا لموتة سريعة مؤلمة فشرع الجان في زرع أسنانه برقبته إلا أن هناك من تقدم من بين شعب سيبتيما حيث اخترق الصفوف سريعا، فتوقف أمام ناجم يحتضنه لكي يهوى الجان بفكه عليه بديلا عن ناجم..

إنها أميرة!!

لقد أخذت الضربة بدلا عن ناجم... ضربة من أنياب الجان القاتلة قد اخترقت ظهرها وهي تحتضن صانع الورود، فخرت على الأرض في التو واللحظة ذاتها، ليتركها ناجم ويهرب من أمام الجان في الحال!

رأت دهب ذلك فركضت باكية إلى أميرة ثم افترشت الأرض بجانبها حيث سألتها بحسرة وسط صراخها المكلوم:

- لماذا يا أميرة؟! لِمَ؟! لم تعمري قلبه قط، لِمَ أضعت حياتك هباء دونه؟!

ردت أميرة وهي تتنعتع متألمة:

- لا يهمني أن أعمّر قلبه يا دهب، المهم أنني سأموت وهو عامري، سأموت ولم يعمر قلبي غيره، حتى ولو سأموت بدلا عنه، أنا على رضى من أمري، البذل يا دهب، البذل والتضحية هما السعادة الحقيقية في الدنيا، للعطاء مذاق ألذ من الأخذ يا صديقتي.

قاطعتها دهب سائلة بلوعة:

- حتى وإن كان من نضحي من أجلهم لا يستحقون؟

ابتسمت أميرة وسط أناتها ثم أجابت بألم:

- التضحية تكون لمن لا يستحق يا دهب، إن البذل من أجل من يستحق لهو رد للجميل لا أكثر، لأنه قد استأهل ذلك بفعله، أما المنح والجود فيكونان دوما لمن رد بابه بوجهك، لمن أمطت من طريقه حجرا كان سيشق قدمه أو تلقفت آخر كان في طريقه لشج رأسه، فتناول هو هذا الحجر ثم ألقمك به رجما، تلك هي التضحية يا دهب، فالوصال لمن قطع يا حبيبتي.. لا لمن وصل.. وإلا لكان عَوْدا!

تألمت حينا ثم عاودت الحديث بألم مضاعف:

- وناجم لم يفعل ما يسعدني أبدا يا دهب إلا أنني قد سامحته، سامحته عن كل شيء.

قالتها ثم أرسلت خدها للأرض فتحسستها دهب حيث نادت بأعلى صوتها وسط تأوهات نحيبها:

- أميرة.. أميررة!

رحلت أميرة في الحال لتقوم دهب وهي تسح دموعا لأفولها بمثل تلك الطريقة الموجعة!

وقفت تتابع ما يجري، أهذه سيبتيما الفاضلة؟! أكل ذلك الخراب يحدث فعلا!

لم تكن تتوقع ذلك حتى في أسوأ كوابيسها!

ركض ناجم بآخر ما أوتي من عزم، ركض هربا من الميامين، كان ينظر خلفه بين الفينة والأخرى ليرى هل كانوا يتتبعونه أم لا، إلا أنه فجأة وأثناء نظره إلى الخلف، شعر بشيء حاد يخترق جسده!

نظر أمامه غير مصدق تماما فألفاها تقف شامخة أمامه، تلك العملاقة!

لقد غرست مخالبها في بطنه.. إنها العنقاء المخلبية!

سحبت مخالبها من بطنه فتناثر الدم في كل الأرجاء مع قطع حية من أمعائه، ثم سرعان ما رفعت قدمها فهوت على رأسه لتحطمه مدهوسا، فيخر بعدها صريعا في ذات اللحظة!

نظر خالد أمامه يراعي الواقف قدّامه بغيظ.. إنه المتأنق الذي قابله على الطائرة مرة أخرى يبتسم إليه قائلا:

- نحن معك في كل وقت.. نحن معك في كل مكان!

وما إن أتمها المتأنق حتى جاءه ذلك الشهاب المتقد من أحد الميامين والذي أحاله إلى ذر من رماد في جزء من الثانية!

***

تقهقر أمجد هو الآخر ليهرب من جحيم ما يرى، إلا أنه حين مر بجوار أحد الحرس طاشت يده الممسكة بالسيف خَطِئا فاخترق السيف جسده، حيث أخرجه الحارس بصدمة!

رأت دهب ذلك فهرعت إليه تسند رأسه إلى فخذها فقالت أثناء بكائها:

- لماذا يا أمجد؟! لماذا؟!

ابتسم متألما ثم أجاب:

- لأنني عشت كل عمري على هذا النحو، وسأموت على هذا النحو، دوما ما حييت جبانا، فكان لزاما أن أموت جبانا.

صرخت دهب بفؤاد خاوٍ، فنظرت فوقها لتجد العنقاء تحدق فيها، نظرت إليها دهب مستعطفة باكية ثم أشارت إلى أمجد وأومأت برأسها فأجابت العنقاء بإيماءة هي الأخرى، فابتسمت دهب بلهفة وسط دموعها ثم قامت فنتفت ريشة من ريشها حيث قربتها من عينيها فتدحرجت عبرات من مقلتها لتسيل على ريشة العنقاء!

افترشت دهب الأرض مرة أخرى وحركت الريشة على جرح السيف في جسد أمجد مرارا!

تألم أمجد حتى بدأ جرحه يلتئم في الحال تاركا تلك الندبة التي ستظل أبد الدهر كعلامة خزي وسبة عار وخزت بصدره.

وقتئذ قد استرد أمجد عافيته فقام مشدوها يراعي جسده وموضع إصابته، غير مصدق في حين نظرت دهب إلى العنقاء نظرة شكر فهزت العنقاء رأسها إيجابا ثم ولّت!

***

اصطف الجميع يتابعون الخسائر والدمار الحال، حيث تم قتل جميع قبائل الباراث وأبيدوا عن بكرة أبيهم!

تم قتل أيضا من رفض الانصياع من الحراس أو من كان ذو فكر سقيم ومن بينهم المخزنجي وناجم، وتم القبض على أمجد بعد أن تعافى بريشة العنقاء الشافية مع دموع دهب النقية!

توجهت العنقاء خارجة دون أن تنتظر كلمة إطراء أو اعتراف بعرفان، وخلفها قد جر الميامين أرجلهم فنادت دهب بلهفة:

- العنقاء، أبانوخ!

نظرت العنقاء خلفها فتبعها ملك قبيلة الميامين!

قالت دهب بابتسامة رضا وعرفان:

- شكرا لكم!

هز أبانوخ ملك الميامين، والعنقاء رأسيهما تفهما ثم ما لبث الميامين أن اختفوا عن الأنظار وكأن ليس لهم وجود، وفردت العنقاء أجنحتها العملاقة لتحلق في السماء بمرونة وسرعة إلى أن غابت عن الأنظار عائدة إلى ميادين الجبال بين سيبتيما وباقي الوديان الثمانية!

أمسك جاسر بأمجد جيدا ثم قال:

- ماذا تعتقد أننا سنفعل بك، وأنت من أراد إعدام أناسا من أطهر من جادت الأوطان بمثلهم!

رد أمجد متسائلا بلوعة وحسرة حيث شارف على البكاء:

- ما الذي حدث، لقد نفيتكم إلى رحلة ملعونة لا يعيش فيها أو يعود منها أحد؟!

ابتسم راسل ثم قال:

- ليس هذا ذكاء أو جودا منا، لكن الله لم يقدر لسيبتيما أن تقع بعد، لقد كنا بالفعل على وشك الهلاك إلى أن قابلنا الميامين والعنقاء في ميادين وساحات المعارك والتي شغلتموهم بها عن حماية سيبتيما، وقد سردنا لهم كل ما حدث، فقدموا معنا لإنقاذ سيبتيما حيث استشعروا أنهم السبب في ذلك حين وقعوا في مكيدتكم وانشغلوا بحروب واهية مزيفة عن حماية وادي الفضيلة!

صمت قليلا ثم وجه كلامه إلى دهب وهو ينظر إليها قائلا:

- أعتقد أنك الآن يا دهب قد علمتِ لِمَ كوّنت النجوم شكلا للعنقاء عند سرد تاريخ سيبتيما؟!

هزت دهب رأسها إيجابا فعاود راسل الحديث قائلا:

- أنا لن أرجئك للغد مثلما فعلت أنت، سنحكم عليك الآن وهاهنا وباسم مسالمي سيبتيما وأثناء وقوفهم.

صمت يفكر ويفرك جبينه ثم لبث قليلا فقال:

- لقد حكمت على أهالي سيبتيما بالإعدام، نحن سنحكم عليك بنفس عقوبتك، نحن لم نكُ من المعتدين يوما، رد الإحسان زائد والإساءة بالمثل!

قاطعته دهب رافضة:

- لا يا راسل، نحن لم ولن نكون مثله في يوم، هل تريدنا أن نقتل ونتساوى بوديان الضلال، أرى أن ننفيه؟!

تشاور الجميع في أمره حيث ينظرون إلى بعضهم، فأحس من الجميع الموافقة حيث قال:

- هناك موافقة مبدئية على النفي إذن!

قالها فسكن قليلا ليتفحص أثر قراره على وجه أمجد ثم حين رأى الاطمئنان قد تجلى قال منافيا:

- لكن ليس لموطنه يا دهب، من غير المعقول أن يفعل كل ذلك ويسبب هذا الكم من الخراب ثم يعود لموطنه هكذا، إلا إذا...

قالها فبتر حديثه حيث راعاه الجمع إذ يستنطقه فأكمل حديثه:

- إلا إذا ساعدنا بمعلومات عن سبب ما فعله ومن ساعده، عند ذلك يمكن أن نفكر في الأمر!

نظر بعدها راسل إلى دهب، والتي بدورها نظرت إلى أمجد مشجعة فتحدث الأخير أخيرا:

- كل شيء كان مرتبا من المحفل الماسوني، إنه لم يترك شيئا للصدفة، لقد أرسل خالد ليحكم سيبتيما وهو يعلم نزعة الخير بداخله، ظن خالد أنه رجلهم، وظن أنه من عرفني بالمخطوطة.

سكن قليلا فنظر إلى خالد مضيفا:

- لكن الحقيقة يا خالد، أنا رجل المحفل.. أنا رجلهم، وليس أنت، أنا أعرف خططهم، أنا أعرف عن المخطوطة قبل أن تسمع أنت بها!

وللعلم فتلك المخطوطة هي كذبة ووهم كبير من قبل المحفل، لا نبوءة ولا حظرد ولا غيرهم، تلك شخصية ابتكروها لكي تتقبلوا وجودي حين آتي بل وأنتم من تطالبون بتنصيبي عليكم!

وكل من أتى حيث هنا هو من إرساء المحفل ذاته من أبعاد يعرفها هو جيدا!

تساءل راسل وسط ذهوله:

- كيف استطعت أن تجعلنا نحن من نطلب تقليدك الحكم؟!

أجاب تلقائيا:

- ذهبت إلى تل العطايا مع دهب.

حين ذكر ذلك نظر الجميع إلى دهب معاتبين والتي بدورها أطرقت رأسها خجلا فاستطرد حديثه:

- وقفت أمام الخزانة، وتظاهرت أنني أرى أبي وأنه قال أنه ليس بأبي وأنني الحفيد الخامس والعشرين للحظرد، وكنت أعرف جيدا أنني سيتم القبض علي، لقد خططت لذلك أنا ومختار وجمال ووائل، لكني وقتها لم أُعْلمهم أن خالد هو الأمير، كنت أخبرهم بالقليل جدا، أردتهم أن يظهروا طبيعيين أكثر، أردتهم أن يتلقوا الصدمة كما أُعدّ لها!

سأل جاسر:

- ولِمَ نفيتنا؟! لقد ساعدناك، وتعلم جيدا أن طبائعنا ليس من ضمنها الخيانة؟!

أجاب مفسرا:

- لأنكم لم تكونوا لتحتملوا الضياع التي ستبحر فيه لطمات أمواجه سيبتيما، وكنتم ستدعون لثورة علي كما ثرتم من أجلي!

- ونحن؟! لقد كنا معك!!

سأل بها مختار فرد عليه أمجد:

- تلك كانت تعليمات المحفل!

سأل راسل مرة أخرى:

- ولماذا يريد هذا المحفل ذلك أصلا، لمَ يريد المحفل خراب سيبتيما؟!

توقف أمجد عن الحديث لفترة ثم أجاب ممتعضا:

- حتى يخرج المسيخ الدجال!

صُدم الجميع فقالوا في آن واحد:

- ماذاااا؟!

تحدث مؤكدا بثبات:

- حتى يخرج المسيخ الدجال، فهو لن يخرج إلا بمستويات معينة للطاقة السلبية، وتلك المستويات لابد أن تملأ الكون كله، فلا يتبق بقعة واحدة طاهرة، إلا أنه بالفعل قد بقيت بقعة واحدة تحمل الطهر والنقاء، تلك البقعة هي سيبتيما، سيبتيما هي ما تحمي العالم من المسيخ الدجال!

توقف لحظات يترقب وجوه الحشد ثم أردف:

- فكان لزاما عليهم أن ينشروا الضلال والخراب في واديكم حتى تنحل قيود

الدجال! اتفق الدجال مع دابته وخادمته التي اتفقت بدورها مع المحفل ليثير البلبلة في سيبتيما، وقد كان!

ولأنني عشت طوال عمري مؤيدا للماسونية وقمت بأكثر من ألف بحث عن مواطن الازدهار الذي تخلفه الماسونية وقد وصل إليهم ذلك وراقهم، فاختاروني لتلك المهمة، فأي رجل سيؤدي المهمة كاملة أفضل من شخص يحب ذلك العمل ويقدس مبدأه!

وقد بدأوا بخالد لأنه صديقي.. فاختاروه للبداية، إلا أنه كان مخيبا للآمال كما توقعوا حيث كانت وظيفته مجرد تمهيد لي!

تنهد خالد فقاطع أمجد مبتسما بلوعة ثم تحدث بحنق موجّه حديثه إلى الجمع العظيم المرابض أمام القصر:

- أنا لم أخن سيبتيما قط، أنا أكثر من خاف على ذلك الوادي النقي من الضياع والخراب هذا الوادي الفاضل لم يظهر إلا في رواياتنا، كنت أتمنى طوال عمري أن أحيا باليوتوبيا، إلا أنني كنت واهما، حتى دخلت سيبتيما ووجدتها فوق ما كنت أتخيل فأقسمت على حمايتها مهما كلفني الأمر!

صنعت أشياء للحفاظ على الوادي في حين ظننتم أنتم أنني أريد خرابه، طلبت بناء جيش من أجل محاربة جيوش المعتدين حين تأتي، حيث كنت أعلم بجزء من مخططاتهم، كنت أريد إلغاء العملات الودية لأن بعض أولئك الضعاف المخادعين كانوا يحصلون على كل شيء بتزييف مشاعرهم، تلك العقوبات والقوانين كنت أقصد بها الذين يسكنون كهف الضعاف وينتظرون قدوم الجيش ولكني لم أستطع الإفصاح لأنهم كانوا سيعلمون أنني كشفت أمرهم، كنت سأتخذ تلك العقوبات ذريعة لحبسهم

أنا لم أضر سيبتيما يوما ولا أتذكر أني آذيتها، لقد كان حلمي كله أن أحافظ عليها!

ترقرقت الدموع في عيون قطاع كبير من الحشد إلى أن قال راسل بأسى:

- معذرة يا أمير، لم نكن على علم بأي شيء من مخططاتهم، نحن حقا آسفون، أعتذر لك نيابة عن مسالمي سيبتيما بالكامل وأطلب منك طلبا باسمهم!

رد خالد موافقا:

- تفضل يا حامي الحمى!

- نحن نطلب منك أن تحمل المسؤولية ثانية وتتولى الإمارة.

قاطعه خالد ناكرا:

- لا يا راسل، الإمارة بعد ذلك لابد أن تكون حق أصيل لمسالمي سيبتيما، ليس ضعيفا من خارج الوادي هو من سيحكمكم!

ربت راسل على كتف خالد ثم قال مبتسما بحماس:

- انت لست ضعيفا يا خالد، ولا هؤلاء ضعاف، كان من الممكن أن تخسر حياتك من أجل سيبتيما.. من أجل وطن ليس بموطنك، ولم تتردد أو تبالي، وأولئك الأبطال منهم، أناس جاءوا يقصدون خراب سيبتيما واليوم قد فضلوا الإعدام على تسليمها لجيش معتدٍ، من يقدم على مثل تلك التضحيات، لا يكون ضعيفا أبدا، شرف لنا انتماؤكم حقا!

ابتسم خالد فهمّ بعناق راسل الذي عانقه طويلا فخبط على عضده ليشد من أزره

***

نُصبت تلك المنصة من لَبِنات يلتمع ضوؤها في نهار سيبتيما المشرق وسمائها الخضراء، تتطاير فوقها طيور في حجم أفراخ الحمام، مخلفة ذلك الرذاذ المختلفة ألوانه لينساب أسفلها.

قد اعتلى هذه المنصة راسل ودهب يحملان تيجانا من أحجار كريمة اصطبغت بألوان براقة ينعكس سناها في ضوء الشمس كما لو كانت ستأخذ بأعين الناظرين!

مر جميع من ضحى بشيء من أجل سيبتيما أو هؤلاء الذين رفضوا تسليمها أو إلقاء أسلحتهم في وجه الغزاة!

مروا على المنصة يتسلمون تلك التيجان فتُزيّن بها رؤوسهم ثم ينزلون ليقفوا في صف واحد أمام الحشد وبالطبع كان خالد من بينهم!

صفق الجميع تهليلا ومباركة إلى أن رفعت دهب يديها ليصمت الكل حيث بدأت حديثها ببسمة مشرقة من جديد:

- ربما لم نتفهم كثيرا مآرب عامرينا ومحبينا، ربما تخدعنا الكلمات الزائفة، ربما نستحق يوما الأفضل، نعم لقد مررنا بقطع سوداء قاحلة، بالفعل قد قطعنا أشواطا من الضيق والخذلان، إلا أن قطع الليل تشتد سوادا قبل الفجر وأشد الفترات حرورا هي التي تأتي قبيل مجيء الشتاء، هكذا إذن الأيام، لن تشتد عليك المصائب إلا قبل الفرج مباشرة، تلك حكمة الله في الأرض، لن تشعر بالغبطة إلا إذا تذوقت البأس والحَزَن، لن تشعر بالدعة إلا إن كنت قد شارفت على الهلاك، لن تحب إلا إن كرهك أحدهم، وها نحن ذا على قارعة الطريق الحالك قد قابلنا أولئك النجوم فبهم اهتدينا، ولهم منا جزيل الشكر وخالص العرفان!

***

اختار مسالمو سيبتيما جاسر كأمير جديد وراسل قد أُعيد إلى وظيفته كحامي الحمى، أما "مغارم" ضعيف وادي سيكستوس قد أخذ منصب المخزنجي!

استمع الأمير جاسر إلى مطالب جميع من تم تكريمهم فجميعهم طالب بالبقاء في كهف الضعاف إلا خالد الذي طلب العودة إلى موطنه وكذلك تمت الموافقة على نفي أمجد ومختار ووائل وجمال إلى موطنهم!

وقفت دهب قبل تنفيذ تلك الفرمانات قائلة:

- أطالب الجميع بالانحناء تخليدا لذكرى من فقدتهم سيبتيما في سبيل تحريرها، رحلوا عنا إلا أنهم في قلوبنا قد نُكِتُوا!

قالت ذلك متذكرة رفيقة دربها أميرة فتجمعت عبرة في عينيها سارعت بمسحها في حين انحنى الجميع ومعهم الأمير جاسر الذي انتصب من انحناءته فتبعه الكل مرة أخرى ثم قال مشيرا إلى دهب:

- هيا يا دهب، لتلقِي عليهم فرمان العودة!

وقف الجميع جنبا إلى جنب، خالد يرتدي تاجه ثم مختار وجمال فوائل حتى ينتهي المطاف بأمجد الذي تحدب جسده بائسا.

يقفون على صف واحد لكن الفارق بينهم كبير!

أمسكت دهب فرمانا في ورقة جلدية بنية اللون وطفقت تقرأ وهي تنظر مختلسة إلى أمجد الذي أطرق رأسه بين الفينة والأخرى:

(عودوا أيها الغرباء إلى دياركم، عودوا إلى حيث جئتم، اتركوا مسالمينا في سلام، جئتم ضعفاء وسترحلون كذلك، سنظل فاضلين حتى تملّوا أنتم الرذيلة، اتركونا سالمين ولكم السلام، عودوا إلى دياركم ولا شأن لنا بدنسكم أو طهارتكم، لكن اتركوا ذلك الوادي الطاهر أهله، ربما في مكان آخر قد نكون).

أنهت دهب ترنيمها فتقدمت إليهم لتلكز كل منهم على كتفه الأيمن برفق فيختفي تماما مخلفا ذلك الغبار الأزرق وراءه حتى وصلت إلى أمجد فقاربت شفتيها من أذنه قائلة:

) أو ربما في بعد آخر).

قالتها ثم خبطته برفق على كتفه الأيمن فاختفى هو الآخر وانتهى كل شيء وكأنه لم يكن!

***

استفاق أمجد ليجد نفسه جالسا على كرسيه وحيدا بالصالة وفي يده..!!

هل ما بيده تلك هي المخطوطة!؟

نعم إنها هي!!

تذكر ما مر به!

لقد مر عليه وكأنه حلم.. هل بالفعل كان يحلم؟!

حين فكر بهذا الهاجس أحس بوخز في صدره فرفع ملابسه ليتحسس صدره.. من أين له بتلك الندبة؟!

اااه.. لقد تذكر، السيف، وريشة العنقاء ودموع دهب.. دهب!

اه على دهب!

إذن لم يكن يحلم!

ليته لم يعد أبدا أو لم يستفق إلى الحياة البائسة مجددا!

ليته يعود إلى سيبتيما مرة أخرى!

قام أمجد ليطوف بشقته رواحا وجيئة فتردد كثيرا فيما يود أن يفعل إلا أنه قد استسلم في النهاية فأحرق المخطوطة التي بيده ثم استسلم لسبات عميق كان قد افتقد مثيله مذ مدة!

***

مرت الأيام سوداء متشابهات، قد غرق في التفكير ما بين حنين إلى سيبتيما ومشاعر متضاربة تجاه دهب واشتياق إلى والده!

أوقات عصيبة تجر مثيلاتها حتى قرر كسر حدتها بالعروج على الجامعة مرة أخرى علّه يتناسى.. فلربما وجد سلواه هناك!

ذهب بالفعل إلى الجامعة بعد قليل من التأنق، ولمّا وصل هناك دخل إلى حيث تعود أن يجلس مع أصدقائه إلا أنه وللغرابة لم يكن يجلس إلا شخص واحد تقريبا، هل الجميع قد ألمّ بدراسته الآن؟!

إن الشخص الجالس لهي فتاة على الأرجح!

لا يهم!

جلس قليلا لينعم ببعض الهدوء بعد صخب المواصلات ودوار الزحام!

لم يعرف لماذا استحوذت تلك الفتاة على انتباهه، حيث شرع يتابعها إذ توليه ظهرها إلى أن حدث شيء غريب!

أخرجت الفتاة بعضا من النقود فتركتها على المنضدة، ثم قامت بخفة تاركة ما كانت تقرأه على الكرسي الذي كانت تجلس عليه فولّت!

قام أمجد عن كرسيه فهرول حتى وصل إلى كرسيها في وثبتين فشرع يناديها

داعيا إياها بـ (يا فتاة)، صاح ثلاثا حتى أدارت وجهها وكانت تقريبا على بُعد عشرة أمتار منه، ويا لهول ما رأى!!

ماذا؟! هل يمكن أن يكون ما يراه حقيقة؟!

هل تلك هي..

إنها هي!!!

إنها دهب!!

ابتسمت وهي تلوح له مشيرة إلى كرسيها الذي كانت تفترشه فغمزت له ثم عاودت النظر أمامها وسلكت سبيلها حتى غابت عن ناظريه!

ظل أمجد مشدوها لفترة قد استطالت بعض الشيء مؤكدا لنفسه:

(إنها ليست دهب، لا يمكن أن تكون).

ظل ينكر ذلك إلى أن تذكر حين همست في أذنه قبل نفيه إلى هنا!!

نعم قد تذكر همسها الأغن في أذنه حين قالت:

(أو ربما في بعد آخر).

لقد فهم الآن ما كانت ترمي إليه!!

إنها دهب!!!

نظر إلى الكرسي حيث أشارت فصُعق للمرة الثانية!

إنها المخطوطة!

هي بكل تفاصيلها وورقها الأصفر العتيق.

بخطها اليدوي المنمق.

أمسك بها حيث يتفحصها.. إنها هي، قد خُطّ عليها من الخارج بلغة يعتقد أنها اللاتينية ثم تحتها كلمتين بالعربية، يحفظهما جيدا فقد شخص لهما بصره وزاغت لهما عيناه ثم جحظت في صدمة إذ لا يرتد إليه طرفه، حيث قرأ تلكما الكلمتين جهرا حين قال:

- مخطوطة سيبتيما!

تـمـت بـحـــمد اللّه

شكر وعرفان:

من لا يشكرالناس، لايشكرالله

لم تقفوا إلى جانبي، بل انتصبتم قدّامي لتزودوا عني وتذبوا رماح الغدر عن واقي صدري الهش

إليكم بغير ترتيب وبحفظ كل لقب وسن :

(عصام الشبلي، محمد رزق، حسام زاهر، محمد كشك ، محمود عنبر ،سامح صبح ،أحمد الصرفي، أحمد الشناوي ، أحمد لطفي ، محمد جمال صبري ، إسلام سعد ، يحي زكريا، رامي الجزار ،باسم مدحت ، محمد عصمت ، محمد شعبان ، محمد جويلي سيف حبشي ، المخـوفاتـية ، محمود صلاح ، أحمد طارق أنور ، خالد رشيد ، صالح إبراهيم ، إسلام عبد الرشيد ، أحمد الرفاعي ، أحمد تركي ، أحمد زكي ، محمد السباعي ، أحمد صالح ، أحمد سلطان ، إسماعيل الإبياري، صالح خطاب ، أحمد المعداوي ، محمد شحاتة ، محمد عبد الواحد ، محمد عبدالجليل ، عادل وجدي ، أحمد رفعت منصور ، عمرو عبد الباري، أحمد البنا ، أشرف العطار ، أحمد مرعي ، عبد الرحمن النجار ، محمد رفعت منصور ، حسن خضر ،أحمد ربيع ، ياسر ناصر ، أحمد غانم ، محمد ناصر ، عبدالرحمن جمال ، عبدالله جمال ، غانم محمد غانم ، محمد جمال ، أحمد حميدة ، أحمد رفعت ، حسن صلاح ، حسن علي ، محمود البقري ،أحمد حسين ، أحمد سلامة ، شريف ممدوح ، كريم حماد ، محمد طلعت سالم ، حسام بدوي ، محمد بدوي

، حسام عبد الواحد ،محمد طلعت أبو النصر ، مصطفى حميدة ، إسلام الشعار، أحمد العزب ، عبد الفتاح رشاد ، أحمد حمدي ، محمد شكري ، فارس حمدي ، أحمد بندق ، طارق عادل ، أحمد العريان ، محمد هشام ، محمد مروان ، رامي أبو الدهب ، محمود مأمون ، محمد حندوسة ، أحمد العزوني ، عبدالفتاح صابر ، أحمد يونس ، أحمد محرز ، محمد منصور ، محمد أسامة ، حسام علاء ، أحمد صلاح أحمد درويش ، أحمد شاكر)

آملا ألا أنسى وبالتأكيد .. قد نسيت !

للتواصل مع الكاتب :

facebook: Mahmoud EL Madawy

info@noonpublishing.net

02-338560372- 01127772007